يوميات سراب عفان

رواية



برا ابراهيم جبرا

يوميّات
سراب عفّان

جبرا ابراهيم جبرا

يوميّات سراب عفّان

رواية

دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى
١٩٩٢

والذهن هو مكانه الخاص به، وهو في ذاته يستطيع
أن يجعل سماءً من الجحيم، وجحيماً من السماء.
. . . هنا على الأقل
سنكون أحراراً.

جون ملتون
«الفردوس المفقود»

- ١ -

سراب عفّان

«كان لا بدّ لها أن تخلص بشكل ما، فالحصار يشتدّ.

«والخلاص أنواع، ويتمّ - إذا تمّ - بطريقة واحدة من طرق شتّى.

«فهو قد يكون هرباً، وقد يكون مجابهة.

«والمجابهة هي كل شيء، إذا كان المجابَه محدَّداً، تمكن مواجهته رأساً، وضربُه.

«وإذا لم يكن محدّداً، كما هو في الأغلب، كأنه الهواء الذي يحيط بالإنسان أينما التفت، فلا بدّ إذن من حيلةٍ، وتخفٍّ، والتفاف. لا بدّ من قاعدة «اضرب واهرب»، والانزياح، والضرب مرة أخرى.

«قد تكون المجابهة محسوبة عن طريق المراوغة، إلى أن يتحقّق الخلاص بتحقيق الذات ضدّ إرادة الآخر.

«والخلاص للبعض يتمّ بمحاولة النسيان: هناك من يشرب لينسى، وهناك من يضع رأسه في الرمال عن قصد لينسى.

«هناك من يطلب النسيان باستغلال الحواسّ، أو بالاستسلام للحبّ، أو للفجور، أو ربما بالصلاة، أو بابتلاع أقراص الفاليوم...

«هـذه كلهـا خـطرت ببـال رنـدة الجـوزي وهي تكتب، كـأنها تستعرض تشكيلة من الحاجيات لتختار منهـا ما ينـاسبها. ففي الأيـام الأخيرة، في كل صباح تذهب فيه رندة إلى مكتبها، تفكّر بواحدة منها عـلى الأقل. أو لعلّهـا تفكّر بـأكـثر من واحـدة منهـا، أو بها جميعـاً، وتكتب ـ إذا واتتها القريحة.

«ولعلّ كتـابتهـا، بحـدّ ذاتهـا، كـانت وسيلة أخـرى للنسيـان، أو المراوغة. فهي تجلس إلى الآلة الكاتبـة، وتخبط على المفـاتيح، بـدون تهيّؤ مسبق، فيـما عـدا حـالتهـا النفسيـة. ففي لحـظات من انعـدام العمل، وتراكم الفوضى الجائـرة في دماغهـا، تخبط عشوائيـاً، ولتأتِ الكلمات كيفما شاءت...»

بعـد أن طبعتُ هذه الأسـطر، تـوقّفت قليـلاً وأعـدت قـراءتهـا. وقلت: مسكينة رندة الجوزي، ذاتي الأخرى! أحمِّلها همومي اليومية. رندة، يا قنـاعي المأسـاوي، يا قنـاعي الكوميـدي، لماذا لا تتمـرّدين عليّ؟

ثم بدأت أطبع من جديد؛

«من هنـا إلى أقاصي الصـين، في كل وادٍ وعـلى كل جبـل، تتفجّر عيـون الظلام والبؤس والتـوق ـ وكـذلـك الـظلم، من ذوي القـربى وذوي البعـد عـلى السـواء ... وربمـا الهـوس، والعشق، ونحـر الذات...»

قرأت ما طبعته، ثم عادت أصابعي إلى نقر المفاتيح: «الـراكضون عـبر السهول، والمنـزلقون بـين الصخور، والمحشـورون في حافـلات الظهيرة، إنما يعانون من المحنة نفسها...»

وانتبهت إلى كلمة «محنة». أية محنة أعني؟ محنة الحصار، أو، بكلمة أدقّ، الانحصار، أن يرفض الإنسان ما هو فيه، أن يطلب النجاة إلى منطقة ما من الكينونة يكون له فيها حرية قد لا يستطيع تحديدها ولكنه يشتهيها، مهما تكن. الحرية من الضغوط الآنية، والضغوط الآجلة، من الضغوط المادّيّة والضغوط النفسية ـ الحرية من وضع العالم المزري. الحرية، ولتكن ما تكون.

وتعود أصابعي لتنقر على الطابعة: «هناك دائماً موت مؤجَّل. وفي الظلام المستشري، تتعثّر الذات في بحثها عن نقطة الضوء التي قد تؤشر إلى منفذ محتمل، حيث لا بشر، ولا أصوات، سوى أصوات الزيزان في يوم حارّ، وربما صوت الريح الفجائية في عشية باردة.»

وتراءى لي مشهد فسيح من مشاهد ذكرياتي الجبليّة: منحدرات خضراء كالشرفات تتوالى نزولاً حتى تغيب في أعماق ضبابية، والأشجار تبدو في السكون الغارق في الشمس كأنها وُجدت هناك بخطأ من الطبيعة. الوحشة طاغية. حتى العصافير هجرت الحقول المهملة، والصخور كحيوانات خرافيّة جمدت مكانها كما بموتٍ باغتها في عزِّ الظهيرة. ورندة هناك. وحدها هي هناك. ولا تعرف لماذا هي هناك. كيف وصلت إلى المكان، ومن أين جاءت إليه؟

وعادت أصابعي إلى النقر على الطابعة: «ولكن قبل أن تهبّ الريح، هناك السكون، وهناك السماء الزرقاء الفسيحة، وهناك الصمت المتلألىء. هل أُصيبت الدنيا بالصمم، بالبكم؟ أم أن الطبيعة تلعب لعبة مسرحية تعابث فيها نفسها، ريثما ينفجر بركان ما، فترتجف لدويّ الانفجار أوصال الجبال والوديان؟ أم أنها في انتظار

تفجّر ذلك الشلاّل السرّي من أعالي التلعة، لتتهاوى مياهه بهدير صاخب إلى أعماق الوادي الأسود بخضرة أشجاره الكثيفة؟»

قرأت ما طبعت، وأنا ما زلت على حالي من عدم القدرة على متابعة الصور التي تتحلّق على الورق دون إرادة مني. ولكنني أحسست بصوت الشلاّل «السرّي» (وتساءلت: «سرّي؟ لماذا سرّي؟») يملأ رأسي بغتة كدوار لذيذ، وبسرعة بدأت نقرة جديدة على الورقة:

«آه، إنه الشلاّل الذي جاء بها بين تلك الصخور، لا كراعية تحمل عصا وتركض وراء غنماتها السارحات، ولا كقروية في ثيابها الحمراء والزرقاء والصفراء تجمع أوراق الزعتر وأزهار البابونج ـ بل كفتاةٍ عصريةٍ من المدينة، تلبس بنطلون الجينز الأزرق وقميص الجينز المفتوح عند النحر والصدر، تريد الابتعاد عن الناس والاختلاء بنفسها مع أصوات المياه الساقطة، في انتظار الريح التي من شأنها أن تهبّ قبيل غروب الشمس، بعد أن تكون قد تشبّعت هي بأشعّتها وبريقها. إنها تعانق تلك الأشعّة وذلك البريق، وهي تجمعها بين راحتيها وتدسّها في فتحة قميصها بين نهديها، وتحسّ بالحرارة تدغدغ جسمها من الداخل، والشلاّل لا يكفّ عن صخبه، حتى بات الصخب طاغياً، كالصمت نفسه عند الموت. إنه الموت المؤقّت في الدويّ المتتابع. والمدينة على مرمى حجر منها. المدينة السرّية المفضوحة. المدينة التي تهرب هي منها، فتلاحقها، بشوارعها المكتظّة، وأبواق سياراتها المتصايحة كأنها تريد أن تعلو على أصوات الزيزان والمياه المتهاوية في الوادي السحيق.»

أتوقّف عن ضرب الحروف، وأخرج الورقة من مكانها على الآلة

الكاتبة لألقمها بأخرى بيضاء، وأحدِّق في الآلة الصمّاء، وفي قلبي وجيب غريب. ودون أن أقرأ ما طبعت هذه المرّة، أبدأ فقرة جديدة:

«لماذا أراني أتعلّق بهذا كله؟ لماذا أغيب عن نفسي، وأصرّ على الغياب، أو الغيبوبة؟ ولكنني لست أغيب عن نفسي بقدر ما أنا أتوهّم. إنني أرتدّ إلى المناطق المجهولة التي تسكنني، ولست أدري هل هي التي تدفعني إلى طلب الهرب، أم أنها هي التي أطلبها في هربي ولا أعرف طريقي إليها؟ لعلّني أركض في دوائر، أوّلها آخرها، وآخرها أوّلها. وساعة يفاجئني العمل بضروراته، أنطلق عند نقطة التماسّ كصاروخ أطلق في اتجاه السديم، المدوّم بالكواكب والشُّهُب التي لا تعرف الأرض شيئاً عنها.»

هنا ضحكت على ما كتبْتُهُ الأحرف التي أضربها، ونقرت:

«أي صاروخ يا امرأة، وأي كواكب وشهب، وأنا بين الناس وكأنني لست منهم، أسمعهم ولا أفهمهم، أكلّمهم ولا يفهمونني، والحركة بينهم أشبه بالسير في الوحل اللزج إلى ما لانهاية؟ كيف الخلاص إذن؟ أغلب الظن: لا خلاص. أتسمعين يا رندة؟»

سحبت الورقة من «رولة» الطابعة، ودون أن أعيد قراءة ما طبعت، أدخلت الورقتين معاً في إضبارة بلاستيكية وألقيت بها عني، وانصرفت إلى عملي: كتابة ثلاث رسائل أوصاني المدير بالجواب عنها، على الطريقة المألوفة. وهو يثق بقدرتي على صياغة الجواب الملائم كما يثق بلغتي «الصحيحة» وقدرتي على التعبير ـ ولو أن معظم ما أكتب من رسائل على لسان المدير، مكرور في صيغته ومحتواه، ونادراً ما يتطلّب براعة خاصة.

* * *

في اليوم التالي، كنت وحدي في المكتب مرةً أخرى، وما زالت تلك الرغبة الغامضة في التفجّر باتجاهٍ ما تستبدّ بي، ولا أعرف ماذا أفعل. ولم يكن لي إلاّ أن أهيّىء لنفسي فنجان القهوة المعهود، وأجلس إلى آلتي الكاتبة، والفنجان على يميني أرشف منه قطرات أتلذّذ بها، وأدسّ صفحةً جديدة في الآلة، وتنطلق أصابعي في الخبط على المفاتيح:

«أنا هنا مرة أخرى، للمرة المئة، أو للمرة الألف... الجدران تتباعد، تتناءى، وتتّسع الغرفة، ثم تزحف الجدران معاً، جداراً باتجاه جدار، تزحف وتتقارب، ورندة بينها قد وقعت كسمكةٍ في شبكة صيّاد. تحيط الجدران الصمّاء الأربعة بها أخيراً، حتى تكاد تلامسها: قريبةً من كوعها الأيمن، وقريبة من كوعها الأيسر، وتكاد تدقّ رأسها بالجدار إذا انحنت به إلى الأمام، أو إذا دفعته إلى الوراء. ولكن الجدران، على ضيق الفسحة بينها، عالية، عالية جدّاً، تمتدّ وترتفع، ترتفع إلى ما لانهاية، وتبدو كأنها تبلغ السماء التي تغدو لها سقفاً أزرق بعيداً، مضيئاً، ضئيل الرقعة، لكنه يرسل إليها نسماتٍ طيبة، وأصواتاً مهدهدة، مغرية. هل تغنّي الملائكة حتى لو أُقفصت في سماوات صغيرة حُرمت فيها حريتها؟»

أكفّ عن الطبع، وأرشف ما تبقّى من قهوتي. ويخطر لي ما يجعلني أضحك لنفسي، وأقرّر أن قد حان لرندة أن تنسحب، مؤقتاً، فأتحدّث، دون قناعها، عن نفسي. وأستأنف الطبع:

«ترى ما فحوى تلك الأصوات المغرية؟ ما الذي تقول الملائكة في أغنيتها وقد طوت أجنحتها على أجسامها الأثيرية، وأحلامها

المستحيلة؟ أتقول إن عليّ أن أحبّ، مثلاً؟ ولماذا لا أحبّ؟ ولكن من هو الذي يجب أن أحبّ، أو من هو الذي يجعلني أقطع البراري حافية القدمين لكي أرى وجهه، وأسمع همسه؟ سأحبّ! سأعلن لنفسي أنني وقعت في هوى لا أعرف دربي معه! سأقول إنني عاشقة! ولئن كنت أريد الخلاص، أو الهرب، أو المجابهة، فلسوف يشحذ هذا الحب من عزمي، كأنني أهرب ممّن أعشق، لكي أبلغ من أعشق. تناقض آخر سأتعلّم كيف أستخرج جوهره وسحره... هل هذه أنا بين الجدران الأربعة المطبقة، والبالغة في ارتفاعها غيوم السماء، كأنها تعوّض بالبعد والسموّ عن الحصر والقهر؟ حسناً! سأستعرض الرجال الذين أعرفهم، والذين لا أعرفهم إلاّ وجوهاً وأسماء، لعلّني أعثر على ذلك الذي سيصعد بي هذه الجدران الملساء السامقة إلى جنّة الربّ الموعودة... أفّ، لا، لا! ما شريط الڤيديو هذا الذي راح يقذف بالوجوه بين يديّ، ولا أستطيع أن أوقفه؟ هذه الوجوه كلها أعرفها، واحداً واحداً، ولا تغريني. أنا لا أُغرى بالمألوف إلى حدّ السأم. أريد وجهاً لا أعرفه، حتماً. أريد صوتاً يبعث الرعشة في جسدي عند أول كلمة يطلقها. عليّ أن أخترعه! عليّ أن أوجد من العدم الرجل الذي أحبّ. ولكن من العدم لا ينتج سوى العدم، إلاّ على يد الله. ومن أنا لأحاول تقليد ربّي؟»

توقّفت عن ضرب الحروف، وقد أوشكت أن أبلغ بالورقة نهايتها، فسحبتها، وألقمت الطابعة ورقة أخرى. وقبل أن تنزلق الصور كالماء من بين أصابعي، استأنفت:

«أجل، من أنا؟ فَلْنَرَ.

«رنـدة، عزيـزتي، اسمحي لي بنزع القنـاع مرّة أخـرى، ولـو إلى حين.

«أنـا فتـاة، امـرأة، دخلت في السـادسـة والعشرين من عمـرهـا. قضت أربـع سنـوات في دراسـة جـامعيـة، لا تستفيـد الآن من اختصـاصها. تعمـل في مكتب تجاري لا يمتّ لاهتـاماتها بصلة. . . وماذا يهمّ هذا كله، بالنسبة لسؤالي عن هويتي؟ لا شيء.

«أأقـول إن هـويتي هي اسمي؟ اسمي سراب عفّـان. ثم مـاذا؟ هويتي هي أنني أريد أن أنفجر شظايـا أحيانـاً، لأنني ما عـدت أطيق صبراً على نظام حياتي.

«هـويتي هي أن أبي يحبّني، ويخافني(!)، ويخـاف عليّ ولا يفهمني. أمر عاديّ ولا شك. إذن، أنا كغـيري من الفتيات، ولكنني، أعـرف أنني أختلف عنهن، وهويتي هي في اختلافي. إنني صريحة إلى حدّ الوقاحة أحياناً، وبريئة إلى حدّ السذاجة أحياناً، وأطالب بحقّي في الحياة الروحية والجسدية بعنف إلى حدّ الجنون أحياناً. وخيالاتي أبعد مـدى من كل مـا قد تدركه يدي، وتسكنني هذه الخيالات وتبليني بشقاء الروح وشقـاء الجسد إلى حدٍّ فقدان السيطرة عليهما كليهما أحياناً. وإلاّ فلِمَ لم أقنع بسهيل الراضي «حبيباً» أيام الدراسة، وفسخت الخطبـة مع ابن عمي وسـام عفّان بعد ذلك ـ ولكان لي الآن على الأقل طفل يحبو عند قدميّ؟»

أحسست بـأن ما أطبعـه على الـورقة لا يـلاحق بـالضبط كـل مـا يصـطخب في رأسي، وفي صدري. فـالزوبعـة عاتيـة، وخارجـة عن سياق الزمن ـ والزمن لا بدّ منـه في محاولـة إدراك الزوبعـة بالكلمات. ولكنه بضرورته هذه يؤخّرني عن إدراك الزوبعة إلاّ في أقلّهـا. أو لعلّ

الخطأ لا يكمن في الزمن المتكوّن من تتابع الثواني والدقائق، بل في تحويل المطلق الذهني، السائب كالهواء أحياناً، والمتطاير شظايا أحياناً، إلى كلمات، إلى حروف، إلى نطقٍ صوتيّ صُوَريّ عاجز عن مواكبة المطلق في حرية انتشاره وتطايره. فقلت لنفسي: إنها المشكلة الأبديّة نفسها. فلأقنع بما أستطيع أن أقبض عليه من كل هذا بالكلمات التي تقذفها طابعتي، والتي مهما أسرعتْ ستبقى أسيرة الزمن... لا بأس. فلأعُدْ.

ورقة بيضاء أخرى ألقمتها الآلة، بعد أن وضعت الورقة المطبوعة جانباً على الملفّ البلاستيكي. وطبعت:

«إذن يا ربّة الخيالات، اسعفيني. عذّبيني كيفما شئت، ولكن حقّقي لي ما أنت بصدده معي، نسياناً، أو انقذافاً إلى لهيب التجربة المدمّرة البانية التي ما انفكّت حتى الآن تراوغني. سراب عفّان، منذ هذا اليوم، بل هذه اللحظة، عاشقة، مجنونة بعشقها. ولسوف تكون أيضاً مقاتلة شجاعة من أجل الوطن، وفي سبيل الحرية، ولسوف تحبّ البشرية، وتضمّد جراح الإنسان في كل مكان. ولكن سراب الصريحة، البريئة، المشاكسة، الصارخة في المطالبة بحصّتها من تجربة الحياة الآن وهنا، عاشقة، مولهة. وهي، بينها وبين نفسها تعلن أن العشق إذا تمكّن من المرأة اخترق الحواجز، وهدّم السدود، ورفض الاعتراف بأيّ وازع أو رادع... ولن تحبّ سراب على مستوى دون ذلك. فإما كل شيء، أو لا شيء.»

وتوقّفت لأكرّر لنفسي: كل شيء، أو لا شيء... وعاودتني الضحكة الشامتة من نفسي، حين جعلت الكلمات تتلاعب على

شفتيّ: من كل شيء، لا شيء! مصيبة... ومن لا شيء، كل شيء! مصيبة أخرى... فلأتابع الفكرة إلى حيث تقودني الكلمات.

دقّ جرس التلفون في تلك اللحظة، وكان عليّ أن أجيب. ودخل عليّ مراجعان، واستقبلتهما بالواجب المطلوب. ودخلت على المدير الذي كان في عجلة من أمره مع أحد شركائه، وسلّمته إضبارة الكتب الواردة التي قرأها، وعلّق على هوامشها، وأخرى من الكتب التي وقّعها وعليّ أن أصدّرها. انقضى الصباح، وانقضت الظهيرة، وأنا لا أدري. وحين خرجت من المكتب في نهاية الدوام، ودخلت المصعد الضيّق، وقد حملت في حقيبة يدي الأوراق التي طبعتها كلها، شعرت بأنني أخفّ من المعتاد، بأن حركتي تكاد تكون حركة من لا وزن له. وخشيت لذلك أن يصعد بي المصعد كالسهم ويضرب سقف العمارة! فعدت وتأكّدت من أن الزرّ الذي ضغطته بإصبعي هو زرّ الطابق الأرضي. بل إنني أعدت الضغط عليه مرّة أخرى، قبل أن ينغلق الباب، وينزل بي المصعد بطيئاً، وبرجفة الجهاز القديم الذي لا يُعتمد دائماً عليه.

عند خروجي منه، واجهت الحوانيت التجارية الكثيرة التي تملأ الطابق الأرضي من العمارة الكبيرة. أحذية، وحقائب، وملابس نسائية، وملابس رجالية، تتكرّر على جوانب البهو العريض، وتجتذب أنماط البشرية كلها. هناك أيضاً من يبيع أشرطة الغناء والموسيقى، والأجهزة الكهربائية، والثلاّجات. وبينها جميعاً انحصرت مكتبة أبو حاتم - وهي تعتمد القرطاسية أكثر من الكتب، لعلم صاحبها أن مشتري الدفاتر والأقلام أكبر عدداً بكثير من مشتري

الكتب. وخطر لي أن أدخل المكتبة لشراء مجلّة أو اثنتين، التقطتهما بسرعة، ثم نظرت إلى رفوف الكتب القليلة، وكنت أعرف ما عليها من كتب ألفت عناوينها لكثرة ما رأيتها مرصوفة عليها، بائرة.

لم أجد عنواناً يثير اهتمامي، لولا أن أبو حاتم لفت نظري إلى كومة صغيرة من نسخ كتاب أقامها أمامه على منضدته، قائلاً: «هل قرأت هذه الرواية الجديدة لنائل عمران؟» ورفع لي نسخة بين يديه لكي أقرأ العنوان: «الدخول في المرايا».

قلت: «نائل عمران؟ آه نائل عمران. لديّ بعض كتبه. لم أعلم أنه نشر كتاباً جديداً».

«وصلني هذا الصباح»، قال أبو حاتم.

أخذت الكتاب من يده، ونظرت إلى أسفل الغلاف الأخير، لأرى سعره. وأخرجت من حقيبة يدي ورقة نقدية، وناولتها البائع. فأعاد إليّ الكسور، بعد أن أضاف ثمن المجلّتين.

وحين خرجت إلى الشارع أحسست بضرورة الإسراع إلى المرآب القريب، حيث أوقف سيارتي. وما كدت أستقرّ وراء المقود حتى انطلقت من المرآب بعجلةٍ زائدة، كأنني تأخّرت كثيراً عن موعد في مكان بعيد ـ وأنا في الواقع لست أكثر من عائدة إلى داري، كما أفعل كل يوم حوالي الساعة الثانية بعد الظهر. كنت أدّعي أنني مسرعة، وأن يديّ تضغطان على المقود بشيء من العصبية، وتزداد عصبيتي حين أضطرّ إلى التوقّف عند الأحمر من أضواء المرور.

كانت المجلتان على المقعد الجانبي، وفوقهما كتاب نائل عمران، الذي رحت ألتفت نحوه بين لحظة وأخرى، وأعيد قراءة عنوانه:

«الدخول في المرايا». وفجأة، انتبهت إلى أن تسرّعي الغامض الذي بعث في أعصابي التوتر، له علاقة بالكتاب. إنني أريد أن أصل إلى الدار بسرعة، لأقرأ هذه الرواية الجديدة التي باتت توحي إليّ بأن فيها أمراً يهمّني، يهمّني شخصياً.

الدخول في المرايا ـ هل هو طريق آخر للخلاص الذي تحوم أفكاري حوله، وطابعتي تعاتبني بشأنه؟... الدخول في المرايا، كما فعلت صاحبتنا أليس بعد أن دخلت بلد العجائب؟ إنها هنا لا تدخل المرآة الواحدة فقط، بل المرايا، ومن ستجد مع العجائب التي في داخلها؟ نائل عمران، ولا شك! لعبة قديمة، يا مؤلفي العزيز. وحتى عنوانك ليس تماماً بالجديد... إنك تستعجلني لكي أدخل في المرايا، في مراياك، انعكاساتك، عجائب أوهامك. ولكن لا، لا بهذه السهولة. عزيزي نائل عمران، نحن في عصر المآسي، حيث ندخل أتون النار لنخرج منه إلى أتونٍ آخر. سراب قد تقع ضحية الإغراء، حين تنساق وراء من يبدو أنه يدعوها للركض في أعقابه إلى حيث تلتمع وعود لذّة مجهولة ـ إلاّ أنها سرعان ما تنتبه إلى الخديعة، وترفض الإغراء... نائل عمران، أنت تحاول أن تخدعني بعنوان كتابك، ربما لأنك أوحي إليك بأن سراب عفّان قرّرت أن تكون أكبر عاشقة في البلد، في زمن هو زمن الفواجع. وما دخلك أنت؟ لا، لن أسرع بسيارتي أكثر مما أفعل كل يوم، ٦٠ أو ٧٠ كيلومتراً في الساعة، لا ١٠٠ و١٢٠... هذا جنون محض!».

ولكنني حين أبطأت، لا أظنني أبطأت كثيراً.

حين بلغت الدار، وجدت أنني سبقت أختي وأبي في الوصول.

حيّيت أمي، واندفعت إلى غرفة نومي حيث ألقيت عنيّ بالكتاب والمجلتين، وحقيبة يدي. وألقيت عني ثيابي، وارتديت الروب، وأسرعت إلى الحمّام، ووقفت عارية تحت الدوش البارد. ولكن الماء لم يكن بارداً بما يكفي. إنه ينزل من الخزّان القائم على سطح الدار، وفي مثل هذه الساعة، والشمس على أقواها، ترتفع درجة حرارته، كأنه قادم من السخّان. ومع ذلك، فقد أنعشني برشّه القوي الساقط على جسمي. وتذكّرت الشلاّل السرّي الساقط من أعالي الصخور إلى بطن الوادي السحيق، واستضحكت لنفسي: ما ألذّ الماء! الماء! نائل عمران يا صانع الأوهام، لا تدخل المرايا، تعال ادخل الماء، ادخل الشلاّل، ادخل الأنهر الفائضة، ادخل البحار!.. سراب عفّان، أنتِ أكبر واهمة. ولن يكون موتك إلاّ غرقاً. غرقاً في اللجج المتواثبة، الزاعقة... سأكتب هذا الكلام - إذا تذكّرته. سأضيفه إلى يومياتي.

عندما خرجت من الحمّام مرتدية الروب، شعرت بجوع هائل، واتجهت نحو المطبخ وأنا أسأل أمي: «ماذا طبخت لنا اليوم؟» ورفعت أغطية القدور المجمّعة على الطبّاخ.

«ما فيه النصيب،» قالت أمي، بشيء من التعب.

فضحكت لأسترضيها، كأنني أعوّض بضحكتي عن مللها اليومي في تهيئة ما لا بدّ منه كل صبح، وكل ظهيرة، وكل مساء، رغم كل ما تبديه فتحيّة من جهد في خدمة العائلة. وقلت: «ماما، أنا راضية. وقد جئت اليوم برواية جديدة سأعطيك إياها لتقرأيها حالما أفرغ منها.» وتناولت صحناً أدرت فيه قليلاً من الأرزّ، وقليلاً من المرق مع قطعة لحم صغيرة. وأخذت صحني مع شوكة إلى غرفتي،

وأمي تقول مستغربةً: «ما هذا؟ لِمَ لا تأكلين هنا - في المطبخ، أو في غرفة الطعام؟»

أجبت: «لأن غرفتي أبرد بكثير. يظهر أنك شغّلت التبريد منذ الصباح؟»

أغلقت بابي، ووضعت الصحن على المنضدة الصغيرة قرب رأس فراشي. وجلست جانبياً على الفراش - وكانت فتحية قد رتّبته كما أريد - وتناولت الكتاب الملقى عليه، وفتحته في حضني، وبدأت آكل وأقرأ، في آنٍ معاً. وكنت سريعة في الحالتين: ألتهم ما في الصحن، وما في الكتاب. وفرغت من الأكل في دقائق. واستلقيت على الفراش، لأن الكتاب، مهما أسرعت في التهامه، يحتاج إلى وقت أطول بكثير، لسوء الحظ. ورغم أنني اعتدت القيلولة بعد الغداء، فإنني هذه المرّة بقيت مستيقظة، وكأن ما أقرأه اليوم لن يبعد عنّي نوم ما بعد الظهر فقط، بل نوم الليل أيضاً، فيما يبدو.

وسمعت جلبةً في الدار عرفت منها أن أبي قد وصل، وكذلك أختي شذى. وسمعت أمي تقول: «سراب في غرفتها، نائمة.» وابتسمت لنفسي: أنا نائمة؟ آه لو تعرفين يا ماما! واستأنفت القراءة.

وفجأة انتبهت إلى أنني قد التهمت من كتاب «الدخول في المرايا» اثنتين وسبعين صفحة من صفحاته الـ ٣٢٠، شحنتْ رأسي شحناً جعلني أضعه على المنضدة الجانبية، وأخرجتُ من دُرْجها الصغير دفتر أوراق الرسائل، ومن حقيبتي أخرجت قلم الحبر الجافّ، واتخذت وضعاً مريحاً على الفراش، بالاستناد إلى الوسادتين اللتين رفعتهما

عمودياً وراء ظهري، ورفعت ركبتيّ وأسندت الأوراق عليهما، ورحت أكتب، وقد انطلق عفريتي الماجن يعبث في داخلي:

كانت دهشته هائلة اليوم عندما اتصلت به تلفونياً. قلت له: «لي معك كلام كثير، فهل أنت في كامل يقظتك؟» قال: «وفي كامل قواي العقلية.» قلت له: «هذا المهم. أتعلم أن ما أحبّه فيك هو قواك العقلية؟» قال: «هل تهزأين منيّ؟ من يحبّ أحداً لقواه العقليّة؟» قلت: «أنا. ولو أنني قد لا أكون صادقة مئةً بالمئة.» قال: «ربما اثنين بالمئة؟» قلت: «لا، أكثر، قليلاً.» قال: «طيبّ يا ستّي. وماذا بعد؟» قلت: «وحضورك.» قال: «حضوري؟ على التلفون؟» قلت: «على صفحات الكتاب».

قال: «أيّ كتاب.»

- أيّ كتاب من كتبك.
- حضوري الشجيّ! فهمت.
- بل حضورك الجسماني.
- أنت خطرة! هل أعرفك؟
- لا أظن.
- هل تعرفينني؟
- معرفةً جيّدة، جيّدة جداً.
- هائل. أمّا أنا فلا. أعرفني معرفة جيّدة - دعي عنك جدّاً.
- لأنك لا تعيد قراءة ما تكتب.
- من أين لي الوقت لذلك؟ والوقت أقلّ ماعندي.
- لا بأس. دع الأمر لي. سأخبرك بكل شيء.

ـ لا سمح الله!
ـ أتعرف أنني دخلت «المرايا»؟
ـ كان الله في عونك!
ـ دخلتها، معك.
ـ ما أسعدني!
ـ أحسد نفسك!
ـ مؤقتاً، إلى أن تخرجي؟
ـ سأخرج منها، ربّما الليلة، أو غداً.
ـ واهمة!
ـ لا، متأكّدة.
ـ عندما تخرجين منها، أخبريني. أنت لا تعلمين أنك وقعت في فخّ.
ـ هل كنت أبحث عن هذا الفخّ، فعثرت عليه؟
ـ عثرتِ عليه، به، فيه.
ـ أو لعلّه هو الذي عثر عليّ، بي، فيّ؟
ـ هل القفص يبحث عن العصفور؟
ـ يتوقّف الأمر على من هو القفص ومن هو العصفور.
ـ القضية واضحة، يا آنسة.
ـ أنت الواهم هذه المرّة. أتظنّ أنك أنت القفص؟
ـ واضح جدّاً. وأنتِ العصفور.
ـ اضحك على كيفك، إلى أن تدرك حقيقة ما يجري.
ـ وهل هناك شيء يجري مما يهمّني أن أعرفه؟
ـ الكثير. وإليك الأوليّات.

ـ هاتي يا ستّي.
ـ يظهر أنني، لأسباب خاصّة، معقّدة، يصعب شرحها الآن.
ـ نعم؟
ـ قرّرت...
ـ نعم...
ـ آ...
ـ لماذا سكتِّ؟ ما الذي قرّرت؟

كدت أقول له إنني قرّرت أن أكون أكبر عاشقة في البلد، ولكنني لم أجروء أن أبلغ بالعبث إلى ذلك الحدّ. فقلت:

ـ قرّرت أن أعلمك، يا صاحب المرايا، أنني أعرفك جيِّداً. ولكنني أريد أن أعرفك أكثر.
ـ ولماذا تريدين إزعاج نفسك؟
ـ لضرورة فكريّة، ذهنيّة...
ـ بل نفسيّة، قوليها بصراحة.
ـ إلى حد ما.
ـ وما الذي بعد هذه الأوّليّة؟
ـ أوّليّات أخرى.
ـ إذن تكفيني هذه. مؤقّتاً.

عندها شعرت أنني ربّما نجحت في خطّتي معه. فهو لا يقاوم فيما يبدو... أستدرجه، فيسايرني. وعليّ الآن بالاستمرار على النحو الذي يبقيه على انقياده. لا شكّ أن شيئاً من الزهو قد أصابه، وأنه، على نهجه، يستجيب للعبةٍ طرفها الآخر امرأة مجهولة. ولكن لا بدّ

من الحذر من أيّ انزلاق ينبو بي، أو به، عن تصعيد اللعبة. يجب أن أُبقي على عنصر كبير من التجريد واللاشخصانية، وإلاّ انقلبت القضية إلى مجرّد مغازلة رخيصة، لا أنا أريدها، ولا أحسب أنه يرضى بها. فقلت: «الحمد لله، لأنك لا تطالب بالمزيد من التبرير.»

ـ المهم، النتيجة. الفعل.

ـ الفعل؟ أيّ فعل؟

فوجئت بما لم يكن في حسباني. أجاب: «أليست هذه كلها مقدّمات لنوع ما من الدراما؟»

فضحكت بأكثر ما استطعت من رقّة مصطنعة: «إذا كان لا بدّ من الدراما، فهي، على الأرجح، كوميديا.»

ـ يعني، لا موت فيها لأحد؟ لا قتل، لا انتحار؟ لا غضب يمحق الدنيا؟

ـ لا، لا، أبداً، أستاذ نائل. ربّما شيء من الاستفزاز، شيء من الإغاظة البريئة، شيء من الضحك على الدنيا، رغم ظلمها وقسوتها.

ـ يا آنسة، لا تخيّبيني. أنا والمأساة صنوان وفرسا رهان، كما كانوا يقولون أيام زمان.

ـ ولذلك اقتضى بعض الترويح. شايل السلّم بالعرض، وراكض! هل تريد أن تحطّم المرايا؟

هنا ضحك نائل عمران لأول مرّة ضحكة حقيقية. سمعت القهقهة في حلقه. وددت لو أخذت وجهه بين يديّ وهو يقهقه، لأغلق شفتيه على الضحك بشفتيّ، لعلّه يُعديني.. . سراب عفّان!

انتبهي! ستحقّقين صدق زعمه: ستكونين العصفور يدسّ نفسه بإصرار في القفص، متنازلاً عن حقّ جناحيه في الطيران. لا بهذه السرعة! احذري! اقفصيه أنت أولاً... ثم من هو الذي به حاجة للترويح، هو أم أنا؟ هو أم أنا؟

* * *

توقّفت عن الكتابة. أعدت ترتيب الأوراق الخمس أو الستّ التي ملأتها، وقرأتها، وعند نهايتها فكّرت: ترى لو أنني فعلاً اتصلت بهذا المؤلِّف تلفونياً، هل كان يجري بيننا حوار كهذا؟ ألا يحتمل أنه سيجيبني باقتضاب، أو يعتذر عن الاستمرار في الكلام، أو «يشخط» بي، ويسدّ التلفون؟ ألا يحتمل أن زوجته، إن كان متزوِّجاً، هي التي ستجيب، فتريد معرفة من هي التي تتكلَّم، وماذا تريد «حضرتي» من الأستاذ نائل بالضبط؟ وستسأل: هل يعرفك؟ هل طلب إليك أن تخابريه؟ من أين لك رقم هاتفه؟ إلخ، إلخ.

ثم ابتسمت ابتسامة أحسست بخبثها، لأن الفكرة التي راودتني لم تخل من شيطنة: أأجرّب؟ أأتلفن له فأرى ما الذي يحدث؟ هل أجد رقمه في الدليل؟ أو عند استعلامات الهاتف؟

ولكنني صرفت ذلك كله عن ذهني بهزّة رأس قوية، وألقيت الأوراق عني على الأرض، وأعدت ترتيب الوسادتين، واستلقيت بطول قوامي على الفراش، وقد شعرت أخيراً بتعب يسري في أعضائي جميعاً. وفي أقلّ من دقيقتين، غرقت في نوم ناعم عميق.

* * *

في مكتبي في اليـوم التالي، شغلني بـريد وارد كثـير. كـانت هنـاك رسائل بالإنكليزية عليّ أن أترجمها للمـدير الذي بات يعترف بأنـه لا يطمئنّ إلى فهمه الإنكليزية، والذي من عادته أن يقارن بـين الترجمـة والنص الأجنبي، أملاً في أن يتعلّم كلمة جديدة، أو مصطلحاً تجارياً لم يكن واثقـاً من معناه. وكـان «الدخـول في المرايـا» على منضـدتي، قرب فنجان القهوة، أتحينّ الفرصة للعـودة إليه لأكمـل قراءتـه حالمـا يخـرج المديـر بشأن من شؤونـه. وعندمـا انتهيت من البريـد، وخرج المدير كعادته، كـانت الساعـة قد تعـدّت الثانيـة عشرة. ولكن ما إن فتحت الكتاب عند الصفحة ١٦٩، حيث توقّفت في الليلة السـابقة، وقـرأت سطرين أو ثـلاثة، حتى شعـرت بـذلـك الـدبيب اللذيـذ في أصـابعي، الذي يجعلني ألجـأ إلى الطابعـة قبل أن يفـارقني. وألقمت الطابعة ورقة جديدة، وأعملت أصابعي على المفاتيح، دون هَدْي:

عبث وجنون، أدري.

لم يصدّق أبي أنني ولدت حيّـةً يوم ولـدت، لكثرة مـا طرحت أمي قبل ذلك، وقال: «سمّوهـا سراب، لأنني أعلم أنني ما إن أصـل إلى مستشفى الولادة حتى أجد أنني خُدعت مرّة أخرى...»

ولم يُخدع يومئذ، ولكنه بقي يخشى أن ما يراه لن يكـون في يوم مـا إلاّ خـديعة. وقـال لي يوم بلغت العشرين ـ وقـد رُزق بعدي بـأربـع سنوات بشذى: «لماذا لم أطلق عليك اسماً أنت أحقّ به؟ ميّ، مثـلاً، أو ريّا، لأنني أرتوي بك كل يـوم، يا حبيبتي، وأنت سراب!» وقلت لـه: «أليست هـذه هي المعجـزة التي كنت تحلم بهـا؟» فهـزّ رأسـه ضاحكاً: «نعم، على عكس ما يحلم الناس!» ولم أدرك ما الذي قصد

إليه ساعتئذ. أو لعلّه لم يكن يقصد أمراً محدَّداً. ولكنني أدركت فيما بعد الكثير ممّا لم يقله، أو لم يكن بوسعه التعبير عنه.

لماذا كان عليّ أن أولد لأروي ظمأ شخص آخر، حتى ولو كان أبي؟ وهل ارتوى بي فعلاً، كما يزعم؟ من الواضح أن أبي، رغم كل علمه الجراحي، في واد، وأنا في واد. وفي السنوات الأخيرة أخذ الجبل بين الواديين يرتفع بشكل ملحوظ. لا، ما عاد يهمّه ما كان يهمّه قبل ربع قرن من زمن رديء. قذف بي سراباً إلى العالم، وبقيت سراباً، رؤيا توحي بما ليس فيها. رؤيا مغرية، ربّما ـ ولكن لمن؟ ولي أنا، ألم أبق سراباً، أركض في اتجاهه، ويبتعد بي، أركض مزيداً، ولا أجد إلّا أنني زدت توغلاً في البلقع الذي لن يعرف الماء؟ أيّ مرايا دخلت، لا تؤدّي إلّا إلى المزيد من المرايا؟ ويتضاعف الخداع. يتضاعف الكذب. سأكون أكبر عاشقة في الدنيا حالما تتاح لي الفرصة: ولكن أين الطوفان الذي سألقي بنفسي في خضمّه، في صحرائي اليوميّة العنيدة؟

احسست أنني استطردت إلى حيث لا أريد. وبسرعة أخرجت الورقة من الآلة الكاتبة، وأنا أفكرّ: هذا التساؤل فرغت منه، فلماذا أكرّره؟ لقد سبق أن قرّرت الدخول في لعبة كلامية مع الآلة الكاتبة، أو مع أوراقي في البيت. فلأستمرّ في اللعبة، وليتضاعف الكذب ـ إن كان ما أكتبه كذباً. ولذا، عندما أدخلت ورقة جديدة في الآلة، كان خيالي قد انعطف بي بشكل حادّ وحازم. وأخذت أطبع.

(تتمّة ما كتبت أمس في البيت)

تلفنت له هذا الصباح بعد وصولي إلى المكتب بقليل. بدا لي من

صوته أنه مضطرب، وغير واثق ممّا يسمعه مرّة أخرى من امرأة لا يعرفها، وخشيت أن يقطع المكالمة، وكان عليّ أن أكون مقنعة، وطبيعية، ومغرية بالاستمرار، كلها معاً.

قلت: «هل نمت جيِّداً البارحة بعد حديثنا؟»

قال: «ولِمَ لا أنام جيِّداً بعد حديثنا؟»

ـ ألم أقلقك في شيءٍ؟

ـ أبداً. ولكنني أفضِّل لو أنني أعرف من هي التي تخاطبني.

خطر لي أن أدَّعي أن اسمي رندة الجوزي، ولكنني قرَّرت بسرعة أن أحتفظ برندة للعبةٍ أخرى.

قلت: «سأذكر لك اسمي الأوَّل. اسمي سراب.»

ضحك ساخراً: «ها ها! سراب! عرفت لعبتك يا آنسة ـ أم أنك سيِّدة؟»

قلت وأنا أضحك: «آنسة، أو سيِّدة غير مهمّ. المهمّ هو أنني حقيقيّة، رغم اسمي.»

ـ سأطلب البرهان على ذلك.

ـ كل شيء في وقته.

ـ هل انتهيت من «المرايا»؟

ـ ما زالت في وسطها. أعترف أن الفخ الذي نصبته شغَّال.

ـ ها! سراب في فخّ... أو، الفخّ يلتقم السراب...

ـ أو سراب في المرايا، أو مرايا السراب...

وفجأة قال بشيء من الجدّ: «اسمعي. هل أستطيع أن أراك؟»

فقلت، متسرّعة بعض الشيء كعادتي: «ولِمَ لا؟»
ـ متى؟ غداً؟ بعد غد؟
ـ فيمَ التأجيل؟ اليوم!
ـ اليوم؟ بعد الظهر؟
ـ اليوم، هذا الصباح!
ـ لا! إنك تعبثين بي.
ـ أبداً. وهذا هو عنواني.
ـ لا، لا... هذه ممازحات قديمة، معروفة. ستجعلينني أقصد مكاناً ترقبينني فيه دون أن أراك، لتضحكي على رجلٍ أومأتِ إليه فجأة راكضاً إلى سراب. وقد يكون معك في التفرّج صديق أو صديقة، إمعاناً في الضحك. آسف!
ـ إذن، أعطني عنوانك، فآتي أنا إليك بسيارتي.
ـ هذا الصباح؟
ـ نعم
ـ لا، لا. غير ممكن. آسف.
ـ أنت متزوّج، وتخشى أن تزورك امرأة في بيتك. أليس كذلك؟

وتمنّيت لو يقول: أنا لست متزوّجاً. غير أنه راوغ، على طريقتي: «متزوّج أو غير متزوّج، غير مهمّ. المهم...» وسكت.

وبقيت صامتة أنتظر انتهاءه من تردّده. وإذا هو يقول: «ما عنوانك؟ وما رقم تلفونك؟»

فأمليت عليه عنوان المكتب ورقم هاتفه. وأفهمته كيف يأتي إلي العمارة التي أنا فيها، ويصعد إلى الطابق الرابع، ورجوت أن يواتيه

الحظ ويكون المصعد شغّالاً، ويتّجه نحو الباب الثالث إلى اليسار إلى آخره، إلى آخره.

* * *

توقّفت عن الطبع، وقرأت ما طبعت على الورقتين، وأنا أتلذّذ بشيطنة فتاة ترتّب مقلباً لا تعرف نتائجه. وسألت نفسي: ولكن هذا الكاتب الكبير، هل يُعقل أنه سيأتي راكضاً إلى سراب، كما قال؟ أنا، كفتاة تريد الخروج من وضعٍ ما، وتجد تسليةً في مكرٍ بريء(؟)، قد أتخيّل أن كل شيء ممكن. ولكن، هل كل شيء ممكن فعلاً، وبهذه البساطة؟ فلأصحّح الوضع.

أدخلت ورقة أخرى في الطابعة، واستأنفت الدقّ على المفاتيح.

بعد أقلّ من نصف ساعة، رنّ جرس التلفون. فرفعت السماعة:

- هلو.

- الآنسة، أو السيدة، سراب؟

- نعم. الأستاذ نائل؟

- عرفتني؟

- طبعاً. أنا في الانتظار.

- أردت التأكّد من أن الرقم الذي أعطيتنيه ليس خدعة.

- اطمأننت إذن؟

- نعم، ولكنني آسف. لن أستطيع المجيء.

- أنا آسفة أيضاً. هل الوقت غير ملائم؟

- لا الوقت ملائم، ولا المكان ملائم. ولا الوضع ملائم.

- آسفة، آسفة جداً.

وفي الحال تغيّرت نبرة صوته: «هل أنت. . . جميلة؟»
ـ أحرجتني، أستاذ. هل وجدت من يقول إن لبنه حامض.
ـ أو أن زيته عكر؟
ـ بالضبط.
ـ إذن أنت، في ظنّك الأقل، جميلة؟
ـ عليك أن تجازف، فتعرف. ولكن، اسمع. . . من قال إن كوني جميلة أو غير جميلة أمر وارد في مخابرتي لك؟ كنت أحسب أن الذي سيهمّك هو: هل أنا ذكية، او مثقّفة، أو فنّانة، أو شاعرة، أو أيّة مزية أخرى. خيّبت ظنّي!

ـ طيّب، طيّب. سأجازف. ولكن ليس هذا الصباح.
ـ عصر اليوم، ربّما؟
ـ سراب، هذا إلحاح ما كنت أتوقّعه.
ـ آسفة. إنني امرأة متهوّرة. الحق معك. انسَ كل شيء. سأعود إلى «المرايا». مع السلامة.

وأقفلت التلفون قبل أن أسمع الجواب. وضحكت. وأخرجت سيكارة أشعلتها على مهل، ورحت أدخّن، وليظنّ ما شاء له هواه أن يظنّ. ولكن قبل أن أنتهي من سيكارتي، رنّ التلفون ثانية. فرفعت السمّاعة وأنا واثقة من أن المتحدّث سيكون هو.

وصدق ظنّي. لقد أوقعته في «الفخ»، وسأراه الآن يتلوّى فيه. قال مبادراً: «أريد أن أقول لك إن من عادتي أن أحكم على الناس من أصواتهم. ولكنني، حتى الآن، عاجز عن الحكم عليك من صوتك.»

ـ أتعني، لم يعجبك صوتي؟
ـ لا. أعني، لم أسمعك بما يكفي.
ـ أتريدني أن أتكلَّم أكثر مما تكلّمت؟
ـ نعم.
ـ إذا كـان حديثي معـك أمس، وحـديثي معـك مـرّتـين اليـوم، وحـديثي الآن للمرّة الـرابعة، غـير كافٍ لإسعـافك في التـوصّـل إلى حكم مـا ـ وأنا لم أقصـد في الأصل إلاّ التحـدّث إليـك عن كتبـك، وبخاصة كتابك الأخير ـ فأنت لست في الأغلب الرجل الذي تصوّرته مما قرأته لك. ألا يكفيـك ما سمعت من صـوتي؟ أم أنك تتـوقّع مني أن أغنّي أيضاً؟

وإذا هـو يجيب: «لا، لا حاجـة لـذلـك. فصـوتـك أصـلاً أشبـه بالغناء.»

ـ صحيح؟ أم أنك تسخر؟
ـ صوتك غناء صرف. سجّلي هذا الاعتراف عليّ.
ـ إذن سأكفّ عن الغناء فوراً. باي باي.

ومرّة أخرى فاجأته بإقفال التلفون.

تـوقّفت عن الطبـع، وأعدت قـراءة ما طبعت. وفي الحـال عادت أصابعي إلى النقر على الطابعة:

(أفتح قوساً هنا لأعترف: يخطر لي أن ما كتبته أمس واليـوم ما هـو إلاّ سيناريو لعلاقة أتمنّى لو تتحقّق. ولماذا لا تتحقّق عـلاقة كهـذه مع رجـل كنائـل عمران، وهـو البـارع في اختـلاق سينـاريـو بعـد آخـر لعـلاقات معقّـدة ومتشابكـة بين رجـاله ونسـائه؟ ولكنـه في ما يكتبـه

يكتفي بإسقاط خيالاته وتمنياته، أو بإعادة تركيب ذكرياته، ولا يبحث عن تجسيد جديد، أو تجسيد معاد، لما يكتب. لعبته في الأغلب ذهنية صرف، ومتعته كذلك ذهنية صرف. إنه يحلم وهو يقظ، ناسجاً معاً الممكن واللاممكن، المحتمل والمستحيل، على هـواه، وقد يعيش زمناً في داخل ما ينسج، كما في داخل «مراياه». ولكنه في النهاية لم يقابل أحداً، ولم تعشقه امرأة، ولم يترصّد له قاتل، ولم ينفّذ مأرباً في بلد غريب ـ كما زعم أنه فعل في «المرايا» على لسان راويته. أمّا أنا، فليس هذا ما أريد. واضح أنني لست أكتب رواية، كما حاولت في السابق أكثر من مرّة. إنني الآن أضع مخطّطاً قابلاً للتنفيذ، سواء نُفّذ أم لم يُنفَّذ. أليس الأفضل أن أكتفي بكتابة رواية، أحلم فيها على هواي مثل أي روائي، وأوفّر على نفسي إشكالات التعامل الفيزيائي مع الآخرين؟ إذن، هذه الكتابات لا ضرورة لها: ما عليّ إلّا أن أستسلم لأحلام اليقظة كأية فتاة أخرى، فأكون عاديّة كأية فتاة أخرى، وكأية فتاة أخرى لا أعرف من المعاناة، ولا أذوق من المتعة، إلّا ما يعرض طارئاً، سخيفاً، باهتاً، كل يوم. ولتبقَ سراب في محنتها، ولتتحطّم تحت الضغوط العاجلة والآجلة التي رضيَتْ بها.

لا! سأستمر في السيناريو. . . إنني لا أكتب رواية. إنني أضع مخطّطاً، وقد أبحث عن طريقة لتنفيذه. كل ما أحتاجه هو الوقت، والإرادة. شيء من الأناة، والصبر، والسيطرة على اندفاعاتي، وتساؤلاتي. ولِمَ لا أتساءل، كأيّ إنسان في هذا العصر، أو، كما يقول نائل عمران في روايته، كأيّ مخلوق يرى التاريخ حوله يتشكّل على نحو لا يستطيع متابعته: ما الذي بإمكاني أن أعرفه؟ ما الذي أرغب فيه؟ ما الذي عليّ أن أفعله؟ وهل بين هذه الأسئلة علاقات أستطيع

تحـديدهـا وفهمها كـامرأة شـابّة هي جـزء من مجتمع معـينّ، في زمن معينّ، في مناخ معينّ؟ المعرفة، هل هي تؤدّي إلى الرغبة؟ وهل تؤدّي المعرفة مـع الرغبـة إلى الفعل؟ المعـرفة، الـرغبة، الفعـل: هل هـذا ثالوث أنَويّ، أم هو اجتماعي؟ هل توحّد الأنا بين المعرفة، مهـما بهظ ثمنها، وبين الرغبة، مهما أتت بالألم، وبين الفعل، مهما كان مخاطرة؟ أم أن المجتمـع سينظّم العـلاقات بينهـا جميعاً، ويـداخلها، وربّمـا في النهـاية يميّعهـا، لكي يوحي بتـوحيدهـا، وهو في الـواقع يـوهنها حتى التلاشي؟ حسبي أن أضع تساؤلاتي في نطاق جماعيّ حتى أراها تتّخـذ صيغـاً تبتعد عن همّي الحقيقي الأول: المعـرفة، عقـلاً وبـالتجـربـة؛ الرغبة وهي التوق إلى التداخل في الآخر؛ الفعـل، وهو الحـركة التي تكشف الصلة بين حواسي والكون. . . وهنا أغلق القوس.)

انتبهت إلى نفسي وأنا أجابه الآلة الكـاتبة، وقـد تدلّت منهـا ورقة انحنت إلى الـوراء، وما زال فيهـا بعض الفـراغ. فـطبعت في سـطر جديد مرة أخرى:

«الصلة بين حواسي والكون.»

وتمعّنت في الكلمات. هـل عـثرت عـلى كشـف مهـمّ؟ سحـبت الورقة، أضفتهـا إلى الأوراق الأخرى، ووضعتهـا جميعاً في الإضبـارة البلاستيكيّة الزرقاء، وقذفت بها في الدّرج.

تناولت إضبارة رسائل العمل التي كانت قـد عادت إليّ من مكتب المـديـر، وقـد أشرّ بعض أسـطرهـا، وعلّق عـلى هـوامشهـا، ورتّبتُ الأوراق بحيث أستـطيع أن أركّـز ذهني على كتـابة الأجـوبة المـطلوبة

بالعربية، بشكل مسودّةٍ يطّلع عليها المدير، ويغيّر فيها ما يريد، ليعيدها إليّ، فأضعها في صياغتها العربية النهائيّة، وأترجم إلى الإنكليزية منها ما يقتضي إرساله إلى الأقطار غير العربية.

* * *

فرغت من قراءة «الدخول في المرايا» بعد يومين أو ثلاثة، ووجدت نفسي مسكونة بخواطر لا أقوى على إزاحتها من ذهني. لم أعد إلى أوراقي لبضعة أيام، إذ وجدت أنني لا أستطيع أن أجابه بالكلمات ما كان يمرق من خلال رأسي مروق خيول هوجاء ما تكاد تُرى حتى تختفي في زوبعة من الغبار. كل شيء غبار. كل ما حولي غبار. كل ما في داخلي غبار. أيمكن لكتاب واحد أن يثير هذا الضجيج كلّه في نفسي، هذه الدوّامات التي لا تستقرّ على معنى أتحكّم به؟

شيء واحد كان يتكرّر، ويكاد يظهر، ويؤكّد حضوره، ولكنه ينجرف مع الزوبعة والعجيج: وجه نائل عمران، أو يداه، أو لعلّه صوته، كلماته المتساقطة دونما خطة أو نسق. هل وقعت ضحيةً لتصميمي، وهو ما عددته أصلاً نكتة، أو على الأكثر لعبةً، بيني وبين نفسي؟

* * *

بعد أسبوع عدت إلى أوراقي، وقرأت «اليوميات»، أو السيناريو المزعوم. «كل شيء ممكن، كل شيء وارد،» هكذا قلت. ففي أثناء لقاءاتي مع أصدقائي في غضون ذلك الأسبوع، وفي أثناء زيارات الأهل هنا وهناك، راح يلازمني إحساس لحوح بأنني للتوّ جئت من زيارة صديقي الموهوم، أو أنني سأذهب للتوّ إليه. كأنني في حلم واعٍ

لا ينقطع. في الليل كنت أرى أحلاماً لا علاقة لها بما أنا فيه. بعضها أحلام مرعبة: أدخل أنفاقاً تنتهي إلى مياه موحلة؛ أنا في سيارتي أصعد جبلاً يؤدِّي إلى جبل يؤدّي إلى واد، وإذا أنا في أسواق المدينة المزدحمة بين أناس يدفعونني إلى الحائط، يجرّون شعري ويختطفون حقيبتي من يدي. ولكنني في اليقظة أفكِّر في أمور أخرى: أدخل المرايا، وألتقي رجلاً رأيت صوره في المجلّات، ولا أعرف له عمراً. ونحن في حوار متواصل. حول الذات، حول المعرفة، حول الرغبة، حول الفعل. ربما حول الحب أيضاً. حوار حول الكينونة. حول الحصار. حول الحرب. المواجهة. الصراع. ثم عودة إلى المعرفة: هل المعرفة حسّية أم عقلية؟ والرغبة: هل هي في الجسد، في الأعضاء، أم هي في القلب، في الروح؟ والفعل: كيف يبدأ، وكيف يجري، وإلى أين؟

قرَّرت أن أعود إلى كتاباتي مرّة أخرى . وسأحاول السيطرة على ما أكتب هذه المرّة، بإقحام وعيي في كل ما يعنّ لي تلقائياً، من ناحية، وفي كل ما يحدث لي فعلاً كل يوم، من ناحية أخرى.

وتوصَّلت إلى أن يومياتي يجب أن تُجعل في صنفين، سوف أسمِّيهما، ببساطة، ألف، وباء. وخطر لي أن أسمِّيهما خ(خيال) وح(حقيقية)، ولكن تشابه الحرفين شكلاً جعلني أفضِّل التسمية الأولى: ألف، وباء. فتكون يوميات الألف هي ما يقذفه الخيال إلى قلمي، ويوميات الباء ما أصفه من أحداث تقع لي كل يوم مما يستحق (ولو بمقدار) أن يُسجَّل.

وتنبّهت في الحال إلى أن «ألف» ستكون أغزر، وأمتع، بل وأخطر، من «باء». ولذا فإن عليَّ ألّا أفسد على نفسي في التفريق بين الاثنين، فأمازج بينهما أحياناً. ولكن بحذر. وإلّا، فما الفائدة من التصنيف؟ يجب أن أقاوم تزوير تجاربي. ولكن هل أستطيع حقّاً أن أقول شيئاً ممتعاً عن الواقع إذا لم أتناوله بشيء من بحبوحة الخيال؟ وهل أستطيع الاستمرار في الخيال دون إدخال شيء من الواقع فيه؟ ما كنت لأحتار في الأمر، وأنا بعد في أول العملية الذهنيّة. المهمّ هو أن أبدأ.

كنت على وشك الخروج من غرفتي لمجالسة والدي الذي سمعت جلبة دخوله عائداً كمعظم الأمسيات في مثل هذه الساعة من عيادته، فتستقبله أمي، وتحدّثه عن العشاء الذي سيتناوله على مائدة صغيرة أمام التلفزيون في غرفة العائلة المجاورة لغرفة الاستقبال الكبيرة، ويأتي بزجاجة البيرة من الثلّاجة، مع كأسه الباڤارية الخاصّة التي لا يستمتع بشرب البيرة إلّا منها. غير أنني غيّرت رأيي، وجلست إلى المنضدة البيضاء التي رافقتني طوال سني الدراسة في الثانوية والكلية، وأخرجت مجموعة من الأوراق البيضاء، وأخذت أكتب:

ألف

كل يوم أفكّر فيك. كل ليلة أفكّر فيك. وأقلق عليك. وأكاد أحياناً أبكي، بدمع وبغير دمع، لأنني أجهل مصيرك. ولسبب ما أخشى عليك. وتأخذني الهواجس والمخاوف. وأراك تتحمّل عذاباً، وقسوة، وأنا التي أنوء بما تتحمّل. وأتساءل، وأنت في غمرة

المجهول، تجابه العنف، وربما الجوع، والإجهاد، هل يحميك الحب، ولو قليلاً، من الـداخل؟ هـل يمدّك الحب بقـدر من الطاقـة يسعفك عندما تخذلك قواك الأخرى؟ تصوَّر، كنت أخشى أن الحب سيضعف إرادتك، وينال من قوّتك. ولكنك بسحرك حوَّلت كل عـاطفةٍ فيـك إلى نارٍ تؤجّج عزمك، وتزيد من دفعك . . .

بسرعـة، ودون أن أقـرأ مـا كتبت، قـذفت بـالـورقـة إلى الأوراق الأخرى، ووضعتها جميعاً في الدّرج، وانـطلقت نحو والـديّ، وأغنية من التلفـزيـون تنبعث في أرجـاء الـدار، وقلت: «هلو، بـابـا. . . تعشّيت؟»

قال: «أنا في انتظارك.»

ضحكت: «إذن ستموت من الجوع.»

ـ أدري. قطعة من الجبن تكفيك، كالعادة. وأنا طلبت إلى أمـك أن تقلي لنا، لي ولك، قطعتي ستيك، مـع بطاطـة وطماطـة وبصل. وجبـة أناس يعملون ويجـوعون، ولا يخشـون أن يسمنوا. أمّـا شـذى فنتركها لمزاجها.

ـ بابا، أنا لا أشتهي الطعام في المساء.

ـ يلاّ، يلاّ، سراب. أعلى أبيك تسوقين هذا الكلام؟ أنت تخـافين على قوامك، وستبقين على هذه الحال، إلى أن تتزوّجي.

ـ وبعد ذلك أنتقم، وآكل، وآكل. . .

ـ والعياذ بالله!

ونهض ضاحكاً واتجه نحو المطبخ حيث كـانت أمي وشذى تهيِّئـان له الأكلة التي طلبها.

أمَّا أنـا فعدت مرَّة أخـرى إلى غرفتي، وبي إحسـاس بأنني تـركت فيهـا أمـراً يجب أن أكمله، ولكنني لا أدري مـا هـو بـالضبط. ومـرّة أخـرى جلست إلى منضدتي البيضـاء، وأخـرجت الأوراق بـانـدفـاع عصبي لا أستطيع التحكّم به، وكتبت ابتداء من أعلى الورقة:

باء

كل يوم أفكِّر فيه. كل ليلة أفكِّر فيـه. ما معنى هـذا القلق؟ وأكاد أحياناً أبكي، بدمع وبغير دمع. لأنني أجهـل كل شيء عنـه. ولسبب مـا أخشى عليـه. أم أنني أخشى منــه؟ تـأخــذني الهـواجس. أتخيَّله يتعذَّب، فأتعـذَّب. وأتساءل، هـل يعرف الحب كـما وصفه أكـثر من مـرّة في كتبه؟ وهـل يحميـه حبٌّ مـا من الـداخـل، حيث يكمن سرّ الصمود في زمن الألم؟ أم أنه مشغول بأفكار أخرى ليس للحب مكان فيها؟ أرجو ذلـك! أرجو ألّا تشغله أيـة عاطفـة بشأن امـرأة، سلباً أو إيجاباً، إلى أن يحين دوري معه. سأفكِّر فيه كتمثال من رخام لم يكمل النحَّات صنعه. وما كلّ هذا الـذي أتصوَّره عنـه، مما قـرأت له، إلاَّ المـادة الخام التي سـأشكِّلها أنـا في النهايـة، فـأطلق النبض في قلبـه، وألهب الحسّ في جسده، وأعكس بذلك حكاية بغماليـون مع التمثـال الذي نحته ثم وقع في غرامه...

فجـأة، قلت لنفسي: غريب! أليست هـذه «الباء» الحقيقيـة تشبه كثيراً تلك «الألف» الخيالية؟ ماذا استفـدت من التفريق بـين الاثنين إذن؟ عبث، عبث... هذه حالة مرضيّة ولا ريب. ماذا سيقـول أبي إن هو علم أنني ما عدت أفرِّق بين ما هو حقيقي وما هـو مجرّد وهـم؟ يجب أن أشطّ «بـالألف» إلى حيث لا يمكن «للبـاء» أن تصــل. وكم

كنت أتمنّى العكس، فـأشطّ «بـالبـاء» إلى حيث تعجـز «الألف» عن الوصول!

* * *

في مكتبي غـداة اليـوم التـالي، شغلتني الـرسـائـل والمـراجعـات والتلفونات حتى الظهيرة. وعندما خـرج المديـر الأستاذ شريف الـترك بصحبـة شريكه الأستـاذ عبد الـرحمن المولى (هكـذا أخاطبهما، كأنهما امتداد للأسـاتذة الـذين درست عليهم في كلية الفنـون)، لم يكن قد بقي عـليّ إلاّ ترجمـة رسالتـين قصيرتـين، فـرغت منهـما عـلى عجـل، وجعلتهما في إضبارة وضعتهـا على مكتب المـدير، ورجعت إلى غـرفتي التي أحسّ دائماً أنها مملكتي الحميمة، حيث أستطيع أن أناجي نفسي، أوراقي، قهوتي، دون تدخّل أو مقاطعـة من أحد، فيـما عدا الهـاتف الذي لا مهرب منه.

ومـا كدت آخـذ من فنجان قهـوتي رشفتـين حتى عـاودني ذلـك التفجّـر الذي كـان قد أصـابني منذ حـوالي أسبوعـين، وأدركت أنني مقبلة على مغامرة جديدة مع الكلمـات التي يجب أن أتلقّفها على الآلة الكاتبة وكـأنها، إذا لم أفعل ذلـك، ستتساقط عـلى الأرض، وتضيع. ورحت أطبع:

أمس، في حوالي الحادية عشرة ليلاً، بعـد أن مللت انتظار مخـابرة منه، وبعد أن غضبت لتمنّعه السخيف ـ ولو أنني أبرّر إحجامـه بأنـه خجول، أو بأنه يأبى أن يُقـال عنه إنـه يتحرّش بـامرأة مجهـولة سمـع صوتها مرّة أو مرّتين على الهاتف ـ تلفنت له، وأنـا أقول مـرّة أخرى: فليظنّ ما شاء له الظنّ.

استمرَّت رنّة التلفون مدّة طويلة قبل أن يجيب بصوت لاهث: «هلو، نعم؟»

قلت بنبرة بادية المرح: «هل جئت تركض إلى التلفون؟».

يبدو أنه لم يكن يتوقَّع سؤالاً كهذا، إذ قال: «نعم جئت مسرعاً من غرفة أخرى.»

- ولكنك تأخَّرت كثيراً.

- لم أكن أريد الجواب. وتأمَّلت أن ينقطع الدقّ. ثمّ غيَّرت فكري... أنت سراب، صح؟ أم أنك شخص آخر؟

- هل كنت تتوقَّع شخصاً آخر، امرأة أخرى؟

- عندما أكتب، أغرق. وأحياناً لا أنتبه لجرس التلفون حتى اللحظة الأخيرة.

- إذن كنت تكتب؟

وهنا، على الطرف البعيد من أسلاك طولها عشرات الكيلومترات، شعرت أنه يريد السيطرة على الموقف قبل أن أتحكَّم أنا به. قال: «نعم، كنت أكتب. وإذا سألتني ما الذي كنت أكتب، أجبت إنني كنت أكتب عنك، عن فتاة تدَّعي أن اسمها سراب. لها شعر أسود طويل تسدله على كتفيها كستارة الليل يسدلهاالله على النهار مرّة كل اثنتي عشرة ساعة، ولكن سراب تسدلها كل ثانية من ثواني الصبح والظهر والمساء... ما لون شعرك؟ هل هو أسود؟ وهل هو حقاً طويل، وسابل على كتفيك وظهرك، كأغصان الصفصاف المنهمرة على ضفاف النهر؟»

- رائع! تقول هذا كله وأنت لم ترني بعد.

ـ أقول هذا كله لأنني بالضبط لم أرك. من قال إنـك لست عجوزاً شمطاء تلبسين باروكة من باريس؟ أتضحكين؟

ـ طبعـاً أضحك. لأنني فعـلاً قد أكـون عجوزاً شمـطاء، وبدون باروكة أيضاً! تصوّر!

ـ والعمل؟

ـ الرؤية أكبر برهان.

ـ متى؟ متى؟ لا تقولي: هذه الليلة!

ـ هذه الليلة؟ يا ليت! ولكن يجب أن نكون عمليين.

ـ غداً صباحاً إذن؟

ـ غداً صباحاً. تأتي إلى المكتب كما وصفته لـك. والمصعد عنـدنا شغّال حتى الطابق الرابع.

ـ وماذا أفعل في مكتب تجاري لا أفهم شيئاً من معاملاته؟

ـ بسيطة. سنرتّب توزيعاً أفضل لكتبك.

ـ عال! غداً صباحاً إذن. في العاشرة؟

ـ في الثانية عشرة، لأنني حينئذ، على الأرجح، أكون وحدي.

ـ وهل أنت سكرتيرة، أم مديرة، أم ماذا؟

ـ وماذا يهمّك من ذلـك؟ المهم، هل أنـا عجوز شمـطاء، أم فتاة تسدل شعرها كالليل على كتفيها. أليس هذا ما قلته عنّي؟

ـ تقريباً.

ـ إذن تعال غداً، وتحقّق بنفسك.

ـ اتفقنا.

ـ وإذا لم تأتِ؟

ـ لن يكون ذلك إلّا لعائق خطير.

- ها! بدأت تخترع الأعذار منذ الآن! أنا لا أقرّ بأي عـائق، خطير أو غير خطير.
- صـار! لن يمنعني عـائق عن المجيء. غـداً في السـاعـة الثـانيـة عشرة. على أن تكوني وحدك في المكتب.
- ألا تريدني أن أحضر عدداً من الصديقـات والأصدقـاء ليشهدوا الحدث العظيم؟

ضحك نائل، وقال والقهقهة ما تزال تمـلأ حلقه: «أنت رهيبـة. ألا تعلمين أن أعظم الأحداث لا يشهدها إلاّ اثنان؟».
- الله! رائـع! إذن، ستجـدني وحـدي في انتـظارك، ولن يعـرف بلقائنا أحد.
- إلاّ الله.
- أو الشيطان!

وضحكت معـه، وتمازجت، عـلى الأقـل، ضحكـاتنـا عـلى الخط التلفوني. ربّما تتمازج مع أنفاسنا ذات يـوم؟ لا، لا. غير مهمّ. غـير مهمّ أبداً.

* * *

لم أدرك مبلغ الخطر في لعبتي أوّل الأمر. تصوّرتها كلعبة الشطرنـج التي يلعبها لاعب واحد مع نفسه، يحرّك بيادق غريمه المتخيّـل بأقصى ما يستطيع من براعة، ليردعه بحركة أبرع. وكنت أتذكّر العبـارة التي أوردها نائل عمران في «المرايا»، محـوّراً كلامـاً عن «أليس» الأصلية: «أتـريد أن تكـون الملك الأحمر أم الملك الأبيض؟» سـأكـون الاثنـين معـاً، هكـذا تقتضي اللعبـة، وأسجّـل النقـلات، لعلّني أكتشف

إمكانات شطرنجية لم يدركها لاعب بعد، وتدعمني في الوقت نفسه شيطنة «أليس» حين أرعبت مربّيتها العجوز بأن صرخت فجأة في أذنها: «ناني! تعالي نتظاهر بأنني ضبعة جائعة، وبأنك عظمة جرداء!»

غير أنني حين وجدتني في صباح اليوم التالي في المكتب أتوقّع أمراً لا أستطيع تبيّنه، ثمّ تبيّنت في الثانية عشرة أنني في الواقع صدقت أكذوبتي، لأنني رحت فعلاً، وقلبي يشتدّ خفقانه، أنتظر مجيء نائل عمران كما حدّدت في يومية أمس ـ فزعت. ارتعبت. كيف لو يدخل فعلاً إلى المكتب ويقول: «هل أنت السيِّدة سراب عفّان؟» فأقول له: «نعم، نحن على موعد، أليس كذلك؟» وفي داخلي أقول: أنا الضبعة الجائعة، وأنت العظمة الجرداء. وقد جئت في وقتك بالضبط!

تمنّيت لو أن أحداً يجيء للمراجعة أو الزيارة، تبديداً لفزعي. كان الأستاذ شريف قد خرج مبكّراً، بعد أن ترك إضبارة أوراقه على منضدتي، وقال إنه سيعود، إذا انتهى من تفقّد حقل الدواجن (الذي كان قد اشتراه مؤخّراً مع شريكين آخرين)، بعد الظهر بقليل. بعد الظهر! أمّا الظهر، فهو ساعة مجيء صاحب «المرايا» ـ الذي لن يجيء. وكان الكتاب مايزال برافقني في غدواتي وروحاتي (حين طلبته أمي لقراءته، كما وعدتها، زعمت أنني لم أفرغ منه بعد). وقرّرت أن أعود إلى الآلة الكاتبة، لأفرغ بها قلقي، فزعي، رعبي. وأخرجت «المرايا» من حقيبتي، وراجعت فيها صفحةً كنت قد ثنيتُ زاوية أعلاها، لأعلّق عليها في إحدى يومياتي. ولم تكن، فيما زعم المؤلِّف، من كتابته هو، لأنه يقول إنه نقلها نصاً عن كاتبة فرنسية أذهلت

القـرّاء بمذكـرات (حقيقيّة أو وهميّـة، غـير مهمّ)، نسبتهـا المؤلّفـة إلى الأمبراطور الروماني هدريان. وشعرت حين أعدت قراءتها، أنها تقول بعضاً مما تمنّيت لو أنني أنا التي قلته بعد أن اكتفيت من تجـاربي(!) مع البشر، ومنها سأنطلق إلى المزيد من الرأي والتعليق، قبل أن أعود إلى يوميّة أخرى مع هذا الذي لا يجيء:

«. . . مستقبل العالم ما عاد يقلقني. ما عدت أحاول أن أحسب، وأنا أتعذّب، أطويلاً سيدوم السلام الـروماني أم لا . إني أتـرك ذلك للآلهة. وأنا لا أزعم أنني ازددت إيماناً بحكمة الإنسـان: بل العكس هـو الصحيح. الحيـاة شنيعة، ونحن أدرى بـذلـك. ولكن بـالضبط لأنني لا أتـوقّع الكثـير من الوضـع البشري، من فـترات الهنـاء لـدى الإنسـان، من تقدّمـه الجـزئي، من جهـوده في البـدء مجـدّداً وإعـادة الاستمرار ـ فإنها كلها تبدو لي أشبه بخوارق فجائية تكـاد تعوّض عن هـذه الكتلة الفظيعـة من الشرور والهزائم، من الخـطأ والـلامبـالاة. النكبـة والدمـار قادمـان لا محالـة؛ والفـوضى ستنتصر، ولكن الـنظام أيضـاً سينتصر، من حـين لآخـر. والكلمات الثـلاث: الإنســانيـة، والحرية، والعدالة، ســوف تستعيد هنـا وهناك المعنى الـذي سعينا في إعـطائه لهـا. كُتُبُنا لن تفنى كلّهـا؛ وتماثيلنـا، إذا تحطّمت، لن تبقى ملقاةً كلّها بدون ترميم. ولسوف ترتفع قباب أخرى وواجهات بنـائية أخرى من حطام قبابنا وواجهاتنا. ولسوف تكون هناك قلّة من أناس تفكّـر وتعمل وتشعـر كما فعلنـا، وإني لأجازف في الاعتـماد على مثـل هؤلاء المستمـرّين، وقد تـوزّعـوا عـلى غـير مـا نـظام خـلال القـرون القـادمة، وعـلى مثـل هـذا الضرب من الخلود المتقـطّع عـلى غـير مـا خطّة . . .»

«ولسوف تكون هناك قلّة من أناس تفكّر وتعمل وتشعر، كما فعلنا، وإني لأجازف في الاعتماد على مثل هؤلاء المستمرّين ـ» أعدت تلاوة هذه العبارة بصوت عالٍ، موحية لنفسي أنْ ربّما كنت أنا، على طريقتي المتواضعة، واحدة من هذه القلّة من المستمرّين. وجابهت الآلة الكاتبة لأضرب أوّل حرف اندفعت إليه أصابعي، حين دخلت عليّ سيدة تقاطعني بقولها:

«العفو، طرقت بابك، ولكنك فيما يبدو كنت غارقة في القراءة. هل أنت سراب؟»

قلت: «نعم». وقبل أن أسيطر على نفسي سألتها: «كم الساعة عندك، رجاءً؟»

قالت: «الساعة الآن الثانية عشرة و. . . سبع دقائق. هل الأستاذ شريف موجود، من فضلك؟»

عندئذ عدت إلى كامل وعيي، وأغلقت الكتاب الذي بين يديّ، وتأمّلت في السيّدة المراجعة، الظاهرة الأناقة، وأجبت: «لا. الأستاذ شريف خرج. هل لديك موعد معه؟»

وبكل بساطة، قالت: «أنا زوجته.»

فاضطربت، ونهضت على قدميّ، وانطلقت نحوها والكتاب في يدي لأصافحها: «أهلاً وسهلاً. أنت السيّدة تالة إذن؟»

ـ أتعرفين اسمي؟

ـ طبعاً. فالأستاذ شريف كثيراً ما يذكرك. وأكثر من مرّة بلّغتك رسالة منه بالتلفون.

ـ صحيح.

ـ ولكن يبدو أنك نادراً ما تأتين إلى المكتب. مضى عليّ حوالي السنة منذ أن بدأت العمل، وهذه أوّل مرّة أراك فيها. تفضّلي استريحي.

جلست في أحد المقعدين الوثيرين في غرفتي، وهي تقول: «شريف يذكرك بين حين وآخر. ويعتمد عليك كثيراً.»

ـ أرجو ألّا أخيّب رأيه فيّ. فنجان قهوة؟ اسماعيل خرج كالعادة برفقة الأستاذ إلى حقل الدواجن. فاسمحي لي بدقيقتين لأغلي القهوة. و... هذا كتاب تسلٍّ به في هاتين الدقيقتين.

دفعت لها بكتاب «المرايا»، وأسرعت إلى المطبخ الصغير لأغلي فنجانين من القهوة.

عندما عدت بالقهوة، تناولت تالة فنجانها بيد، والكتاب ما يزال باليد الأخرى، قائلة: «سألتني عن الساعة عند دخولي. هل أنت على موعد مع أحد العملاء؟»

عدت إلى مقعدي خلف المنضدة، والقهوة بيدي. وقلت: «تقريباً... كان أحدهم قد تلفن أمس ليتأكّد من عنوان المكتب، وقال إنه سيراجعنا في الساعة الثانية عشرة اليوم. في الواقع، أنا التي حدّدت له الساعة. فلمّا رأيتك تدخلين... العفوا» انتبهت إلى أن الكتاب ما يزال في حضنها، وقمت لأستعيده منها. فقالت وهي تمدّ يدها بالكتاب إليّ: «أيعجبك نائل عمران؟ أعني في رواياته...»

ـ جدّاً. وهذه الرواية من أجمل ما كتب. هل قرأتها؟

ـ لم أقرأها بعد. لديّ نسخة مهداة من المؤلّف.

ـ أتعرفينه؟ أعني، شخصياً؟

صمتت لحظة، بعد أن عدت إلى مقعدي، ورشفتْ قهوتها، وقالت: «إنه صديق حميم. من أصدقاء العائلة.»

فهتفت: «معقول»؟

- ولِمَ لا؟

- أقصد، شيء رائع أن يكون هذا الكاتب الكبير صديقكم.

- لكنه شديد العزلة. نكاد لا نراه هذه الأيام، إلّا نادراً.

- مشغول بكتاباته؟

- لست أدري. ولكنه صديق عزيز.

- رائع، رائع.

لا شكّ أنها دهشت لردّة فعلي القوية. وعدت لأتأمّل وجهها: تقارب الأربعين، خفيفة التظليل الأزرق على الجفنين، ومحدّدة الكحل حول العينين، ممّا يجعلهما تبدوان كبيرتين ساطعتين. شعرها كستنائي مسرّح، لا شعرة فيه نابية عن مكانها؛ فجزمت بأنها خرجت قبل نصف ساعة من عند الحلّاق. وهي ترتدي بدلة «كوستوم» من الكتّان، مشمشيّة اللون، تلبس سترتها على قميص أخضر عميق العنق، وعلى صدرها يتدلّى من قلادة دقيقة قرآن ذهبي صغير، مع قلادة ذهبية دقيقة أخرى تحمل حرف T في دائرة. ولاحظت أن كلتا يديها تتحلّى بالخواتم، وأن أظافرها مصبوغة بالأحمر الورديّ. ولمّا وضعت ساقاً على ساق، كان واضحاً أن حذاءها إيطالي، ثمين. لقد كانت بحقّ «سيِّدة»، ليدي، لها حضورها، مليئة بالثقة بنفسها، وبكونها زوجة ربّ العمل. وإذا ضحكت، كما لحظت فيها بعد، افترّت شفتاها الرقيقتان المحمرّتان بالروج عن أسنان شديدة البريق.

كانت ضحكتها جميلة بصورة تلفت النظرَ، عندما علّقَتْ: «يبدو أنك مأخوذة بالأستاذ نائل. هل التقيت به؟»

ـ أبداً. ولا أظنّني سألتقي به.

تمنّيت لو تكذّب ظنّي، ولكنها لم تفعل. وكرّرت: «إنه شديد العزلة. لم يكن كذلك حتى ما قبل بضع سنوات.»

وتشاطرتُ، قائلة: «بسبب حدثٍ جرى له؟ مأساة ما؟»

تجهّمت لحظة، وهزّت رأسها: «نعم. مأساة...» وصمتت. لم تشأ أن تستمرّ في الموضوع، وسألتني: «هل تتوقّعين أن يعود شريف قريباً؟»

ـ في غضون ساعة، إذا جاء. هكذا قال قبل خروجه. أتودّين أن تنتظريه في غرفته؟

ـ لا، لا. كنت مارّة من هنا، فقلت أزور المكتب.

قامت، فقمت لها، وأقبلتْ عليّ بلطف لتصافحني مودّعة: «أخيراً رأيتك! وأنا سعيدة بلقائك... تعرفين أن مشروع الدواجن، لي فيه حصّة لابأس بها. لعلّني أضطرّ إلى المجيء هنا بين حين وآخر، فنلتقي.»

«رائع، مدام تالة!» قلت ذلك وأنا أرافقها إلى الباب. وخرجت معها إلى الرواق، وأنا أنظر في عينيها الواسعتين، عسى أن أرى صورة نائل عمران فيهما. ولكنها كانت حذرة جدّاً، ولطيفة جدّاً، وما وعدتْ بشيء له علاقة بنائل. وسرت معها حتى باب المصعد القريب.

قلت، وأنا أضغط الزرّ، مشيرة إلى الأصص البيضاء ومتسلّقاتها التي في الرواق: «ما رأيك بهذه النباتات؟ أدوّخ اسماعيل كل يوم بضرورة سقيها، وتعريضها للشمس بين يوم ويوم.»

وأهدتني ضحكتها البرّاقة مرّة أخرى: «لولاك، لما رأى هذا الرواق غصناً أخضر.»

ـ شكراً. مع السلامة.

وابتلعها المصعد.

أمّا أنا فعدت بسرعة إلى طابعتي قبل أن تغادرني انفعالاتي الساخنة، ورحت أخبط على المفاتيح:

«مع كل احترامي للأمبراطور، فإن مستقبل العالم يقلقني، يقلقني جدّاً، أكثر مما يقلقني مستقبل حقل الدواجن. لحقل الدواجن من يقلق عليه ـ ربّ العمل، زوجته، شركاؤه. والربح فيه مضمون لهم جميعاً. أمّا العالم، فإذا لم نقلق نحن عليه، إذا لم أقلق أنا عليه، فمن يقلق؟ أمّا الربح فليس مضموناً لأحد. لا بأس. لكم أنتم حقلكم وأرباحه؛ ولي أنا العالم، مستقبله، وخسائره. سراب! بدأت تغارين من السيّدة تالة، من قوامها، من جمالها، من أناقتها، من كون نائل عمران أحد أصدقائها، من امتلاكها نصف مزرعة كبيرة بطولها وعرضها وآلاف الفراخ التي تفقّس فيها كل يوم كالدود... مستقبل العالم؟ تأمّلي فيه ما شئت. اقلقي عليه ما شئت. سينزلق من بين أصابعك انزلاق هذه الكلمات على الآلة الكاتبة.

«الحياة شنيعة، ونحن أدرى بذلك. ولكن بالضبط لأنني لا أتوقّع الكثير من الوضع البشري، من فترات الهناء لدى الإنسان...» فإن

كل بارقة من تجربة مثيرة هي معجزة صغيرة أخرى في سبيل التعويض «عن هـذه الكتلة الـفـظيعـة مـن الشرور والهـزائم، مـن الخـطأ واللامبالاة.» وزائرتي جاءتني ببارقة مثيرة: إنها تشعّ بشيء لا أستطيع وضع إصبعي عليه، له علاقة بهذا الكـاتب الذي يهـديها كتـابه، ولا تقرأه. ربّما لأنها لا تحتاج إلى قراءتـه، لأنها تعرف كيف يفكّـر مؤلّفه، وكيف يتكلّم. لِمَ لم تحـدّثني عن «مـأسـاة» نـائـل عمـران؟ فيم هـذا التمنّع؟ أنا غريبة، بالطبع، وهي لن تدخلني في النطاق الحميم الذي ترفض أن تتيحه لامرأة أخرى يجب أن تبقى غـريبة... هـل أنا التي أغـار، أم هي التي غـارت حـين استشفّت منّي حـرارة زائـدة في مـا قلت، عـلى قلّة ما قلت؟... وهـل لي أن أتوقّـع الكثير من الـوضع البشري، من فترات الهناء لدى الإنسان؟ أيّ فترات، وأيّ هناء؟»

* * *

ركّبت ورقة أخرى في الآلة الكاتبة، واستأنفت الطبع:

عطفاً على ما كتبت أمس. أصابني الهلع هذا الصباح من أن نائـل عمران سيأتي فعلاً إلى المكتب حسب الموعد الذي ضربته له. وقرّرت إرجاء هذا اللقاء الذي بات يشغلني أمره كأنّه قضيـة حياة أو مـوت ـ أراني هـذه الأيـام أبـالـغ في كـل شيء. فتلفنت لـه حـوالي السـاعـة التـاسعة. لم أجـده في مكانـه. تلفنت في الحاديـة عشرة مرّة أخـرى. أردت أن أقول له: لست أعـرف شكلك الحقيقيّ، رغم كل الصـور التي تنشرهـا لك الصحف والمجـلّات. ولسوف تكـون خيبتي قاتلة، أجل قاتلة، إن أنا وجدتـك في واقعك دميـماً، أو ثقيلاً، أو صقيعـاً، بحيث لا أريـد أن أراك أو أسمعك مـرّة أخـرى، فتفسـد عـليّ هـذه

«اللقاءات» الهاتفية التي يبدو، حتّى الآن، أنها ممتعة، وتكاد توحي إليّ بأن ثمّة هناءً ممكناً للإنسان ولو على فترات، حسبما أوردت أنت فيما نقلت عن مذكّرات هدريان. أرجوك، إذن، لا تجيء إليّ. أرجوك، ابقَ صوتاً على الهاتف، ولا تتجسّد. وعلى فكرة، أنت الذي تكثر من استعمال هذه الكلمة، تتجسّد، كأنك تحاول دائماً أن تحوّل الروح إلى لحم ودم، أو أن تنحت من الهواء تمثالاً من حجر...

كنت طوال الليل أهيّىء نفسي لأحدِّثه بكلام من هذا القبيل، ولكنني لم أستطع الاتصال به. وعلى كل لم أسدل شعري على كتفيّ، كما كنت نويت. فلعلّه لا يجيء.

وفي الساعة الثانية عشرة بالضبط، جاء.

لا! لم أكن أتوقَّع رجلاً بهذه «المهابة» وهذه «الرصانة»! يلبس بدلة صيفية فاقعة اللون، بقميص أزرق فاتح ورباط كحلي، والبياض ظاهر في فوديه. كدت أكرهه في الثواني الأولى من دخوله. وقرّرت على الفور أن أعقّد عليه الأمر.

بادرته، وقد نهضت إلى لقائه (مهابته تجبر الإنسان على القيام له، ما العمل؟) وقلت: «الأستاذ نائل عمران، أليس كذلك؟» ومددت له يدي.

أجاب مصافحاً بقبضة لا تخلو من قوّة شعرت أن يدي تلاشت فيها: «نعم، الآنسة سراب؟»

- آسفة جدّاً. أنا رندة الجوزي.

- ولكن الآنسة سراب، هل هي موجودة؟

ـ طبعاً، طبعاً.

ـ أأستطيع أن أراها؟

ـ آسفة، أستاذ. خرجت بواجب اضطراري. فأوصتني بالترحيب بك، ريثما تعود.

وفجأة تساءلت: هل يقدر من مكالماتنا التلفونيّة أن يحزر أن صوتي هو صوت سراب؟ قطعاً لا. فالأصوات على الهاتف تختلف عنها في الواقع ـ إذا غضضنا عن طريقة الكلام ـ إلى أن يتعوّد عليها المرء. أما الخاطر الآخر، فأقلقني أكثر: ماذا لو رفض أن يبقى «ريثما تعود» سراب؟ إنه أشدّ وسامة ممّا توقّعت، وأردت له أن يبقى.

وقد كاد يعود من حيث أتى، لولا أنني تداركت الأمر، حين أدّعى أنه مستعجل، وأنه أوقف سيّارته في مكان ممنوع سيؤدّي به إلى دفع غرامة إن هو لم يرجع إليها في الحال، فقلت: «دقائق، وتأتي سراب. أنا متأكّدة. تفضّل، واجلس. فنجان قهوة؟ دقيقة! وإذا اضطررت إلى دفع غرامة عن وقوف السيارة، سنجعل سراب تدفع نصفها...»

ـ بل كلّها، بالكامل، ولكن إذا جاءت في مدّة معقولة، غفرت لها. بيني وبينك، أدخلت سيارتي في المرآب.

ـ إذن، المشكلة حُلّت. والآن، القهوة. عندي هنا «تيرموس» فيه نسكافيه. ما رأيك؟

ـ موافق.

صببت له كأساً من النسكافيه، والبخار يتصاعد منها، وسألته بمشاكسة: «أخبرتني سراب أنك مؤلّف. هل تريد أن تهجر التأليف

وتدخل مضاربات السوق؟»

دُهش جداً، وقال: «أيّة مضاربات؟»

ـ العفوا سراب، كما تعلم، عضو في هذه المؤسسة التجارية. والذي فهمته منها أنك تريد المساهمة فيها.

ـ العياذ بالله! أنا في غنى عن مثل هذه التجارة.

ـ ولكن لعلّها أفْيَدُ من كتابة الكتب؟

ـ أنا لا تهمّني الفائدة التي ببالك، ويبدو أنني لم أصنع لها. أمّا متعة الكتابة ـ

ـ آه، أنتم الكتّاب! تبحثون عن المتعة قبل كل شيء!

ـ تعويضاً عن الخسائر التي لا مهرب منها، يا آنسة رندة. ثمّ أخبريني، هل أنت زميلة سراب؟ لا أرى في هذه الغرفة غير منضدة واحدة.

ـ هذه غرفتي أنا. أمّا سراب فلها غرفتها في الداخل. لك أن تقول إنني سكرتيرتها.

ـ يظهر أنها متقدّمة في العمر؟

هتفت: «لا، لا، أبداً!» ذُعرت، وما كنت لأوحي إليه بمثل تلك الفكرة المخيفة، فأضفت: «هي من عمري بالضبط. ست عشرون سنة. كنّا معاً في الدراسة في الكلية. لكنها أشطر مني ـ» وهنا خفضت صوتي، كأنني أُسرّ له بما لا يحسن بالشخص أن يكشف عنه لغريب: «و. . . أغنى. أغنى مني بكثير. ألم تسمع بأبيها، الحاج علي عفّان؟»

وبكلّ براءة قال المسكين: لا، فأنا لا علاقة لي بعالم التجارة والصناعة.»

ـ لعلّك تريد أن تتعرّف ببعض نواحي هذا العالم الذي يعيش به اقتصاد البلد، لتكتب عنه؟

فضحك وهو يضع عنه كأس النسكافيه على المائدة الجانبية: «بصراحة، أنا لا يهمّني عالمكم هذا في شيء. لا هو بحاجة إليّ، ولا أنا بحاجة إليه. ولا يهمّني أن أكتب عنه.»

زيادة في المشاكسة، سألته: «إذن، عن ماذا تكتب؟ عن السياسة؟ عن الحب؟ عن الجريمة؟ حدّثتني سراب عنك، ولكنها لم تعرني كتاباً من كتبك.»

ـ يبدو أنك لست من النوع الذي يقرأ الكتب. ففيمَ العناء؟

ـ ألا تريد أن تكتسب قارئاً جديداً؟

فقال جازماً: «ما عاد ذلك يهمّني.»

ـ لو كنت كاتبة مثلك لقتلت نفسي استقطاباً للمزيد من القراء.

ـ لو كنت كاتبةً مثلي لما احتجت إلى قتل نفسك استقطاباً لقارىء، ولكنك قد تحتاجين إلى قتل نفسك بحثاً عن موضوع يثيرك ـ يثيرك ذهناً، وخيالاً، وأكاد أقول جسداً.

ـ أصبت، أستاذ. الموضوع هو المهمّ. واليوم، هذا الصباح، بل قبل أقلّ من ساعة، حدث شيء في هذه الغرفة بالذات، لو كنت روائية، لكتبت عنه، مع شيء من توابل الخيال، ما قد توافق عليه حتى أنت.

لمحت أنه نظر إلى ساعته خلسةً، مستبطئاً ولا ريب رجوع سراب المزعوم، غير أنه ـ هكذا شعرت ـ لم يكن رافضاً فرصة المزيد من

مجالستي وحديثي. آه، هؤلاء الرجال! سراب، رندة، تالة، ما الفرق إذا كان في كل منهنَّ ما يثير الذهن، والخيال، والجسد؟ فسألني: «ما هذا الشيء الخطير الذي حدث؟»

مكرت معه، مستمتعةً بتكرار المكر معه (لا بدّ أن هذا النوع من العبث عرض من أعراض الحب؟): «لا أريد أن أؤخِّرك. يظهر أن سراب أخطأت في تقدير الوقت. فهي قد تتأخَّر أكثر مما حسبت.»

- لابأس، لابأس. أخبريني عن الشيء الخطير الذي خدث هنا هذا الصباح.

- السيدة تالة شريف الترك، تعرفها ولا شكّ؟ جاءت لزيارة زوجها هذا الصباح، ولم تجده. فجلسنا معاً نتحّدث. وجاء ذكرك. وتحدَّثْت عنك بحرارة. قالت إنك صديق حميم.

فاستضحك كأنَّ الأمر أقلّ من أن يثير فضوله. «صديق، حميم، وقديم. وهل شريف الترك أيضاً من أصحاب هذه المؤسسة؟ أين الموضوع المثير في ذلك؟»

- الثالوث الروائي: الزوج والزوجة والعشيق. وما عليّ إلاَّ أن أدخل فيه عنصراً رابعاً ليبدأ الموضوع بالتحرّك: سراب.

تظاهر بالبراءة، سائلاً: «سراب؟ كيف؟»

- العاشقة الجديدة.

استمرّ بتظاهره: «عاشقة من؟ عاشقة الزوج؟»

- لا، عاشقة العشيق. فتصبح اللعبة هكذا: الزوج يغيظ زوجته، حين يكتشف أنها تحبّ صديقه، فيكشف لها أنه يحب فتاة

شـابّة في نصف عمـرهـا. لا تهتمّ الـزوجـة بـالـطبـع، لأن لهـا عشيقهـا، وإذا بها تكتشف أن الفتـاة الشابّـة تعشق عشيقها هي . . . وخذ مشاكل! قد تبلغ حدّ القتل!

ـ خيالك نشيط، آنسة رندة، وبحريّة مفرطة.

ـ ولكن أين المـوهبة، أستـاذ نائـل؟ ثم إن هـذه المـواضيـع ينـدر وقوعها في مجتمعنا.

ـ ولكن النادر هو المثير. إنه أوّل الدخول في منطقة المحرّمات.

ـ لا، لا. أنا لا أفهم هذه الأمور وخفاياها.

ـ ولا أنا، والحمد لله . . . يؤسفني أن عليّ أن أذهب.

نهض، واقـترب من منضـدتي ليـودّعني. فنهضـت لأرافقـه إلى الباب: «هذه سراب! دوّختني بالحديث عنك، بتوقّعها زيارتك، وإذا هي تسمح لنفسها بـالانشغال في السـاعة الغلط! أرجـو أن أكون قـد عوّضت، ولو قليلاً، عن غيابها، أستاذ نائل؟»

ـ رنـدة! هـل تـريـدين أن تكـوني العنصر الخـامس في قصّتك؟ بدأ الموضوع يسرع بالتحرّك. لماذا لا تكتبين هذا كله؟

ـ أين الموهبة، كما قلت لك، أين الموهبة؟

حين مدّ يـده لمصافحتي، كـدت أقع بين ذراعيه. هـذا الـرجـل أعجبت بـه من كتبـه، وجـاء نـزولاً عنـد إلحـاحي، فلماذا تفلسفت ومكرت معه؟ ولكنني خشيت افتضاح المكر، ودست على رغبتي ـ إلى أن أجد طريقـة للخروج ممـا أوقعت فيه نفسي ـ وبقيت مكـرهة عـلى رزانتي، وأنا أقول عند الباب: «مـع السلامـة. سأعنّف سراب عـلى تأخّرها. ستخابرك لتعتذر، مـا من شكّ. وأرجـو أن تتكرّم بـزيارتنـا

مرّة ثانية، لعلّنا نيسّر لك المساهمة في حقل الدواجن الكبير الذي نحن الآن بصدد توسيعه؟»

* * *

بعد يومين أو ثلاثة عدت إلى ملفّي الأزرق، وقرأت الأوراق الأخيرة، وأنا أضحك، وأفكّر في التفاصيل الصغيرة التي قد أضيفها هنا وهناك لضبط اللعبة. كان واضحاً أنني ظلمت نائل، وظلمت نفسي معه، بغير ما ضرورة. فهو أصلاً تردّد كثيراً في الموافقة على المجيء إلى المكتب. فلمّا جاء حرمته من لذّة لقائه بالمرأة التي وهّمته بها، وأقحمت عليه غريبة لست أدري إن كان يهمّه أن يلتقي مثلها وبرزانتها. هل غضب لذلك وقرّر ألّا يستجيب لأيّ دعوة أخرى أعرضها عليه؟ هل أبدت له رندة من الاهتمام ما يكفي لجعله يستجيب لها، بأيّ شكل كان، إن هي اتصلت به؟ والأهمّ، هل وجد في رندة، في ذلك اللقاء القصير، ما يثيره، كما يقول، ذهناً، وخيالاً، وجسداً؟ عليّ أن أكتشف ما الذي فكّر فيه بعد مغادرة المكتب، وعليّ كذلك أن أتدارك الموقف لئلّا تتعثّر اللعبة وهي بعد في مطلعها.

حالما فرغت من أوراق المكتب، وخرج الأستاذ شريف والأستاذ عبد الرحمن إلى مكتبهما الآخر، جلست إلى طابعتي، إكمالاً لما سبق:

أمهلته حوالي ساعة من الزمن، يكون فيها على الأرجح قد ذهب إلى بيته للغداء، ثم صلّبت أعصابي، وتنحنحت، وتلفنت إليه. ولكي أؤكّد لنفسي، وله، أنني الآن سراب، لا رندة، أرخيت شعري على كتفيّ وظهري، وقلت حالما رفع السمّاعة: «أستاذ نائل،

أنا سراب عفّان، وصلت في هذه اللحظة. وكلّي عتب عليك.»

كان البرود ظاهراً في صوته: «أنت تعتبين؟ ماذا أقول أنا إذن؟»

ـ لماذا لم تنتظرني؟ ألم تستطع رندة إشغالك ساعةً أخرى لتبقى؟

ـ أنا جئت لرؤيتك، لا لرؤية سكرتيرتك.

ـ لا بأس. هذه واحدة احسبها عليّ. ومهما يكن، فقد اكتسبت معجبة جديدة.

ـ معجبة لا تقرأ؟

ـ ولكنها خصبة الخيال بشكل مذهل.

ـ هكذا تبدو. وقد ورّطتنا جميعاً في حبكة خماسيّة ستحدّثك عنها. ولكنني في المحصلة الأخيرة، أنا المغبون.

ـ أنت مغبون؟ أنا المغبونة!

ـ أتعرفين قصّة ذلك الرجل الذي قضى عمره في التقوى والورع، يصوم ويصلّي، لا يرتكب معصيةً ولا يقترف إثماً؟

ـ نعم؟

ـ لم يشرب خمراً، ولم يدخّن سيكارة، ولم يمسّ امرأة.

ـ إرضاءً لربّه؟

ـ لكي يدخل الجنّة. عندها، في الجنّة، يرتع ويمرح، ويعوّض عن كل ما تركه طائعاً في الدنيا.

ـ وهل دخل الجنّة؟

ـ عندما حضره الموت، أصابه فجأةً هلع جديد. وقال لأهله وصحبه الجالسين حول فراشه: «يا جماعة، أنا لا أخشى الموت. ولكن الذي أخشاه هو ما بعد الموت.» فقال له أحدهم: «يا رجل،

كنت زاهداً في طيّبات الدنيا، فحقّ لك أن تستمتع بطيِّبات الآخرة.»
ـ وبعد ذلك؟
ـ قال: «ولكن ما أخشاه الآن، يا جماعة، هو أن أكتشف أن الموت هو النهاية، وأن لا جنّة هناك ولا نار... ولسوف أكون حينئذٍ مغبوناً جدّاً. أي والله، سأكون أكبر مغبون، يا جماعة أكبر مغبون...» وراح يقرع صدره، نادماً، بكل ما تبقّى لديه من قوّة، إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة.
ـ ها ها! جئت تتوقّع جنّةً فلم تجد جنّةً في انتظارك؟
ـ بالضبط. أترين كيف غُبنت؟ وتريدين فوق هذا أن تعتبي عليّ!
ـ إذن أغفر لك، ولن أعتب. ولكن لي رجاء.
ـ وهو؟
ـ أن تأتي غداً، في الموعد نفسه.
ـ لا، سراب. قولي غيرها.
ـ أنا جادّة.
ـ وأنا جادّ.
ـ أأطلب من رندة أن تلحّ عليك؟... بالمناسبة، كيف وجدتها؟
ـ لطيفة.
ـ لطيفة، وبس؟
ـ اسمعي، سراب، اتركي رندة خارج الموضوع.
ـ أتعرف ما الذي صرّحت به قبل لحظات؟ قالت ـ وها هي واقفة بقربي تسمعني ـ إنك لو طلبت إليها أن تتزوّجها، لتزوّجتك غداً، رغم أنك في عمر والدها!

ـ هذا ما يسمّونه بالانكليزية «إطراء باليد اليسرى». وهي تريد جرّ رجلك، بدون شك. ثمّ ما لي وللزواج؟

ـ ستأتي غداً، إذن؟

ـ غدائي جاهز على المائدة، وأنا جائع. فلنتخابر فيما بعد.

ـ سأتلفن هذه الليلة، عسى أن تكون أكثر ليناً في الليل منك في النهار. مع السلامة.

ـ لحظة، لحظة...

تغيّر صوته، وكأنه فاجأ نفسه بقرار لم يكن قد فكّر فيه، وأكمل: «غداً، في العاشرة صباحاً، سأكون في الدار وحدي. أريد منك أن تأتيني إلى الدار. وسأهيّىء لك فنجان قهوة بيدي. ما رأيك؟

ـ إلى الدار؟ وحدك؟ وحدي؟

ـ وحدك طبعاً.

ـ بما أنها أول زيارة، وستكون وحدك، هل تمانع في اصطحابي رندة معي؟

ـ لابأس. رندة فقط، لا أعضاء المكتب كلهم.

ـ في العاشرة؟ وأعمالي في المؤسسة؟

ـ فلتذهب إلى الجحيم.

ـ طيّب، أستاذ نائل. سنأتي معاً بسيارتي.

ـ فلأشرح لك كيف تجدين الدار.

ـ لا حاجة. أنا أعرف أين تسكن... ماذا تظنّني كنت أفعل في الأشهر الثلاثة الأخيرة؟

ـ سراب! إنك تخيفينني.

ـ لو ترى الملفّ الضخم الذي جمعته عنك!
ـ غداً إذن؟
ـ في العاشرة صباحاً.

* * *

كيف أذهب بصحبة رندة؟ لماذا بدرت منّي هذه الفكرة الشيطانيّة تلقائياً مرّة أخرى؟ عندما يراني غداً واقفة على عتبة داره، سيعرف فيّ رندة: من إذن ستكون سراب؟ بإمكاني أن أصطحب أختي شذى، وأطلب إليها أن تدّعى أنها أنا، وأدخلها في مؤامرتي الصغيرة. ولكن شذى لن تتحدّث معه كما أتحدّث، ولا هي تعرف شيئاً عنه، أو عن كتبه، فيما عدا ما أذكره أنا لها بين حين وحين. ثمّ إنني لا أريد كشف علاقتي به، حتى لشذى. قد أفعل ذلك فيما بعد. أمّا الآن؟

وهنا نبّهت نفسي مرّة أخرى إلى المنزلق الذي يبدو أنني جعلت أقع فيه كلّما جمح بي الخيال. ما عليّ إلاّ أن أعيد كتابة الصفحة الأخيرة، فأصحّح الوضع، وأقول إنني قادمة بمفردي. وعندما أراه، أحدّثه عن المقلب البريء الذي هيّأته له عند زيارته المكتب.

أعدت قراءة ما طبعت، وكانت الساعة قد تخطّت الثانية. فلملمت أوراقي كما هي، وخرجت من المكتب بسرعة إلى المصعد، ثمّ إلى سيارتي، وأسرعت في العودة إلى البيت.

بعد الغداء، في غرفة نومي، وأنا مرتدية بيجامتي، عجزت عن القيلولة، ودماغي في اشتغال مستمرّ. فأخرجت مجموعة جديدة من الأوراق، وأنا جالسة في الفراش، ورحت أكتب.

كانت الساعة العاشرة بالضبط حين أوقفت سيارتي بمحاذاة الرصيف عند منزله الذي كثيراً ما مررت به في الأسابيع المنصرمة مؤملة أن ألقاه وهو يخرج منه، أو جالساً على شرفته ـ عبثاً. وإذا به هناك، جالساً وحده، وبيده مجلّة. إنه في انتظاري.

لمحني أنزل من السيارة فخرج إلى الرصيف مسرعاً في بدلته «السفاري». رآني وأنا أغلق باب السيارة، وقد رفعت شعري كما كنت رفعته يوم أمس في المكتب، وبادرني باستغراب: «رندة؟ وحدك؟ أين سراب؟»

ارتسمت الخيبة على وجهه، وأنا أضاحكه في محاولة لتفسير الموقف، إذ رافقته في الدخول إلى باحة الدار: «سأشرح لك الأمر، أستاذ نائل. أتدري أن هذه التويوتا التي جئت فيها هي سيارة سراب؟»

ـ وما الفائدة؟ أنا أريد أن أرى سراب نفسها.

ـ ستراها هذا الصباح.

قال بشيء من العصبيّة ونحن ندخل الدار: «لا، رندة. في المسألة سرّ. إنها لا تريدني أن أراها. ليس هناك من تفسير آخر.»

اقتادني إلى غرفة صغيرة مبطّنة برفوف الكتب، وأضاف: «هل هي قبيحة إلى هذا الحدّ؟» وأشار إليّ بالجلوس في كرسي وثير، وجلس هو قريباً مني على طرفٍ من الكنبة المتعامدة مع الكرسي. وقلت لنفسي: خذي استحقاقك يا سراب! قبيحة، ها؟ وماذا بعد؟

افتعلت ضحكة وأنا أبحث في جزداني عن علبة السكاير

والمقـدحة، وانتبـه هو لـذلك فـأسرع باستخصـار السكايـر من عـلى منضدته المكدّسة بالكتب والأوراق. ولكنني كنت قد أخرجت سيكارة من علبتي وأنـا أقـول إنني لا أدخّن الصنف الـذي قـدّمه إليّ، لأنـه يشحط حنجرتي. ثم قلت، وهو يرفع المقدحة ليشعل لي: «هل قلتَ قبيحـة؟» وأخذت نَفَسـاً عميقاً من الـدخان نفثته عـلى مهـل، وأنـا أكمـل: «مسكينة سراب! كـانت في الكليّة تعـدّ من أجمـل طـالبـات الجامعة. ويشطّ الآن بك الخيال هـذا الشطط الغـريب لأنها تأخّـرت البارحة عن الموعد، ولأنها ستتأخّر اليوم أيضاً، بعض الشيء.»

ـ لماذا؟

ـ لكثرة الأعمال، والمسؤوليات المزعجة، قل ما تشاء.

ـ إذن أعطتك سيارتها؟

ـ لكي لا أتـأخّر عن المـوعد. وفهّمتني كيف أجـد الدار. وكـدت أتيه مرّتين.

ـ ما رقم الهاتف في مكتبكم؟ أريد أن أكلّمها شخصياً.

أمليت عليه الرقم وهو يدير مزولة الهاتف، وأنا أتساءل في سرّي: من سيجيبـه؟ الأستاذ شريـف، أم الأستـاذ عبد الـرحمن، أم الفرّاش اسماعيل؟

قال بالسمّاعة بنـبرة جافّـة: «الآنسة سراب عفّـان، من فضلك.» وردّاً على ما سمع من جواب، قال: «غير مهمّ، شكراً. سأتّصل فيما بعد.» وضع السّـماعة، ووجّـه كلامـه إليّ: «أترين؟ إنها خـرجت في شغل... وأراد الموظف أن يعـرف من أنا... وبهـذه المناسبـة، هل هي آنسة فعلاً؟»

ـ لك أن تقول ذلك. ولو أن الكثيرين يخاطبونها بالسيِّدة.

ـ هل خرجت معك؟

ـ نعم. أوصلتها إلى مكان كان لها فيه موعد قالت إنه مهمّ، وطلبت إليّ أن أسبقها إليك.

ـ أموعد آخر؟

ـ موعد عمل. ألن تقدّم لي فنجان قهوة؟ أنت وحدك في البيت؟ هل تدلّني على المطبخ فأغلي القهوة لي ولك؟

ونهضت وكلّي فضول لأرى ولو بعضاً من تفاصيل المنزل الذي يقيم فيه، والذي شغل خيالي أياماً كثيرة. ولم يرفض طلبي، مضيفي الكريم، الكسول! أخذني إلى المطبخ وقال: «هنا السكّر، وهذه علبة القهوة، وهنا الملاعق، وهنا الفناجين. آ، وهنا الغلّاية.» وعاد إلى المكتبة.

كنت أضحك في عبّي. أضحك لغضبه، لخيبته. ولكنني خُيِّبت أنا أيضاً: لِمَ لم ينتبه إليّ كامرأة، كشابّة، اقتحمت عليه خلوته، مهما كانت الأعذار؟ هل هو معصوم إلى هذا الحدّ عن الغواية، أم أنني أنا التي لا أشعّ غوايةً تغريه؟ أم أنه مخلص لسراب التي يحسب أنه لم يرها حتى الآن، ويخشى أن يبدي أيّ اهتمام برفيقتها، أو سكرتيرتها، رندة؟ هل أقول إنه اجتاز الامتحان الأول؟ ولكن، ليس بهذه السرعة... لنشرب القهوة أولاً، ثم نرى.

عندما دخلت عليه بالصينيّة، وتناول فنجانه، أخذت فنجاني وأنا أقول: «سمعت ما قالته لك سراب بالتلفون».

كان الآن أكثر هدوءاً، حين قال: «ماذا سمعت؟ قالت أشياء كثيرة.»

ـ ما له علاقة بي، من أنني سأتزوّجك لو طلبت أن تتزوّجني، رغم فارق السنّ؟

ـ ولكنك لم تسمعي ما قلت لها: إن كلامك إطراء باليد اليسرى. أي أنك أردت أن تؤكّدي الشقّ الأخير من كلامك.

ـ أبداً. إنما أردت أن أؤكّد إعجابي، أم أقول انجذابي؟

ـ رندة، أنت لا تعرفين شيئاً عنّي. لعلّك مأخوذة بكلام سراب. والأذن قبل العين. . .

ـ محتمل جدّاً. ولكنها في الواقع قليلاً ما تتحدّث عنك. ولو أنها، بعد خروجك بحوالي الساعة عادت وأرادت أن تعرف منّي شكلك، طولك، لونك، ماذا كنت ترتدي، كيف تتحدّث، هل أنت كثير الجدّ، أم كثير المزاح. . . وأجملت لها الوصف بالعبارة الوحيدة التي تفصح عن أعظم الإعجاب عند أية فتاة ـ وهي أن تتمنّاه زوجاً لها.

ـ كقضية مجازيّة، بالطبع.

ـ بالطبع. . . ها، ما رأيك بقهوتي؟

ـ ممتازة، رندة. هل تحسنين الطبخ أيضاً؟

ـ الطبخ؟ لا، آسفة. لا أستطيع أن أطبخ شيئاً. إذا اضطررت جدّاً، قد أتمكّن من أن أقلي بيضتين، لا أكثر. أترى؟ كمشروع زوجة، أنا لا أدّعي أنني مشروع ناجح.

وبلمسة أخرى من عفريتي الماجن، أضفت: «وأنا أصلاً امرأة مطلّقة، منذ ثلاث سنوات.»

وأزجيت إليه نظرة امرأة مظلومة في حظّها من الحياة، قائلة: «سنة واحدة لم يدم زواجي. سبعة أشهر بالتمام. كان خطأً شنيعاً أدركته

منـذ أول يوم. ولا بـأس من أن أقول لـك إنني تنازلت عن صـداقي المؤخّر لكي استرجع حرّيتي.»

ـ وهل تتصوّرين أنك حقّاً استرجعت حرّيتك؟

ـ بقـدر ما يمكن لـلإنسـان أن يملك من حـرّيـة في مجتمـع آسن ، مقيّد، لا يبرع إلاّ في اختراع المزيد من القيود.

ـ الحرية في النهاية قضيـة داخلية، يـا رندة. حـرّيتك في داخلك، فلا تلومي المجتمع.

ـ سراب تقول أحياناً إنها تريد أن تطلق حرّيتها الـداخلية. لا بـدّ أنها تأخذ أقـوالاً كهذه عنـك. أمّا أنـا فمن سوء حـظّي أنني ما زلت أبحث عن هذه الحرية التي تتحدّثـون عنها، ولا أجـدها. ولكن قـل لي، أستـاذ نائـل، ما هي المـأساة التي في حيـاتك، والتي كـما فهمت تجعلك كثير العزلة؟

ـ مأساة؟ من أين جاءتك هذه الفكرة؟

ـ أمس حدّثتنا السيدة تالة الترك عن أن في حياتك مأساة

ـ تالة؟

ـ نعم.

ـ في حيـاة كل إنسـان أمور لا يتحـدّث عنها، ولكنهـا تؤثّر في نمط معيشتـه، في موافقـه، في آرائه. هـل تعرفـين إنسانـاً في هـذا العصر خلت حياته من مأساة ما؟ وتالة نفسها، لا بدّ أن في حياتها مأسـاة لا تـريد التحـدّث عنهـا. والأسهـل دائـماً أن يتحـدّث المرء عن مـآسي الآخرين.

ـ لا، لا. مآسي الآخرين قلّما تشغلنا بذلك القدر. والأسهل دائماً أن يتحدّث الإنسان عن مآسيه هو. وأنت روائيّ، وأعلم بذلك.

- بالضبط. أنا روائيّ، وتشغلني مآسي الآخرين، محاولاً تخطّي مأساتي الخاصّة. ما الذي يهمّك أنت من مأساتي الخاصّة، أصلاً؟

أحسست عندئذ أنني أعطيت رندة دوراً أكبر مما ينبغي. عليّ أنا، سراب عفّان، العاشقة الكبيرة التي تريد تدوين يومياتها بصدق وصراحة، أن أتصدّى لهذا الموضوع، وأنقذ رندة، ذاتي الأخرى، من مثل هذا التورّط في أمر لم أشأ أن تتعرّض هي له. ولكن من منّا، نحن الاثنتين، هي الجادّة الموضوعية، ومن هي المازحة العابثة مع رجل تعرف أن في حياته مأساة وتريد الآن أن تنسيه إيّاها؟ غير مهمّ! عليّ أن أدخل على الخطّ هنا، بشكل ما، حتى، لو كان فجائياً.

قلت، خروجاً على الحديث: «أستاذ نائل، هل لي أن أطلب كأساً من الماء؟»

قال: «طبعاً، طبعاً.» ونهض مسرعاً باتجاه المطبخ.

وانطلقت أنا على الفور من المكتبة باتجاه باب مفتوح عبر ردهة المدخل، ووجدتني في غرفة جلوس فسيحة، أنيقة الأثاث، كثيرة رفوف الكتب أيضاً، ولكنها متميّزة بلوحات كبيرة، وتماثيل من خشب وبرونز، ستائرها مسدلة، كأنها تصدّ ضوء النهار في الصباح المشرق عن قصد، ولكنها منارة في ركنين منها بضوئين موجّهين نحو السقف. آه، هكذا تصوّرته يعيش، وفي مثل هذا الجوّ يستقبل أصدقاءه وزوّاره ومريديه! ولكن عليّ ألاّ أضيّع وقتاً في الدهشة والتأمّل؛ نزعت سترتي النيليّة القصيرة بسرعة، وألقيتها على أحد الكراسي، إبرازاً لقميصي البرتقالي الحاسر عن ذراعيّ، وفككت القرّاصة التي تمسك بشعري مرفوعاً عند مؤخّر رأسي، وأسدلت شعري على كتفيّ

وظهري، مسرّحة إيّاه بأصابعي على أفضل ما أستطيع من غير مشط. ثمّ التقطت سترتي ورحت أطيل النظر في لوحة زرقاء فسيحة لم أفهم منها شيئاً في اضطرابي ذلك. وسمعته، وقد عاد إلى المكتبة ينادي: «رندة، آنسة رندة! رندة!» وكان ثمّة صمت قصير. لعلّه ظنّ أنني ذهبت إلى الحمّام، فتريّث، وأنا أتنقّل بين اللوحات والكتب، في انتظار أن يبحث عنّي حتّى يجدني.

بعد ذلك سمعته يتحرّك في أرجاء البيت، ثمّ خيّل إليّ أنه سار نحو مدخل الدار، وفتح الباب، وخرج إلى الشرفة. وتصوّرت أنه تأكّد من وجود سيارتي في مكانها، فعاد، وأغلق الباب بخبطة قوية، وصاح مرّة أخرى: «رندة!» وأنا ما زلت أتأمّل محتويات صالونه الجميل، وعدت إلى التمعّن في اللوحة الزرقاء، وظهري إلى الباب. وسمعته يخطو أخيراً نحو مدخل الصالون، ويهتف من ورائي: «الله! ما هذه الروعة السوداء!»

لم أجب، وتقصّدت عندها عدم الحركة، رافعة رأسي نحو أعلى اللوحة، وأحسست به يخطو على مهل، كأنما على رؤوس أصابعه، إلى أن بلغني، وأمسك بي من الخلف، شادّاً على ذراعيّ العاريتين، وتمتم وشفتاه على شعري وعنقي: «من أنت يا امرأة؟»

وما كان منّي إلاّ أن أسقطت رأسي إلى الخلف بخصلاتي المهدّلة، على صدره، ويداه ما زالتا تمسكان بذراعيّ المرتخيتين، وقد سقطت سترتي أرضاً، وأدرت وجهي ما استطعت نحو شفتيه، وهمست: «أنا سراب عفّان.»

وقبل أن يفوه بكلمة دهشة أو عدم تصديق، خلّصت نفسي من

قبضتيه لكي أقف أمامه وجهاً لوجه، ناظرة في عينيه، وأنا أكاد ألتصق بصدره. وبصمتٍ أخذ وجهي بين راحتيه، وقبّلني على فمي قبلة طويلة...

* * *

ألقيت بأوراقي عنّي على الأرض، وقد انتابني إعياء شديد. عدّلت من وضع وسادتي وارتميت على الفراش كالقتيلة، منبطحةً على وجهي، كأنني سقطت من سطح عمارة بأربعين طابقاً، وغرقت في النوم حالاً ـ على صدره؟ لست أدري. فقد كان نوماً عميقاً، أسود، من غير حلم. ولم أفق إلاّ على صوت شذى وهي تقول: «ما هذا النوم؟ غابت الشمس! بابا خابر من العيادة ليقول إذا كنا نريد أن نتعشّى معه هذه الليلة في النادي، فلنرتّب أمرنا أنا وأنت وماما، لنكون هناك قبل التاسعة والنصف.»

لم أستوضح أين أنا أول الأمر، وشذى تتكلّم، ثمّ أدركت أنني في غرفة نومي، وقد أظلمت. فقلت: «نتعشّى في النادي؟ لا، شذى. ليس بي حماس للنادي هذه الليلة.»

ـ إذن آخذ سيارتك لأذهب مع ماما؟

ـ نعم، خذيها.

ـ أوراقك سقطت على الأرض.

ـ لا بأس. سأقوم الآن، وألتقطها. اتركيها.

غادرتني شذى لشأنها، واستدرت نحو الوسادة، وأطبقت أجفاني، مستسلمةً لخدرٍ نصفه نوم ونصفه يقظة، محاولة أن أتذكّر أين كنت قبل لحظات. قبل لحظات؟ قبل النوم، قبل ساعتين أو أكثر. أصوات

غريبة كانت تتعالى وتنخفض في رأسي. لم أكن في المكتب. لم أكن في السيارة. لم أكن في البيت. هناك جنيّ في داخلي يعبث بي، وأنا أدرى به. حتى رندة الجوزي من اختراعه. وإذا لم أنتبه، فإنها هي أيضاً ستنحاز إلى جانبه في العبث بي.

تذكّرت الآن! كنت في بيت نائل، في صالونه الأزرق، وقد أعلنت له أخيراً أنني سراب عفّان. كنت أمثّل مونودراما أتلبّس فيها على الأقل ثلاثة أدوار، وأتكلّم بثلاثة أصوات، وأقع على صدر رجل لا أعرف من وجوده الحقيقي إلّا اسمه. كلّما اقتربت منه، أو اقترب مني، تدخّلت رندة بيننا. إذا لم تكن من اختراع هذا الجنّيّ الماكر المزروع في دماغي، فهي إذن من اختراعي في ساعة خوف وتحسّب، راضيةً بها ذاتاً أخرى. لا بأس. هي العاقلة، المتّزنة، المنطقيّة، وسراب هي الرافضة للعقل والاتّزان والمنطق. بعض الناس يطلقون فيّ رندة، وبعضهم يطلق سراب. ويبدو أن نائل عمران يطلق الاثنتين معاً ـ للدخول في المرايا. مع نائل أجدني رندة وسراب بتعاقب سريع، وتداخل سريع، وتباعد سريع.

سأعود إلى أوراقي.

مددت يدي إلى الأرض، من على فراشي، وتحسّست بأطراف أصابعي مَلَس الأوراق المبعثرة وبرودتها. لماذا لا أكتب عن وقائعي هذه الأيام؟ ولكن أية وقائع؟ ما الذي يمكن أن أكتب، مما لم أكتبه حتى الآن، عن يوم بعد يوم بعد يوم من الوتيرة نفسها، من السأم نفسه، من الغثيان نفسه؟ ولكن الذاكرة والخيال: ما العالم كله إن هو قورن بهما، إذا اجتمعا؟ فلأجعل الخيال (أ)، ولأجعل الذاكرة(ب)،

كـما سبق أن قـرّرت، وأكتب عن حيـاتي كـما هي، وكـما يمكن أن تكون. عند ذاك سيعني هـذا أنني (أ+ ب)، أم أنني (أ×ب)؟ أفضّل الأخـيرة، لأنها أضعـاف الأولى. إذن سـأجعـل معـادلتي: س (ليس المجهول فقط، بل سراب نفسها) =أ×ب، أو:

س = أ ب

خلاصة ما كتبه الإنسان، وما سوف يكتبه.

ولكنني أشعـر الآن، فيما كتبتـه حتى الآن من حكايتي مـع نائـل، أنني الأشـطر، وربّما الأذكى، بـين البطلين. أنـا التي أتحرّك وأتكلّم، وما نائل إلّا «رجل القشّ» الذي يمكّنني من الحركـة والكلام. ولِمَ لا؟ إنها قصّتي أنـا. لو كـان كاتبهـا نائـل، لكان هـو الأشـطر والأذكى، ولكنت أنـا «امـرأة القشّ» . . . فـلأنعم بسـطوتي، مـا دام القلم في يدي.

ولذا، لن يصعب عليّ أن أُفهمـه السرّ في تحوّل رنـدة إلى سراب، في تحـوّل السكرتـيرة إلى المديـرة، في تحـوّل الصـديقـة إلى العشيقـة. وسندخل معـاً من خلال إحـدى المرايـا إلى مستحيلات لم تخـطر حتى عـلى بالـه، وهـو صـاحب الخيـالات المستحيلة. سنتعشّى عـلى ضـوء الشمـوع، ونذهب معـاً إلى حفلات بـاذخة تضمّ أجمـل نساء المـدينة وأشهـر رجالهـا، وسوف يتهـامس الجميع: من تكـون هذه المشـوقة الطول، المسترسلة الغدائر، الساحرة الضحكة، التي تتشبّث بذراعه؟ ما الذي جرى لزوجتـه؟ هل طلّقهـا؟ هل هـذه زوجته الجـديدة، أم عشيقته؟ هل هي روائية أخرى يروّج لها رواياتها؟ وسنـرحل معـاً إلى باريس، ولندن، ونحضر المسرحيّات وعروض البـاليه كـل ليلة، وفي

عودتنا نعرّج على روما، ونبحث عن آثار أغسطس وهدريان، ولا ننزل إلاّ في فنادق النجوم الخمس ـ ويا بورجوازيين، طقّوا في غيظكم! وفي القاهرة سيتجمّع حولنا الأدباء الشباب المتمرّدون، وتدسّ السلطات بينهم من يرقب حركاتنا ونزواتنا، لأننا فيما يقال عنا نشجّع على الشغب ولا نكتفي برحلات السوّاح العاديين إلى أسوان والأقصر. وفي بغداد يطلبون إليّ أن أفتح منتدى الأدباء بقراءة إحدى قصصي القصيرة، ويصرّون بعد ذلك على سماع إحدى قصائدي أيضاً. ويلقي نائل محاضرة تسجّلها عدسة التلفزيون عن تجربته الطويلة في ما كتب وما لم يكتب. وأتحدّث في عمّان عن القدس كما بتّ أراها وأحياها من خلال ما كانت تتحدّث عنه دوماً جدّتي خديجة، مضافاً إلى دواوين وروايات أدبائها، ونرى تلال القدس البعيدة عبر الغمام من على شرفات العمارات البيضاء العالية.
وستكون لنا أسفار تتلاحق: من مدن الخليج البيضاء، المترعة بالشمس والبحر والبادية، إلى مدن المحيط البيضاء، المترعة بالشمس والبحر والصخر. وإذا كان لا بدّ من صنعاء وإن طال السفر، فلا بدّ لنا أيضاً من القيروان ووهران والرباط وطنجة وتطوان ـ آه ما أكثر مدننا، وما أجمل أسماءها، وما أروع إيحاءاتها، لو أننا فقط أحرار في الترحال فيما بينها، لو أننا فقط غير مكبّلين في أحيائنا، لا نتحرّك إلاّ جيئةً وذهاباً كلٌّ في زقاقه كالجرذان... نائل عمران! أين أنت؟ لماذا تجعلني أهذي؟ لماذا تطلق فنتزاتي ورغباتي بهذه اللذّة، وهذه القسوة؟ سأخونك والله إن أنت عجزت يوماً عن إثارة فنتزاتي ورغباتي بهذه اللذّة. ولكن بدون قسوة، أرجوك، بدون قسوة. وإلاّ تركت لك رندة الجوزي، بكل عقلها ومنطقها، وهربت بسراب عبر الوديان

السحيقة، وفوق الجبال الوعـرة، إلى حيث القمم المغمورة بـالضباب والسحب، المطلّة على مـدن تتوهّـج بين الغـابـات والصخـور وعـلى ضفاف الأنهر الصاخبة. فأنا ما زلت أنا المطالبة بالحرية، البـاحثة عن الانعتاق والخلاص على طريقتي، على طريقتـك. وأرفض البقاء فـأرةً أخـرى بين فئـران الزقـاق الأبديّ نفسـه، المتخم بقمامـة الدهـور. . . نائل، اليوم الكلمة، وغداً النار. . .

- ٢ -

نائل عمران

يوم بدأت بكتابة «الدخول في المرايا»، كنت في حالة يائسة من كآبة أخذت بخناقي أشهراً متتالية بعد موت سهام، وأنا أرقب نفسي وهي تتخبّط في الطين، أريد إنقاذها ولا أستطيع.

وجاءت فجأة الكلمات الأولى من «الدخول في المرايا»، فشعرت كأنني كنت طَوال تلك الأشهر في غرفة مظلمة محكمة الإغلاق، وإذا بشق ينفتح في أعلى الجدار، ويتسرّب منه شعاع سأتشبّث به، فيرفعني بشكل ما إلى حيث يتسع الشقّ ويغدو كوّة أستطيع النفاذ منها إلى الفضاء من جديد.

وكلّما استمررت بالكتابة استمرّ الشقّ بالاتّساع، ودفق عليّ مزيد من الشعاع. حتى تنفّسي صار أكثر انتظاماً، وعيناي أحدّ بصراً لما حولي. لعلّني غدوت أيضاً أشدّ نسياناً، أو أن ذاكرتي باتت تنتقي ما تقذفه إلى وعيي على نحو يقلّل الحزن، ويزيد اللامبالاة، وربّما يزيد التحرّك في اتجاه لذةٍ لم أستطع تحديدها، بل ما همّني أن أحدّدها.

وكان الدخول في المرايا «فعلاً» حركياً، حيث الأشكال تتناظر، وتتكسّر، وتتماوج، تتلاشى وتتجسّد، وفق إيقاعٍ كانت كلماتي

تـوجده، أكـاد أزعم دون إرادة منّي. واتّسع الشقّ في أعـلى الحـائط، وتهدّمت الأجزاء المجاورة له يوماً بعـد آخر، ولم يبق لي إلاّ أن أخـطو فوق الحجارة والردم، وأنطلق. وكنت قـد كتبت من الروايـة عندئـذ معـظمها، ولم يبقَ عـليَّ إلاّ أن أنهيهـا بصـورة مـا، جـاعـلاً النهـايـة «مفتوحة» بالطبع، تأكيداً على انتصاري على تلك الكـآبة التي كـادت تدمّرني وتقطّع علاقاتي بالناس والأشياء، كما فعلت في فترة عصيبة من حياتي في مطلع الشباب.

وكنت أعلم أن «الـدخول في المـرايا»، كـروايـة، أقـرب إلى حلم يقظة فرضته عليّ قوّة كامنة في أغوار وعيي. واتضح لي أنه كـان لا بدّ لي من أن أنسى وفاة زوجتي، أو أن أرضى بوفـاتها قضـاءً لا مردّ لـه. فكـأنّني طوال تلك الأشهـر السوداء الأولى كنت قـد دُفنت معهـا، أو كأنّني رحت أرفض الحياة لأكون جديراً بحبّها حتى المـوت. فإذا كـان البعض مسلوب الإرادة في حـالة كهـذه، فإنني كنت، عـلى العكس، أريـد بإصرار أن أكـون في حالـة أشبه بـالمـوت، مصمّـماً عـلى رفض الحياة، ما دامت سهام قد حرمت الحق في أن تحظى من الحيـاة بأكـثر من ست وثلاثين سنة، قضت الاثنتين الأخيرتين منها في مجالدة يائسة مع المرض. ورأيتها وهي تفقد وهجها شيئاً فشيئـاً، ويتخافت نـورها ووعيها، حتى الانطفاء والظلمة الأخيرة.

وغسّان، بسنواته السبع عندئذ، لم يفقه ما الذي حصل بـالضبط، رغم بكائه الكثـير في الأيام الأولى. وكنت محتـاراً بين أن أجعله ينسى فجيعته بأمّه، وبين التـأكيد عـلى ما فقـده من حبّ وحنان بفقـدانها. وحمـدت الله على أنني كنت قـد أقنعت سهام بـالاكتفاء بغسّـان طفلاً

وحيداً، وإذا هو، بوحدانيته، يصبح ملاذي ومنقذي في ساعات الحزن، وهمّي وقلقي في ساعات التأمّل في مصيره بدون أمّ تعنى به تلك العناية التي ما كنت أستطيع التعويض عنها رغم كل ما حاولت. ولعلّ أختي سالمة، الأصغر مني، وجدت في احتضانه منذ لحظة غياب سهام تعويضاً عن بقائها عانساً تقارب يومئذ الأربعين، فتولّت أمر غسّان بحرارة وعطف وتفانٍ جعلت لحياتها ذلك المعنى الإضافي الذي جدّد لها الرونق في أيامٍ كانت ستكون بدون غسّان رتيبة كامدة. ورأيت سالمة تنتعش بتربية ولدي وكأنه ولدها، وتأخذه في عطله المدرسية ليقيم مع أخي وائل وأولاده الكُثر في دارنا القديمة، مع بقائها في عملها مديرة في وزارة التربية.

وقد أصرّت أختي، في السنتين الأوليين بشكل خاص، على تحريري من مسؤولية العناية اليومية بشؤون غسّان، ولو أنها لم تفلح في إقناعي بترك البيت الذي كنا أنا وسهام قد فرغنا من بنائه قبل وفاتها بأربع سنوات. ولم يكن من السهل عليّ أن أهجر الغرف التي خطّطناها أنا وسهام معاً، ثم أثّثناها على مهل وعلى طريقتنا ـ على قلّة قطع الأثاث التي اخترناها، وفق فلسفتنا الجمالية في عدم ملء فضاء الحجرات بتراكم من الكراسي والكنبات والموائد والخزائن التي من شأن معظم الناس أن يزحموا بيوتهم بها. وفي بقائي وحدي في تلك الغرف، كنت أعايش سهام وكأنها لم تغب عني يوماً، ولن تغيب.

حتى ثيابها أبقيتها في الدولاب الكبير في غرفة نومنا مع ثيابي، وأبقيت زجاجات عطرها وأدوات تجميلها على طاولة التواليت أشهراً عديدة، رغم اعتراض سالمة واحتجاجها على هذه المغالاة في الحزن

والتشبّث بعزيزٍ مضى، قائلة إن في ذلك تمرّداً على مشيئة الله الذي ليس لنا أن نفهم حكمته في ما يريده من مصير. غير أنني آثرت أن أبقى مع سهام في وحدتي، ولم أكتفِ بجعل «البورتريه» الزيتية الكبيرة التي كان رسمها لزوجتي صديقي الفنّان ضياء اسماعيل، تحتلّ الصدر من غرفة الجلوس، بل طلبت إلى النحّات نزار حيدر أن يصنع لي تمثالاً لرأسها، اعتماداً على صور فوتوغرافية وضعتها تحت تصرّفه، إضافةً إلى معرفته الشخصية لها أيام زواجنا الأولى. فنحت لها في الرخام الأبيض رأساً بديعاً، أكبر من الحجم الطبيعي بقليل، وعلى شفتيها ما يشبه الابتسامة، ولكنها ابتسامة تذوب في حزن غامض. وجعلت التمثال على قاعدة عمودية من رخام أسود مقابل فراشي بالضبط؛ فكان وجهها آخر ما أرى قبل أن أطفىء النور عند نومي، وأول ما أرى عندما أستيقظ في الصباح، وقد سقط عليه شيء من النور المتسلّل من بين الستائر المسدلة، فأكاد أحسّ أن سهام تتحرّك، وتقبل عليّ، وتحثّني على النهوض إن أنا تأخّرت في الفراش. وأشعر دوماً أن الحوار بيننا مستمرّ: يتجدّد، ويعلو، ويهبط، بأصوات أسمعها في داخل رأسي، ويخيّل إليّ أن الرخام يتآمر معي على قوّة مجهولة حاقدة تريد تحطيمي، فيمدّني بالمزيد من قدرة المقاومة. بيد أنني كنت أشعر أيضاً، في بعض الأحايين، مع تلك الابتسامة المخضّلة بالحزن، أن الرخام ربّما كان يتآمر عليّ، وأنا لا أفهم. وكثيراً ما قبضت على نفسي متلبِّساً باستسلام مجنون لصقيع الخدّين الرخاميّين وهما بين كفيّ، وشفتاي اللاهبتان تحاولان إشاعة شيء من الحرارة في الشفتين الباردتين القاسيتين.

ومن هنا كان دخولي في المرايا أمراً محتّماً، بعد مرور أكثر من سنتين

على صدور روايتي الأخيرة. أي أن تجربتي اليوميّة مع حجر أريد نفخ الحياة فيه، تعلّلاً، حزناً، فرحاً (مهما تكن العواطف التي لم تهجع في صدري، والأخيلة التي لم تستكن في رأسي)، كانت تدفعني دفعاً نحو البعيد، نحو نكران الواقع اليوميّ الذي بات يثقل صدري ويعوق تنفّسي. هل كان ذلك عشقاً للموت، ولجوءاً إلى حلم يخرج بي من الحياة التي أعرفها إلى حياةٍ يصنعها هواي على غير ما يتوقّع إنسان؟ هل كانت تلك هزيمة إزاء الحدث الآني، إزاء الناس الذين أحتكّ بهم في كل ساعة، كأنني أحمل قوقعة أنسحب إليها من ضوضاء البشر، ومطالبهم، وقسوتهم، وفي قوقعتي أعيد تركيب بقائي من خلال الرؤى، ثمّ من خلال الكلمات التي تأسر تلك الرؤى على طريقتي؟

هذا كلّه خطر ببالي وأنا أقتحم «المرايا». ولكن مع مرور الأيام، تبيّن لي أنني كنت وأنا أكتب إنما أسير بالضبط على عكس الخطّ الذي تصوّرته في البداية. فأنا، في كلّ مرّة أدخل فيها طوايا التناظرات والتكسّرات، والنقائض والأصداء، واستجلاب البعيد والمستحيل، إنما أخرج من القوقعة البائسة التي أُرغمت على السقوط فيها، لكي ألتقي البشر وجهاً لوجه، ألتقي ضوضاءهم، مطالبهم، قسوتهم، وهل أقول أيضاً، بين حين وحين، روعتهم؟ وأعمالي القانونية، التي ما كان لي أن أتهاون فيها مهما كانت شواغلي النفسيّة، كانت تذكّرني بذلك كل يوم. ولقد تأكّد لي يومئذٍ أنني، مهما فعلت وفكّرت وكتبت، شئت أم أبيت، جزء من تاريخ ملعون: ملعون بهزائمه ومآسيه، بقدر ما هو ملعون بانتصاراته وأفراحه، تتحقّق منجزاته قسراً عنه، وتتحقّق تدميراته بإرادته وبرعونة الحمقى. وبقدر ما

يبتهل الناس إلى الله قائلين: ربي يسّر ولا تعسّر، وجدت أن القـاعدة التي رسموها في أذهـانهم لمجتمعهم هي بالضبط: العسر، لا اليسر. حتى جاءتني لحظات كنت أتخيَّل فيها أن على كل منعطف في المدينـة، وفوق المدخل من كل عـمارة، قد كُتب: عَسرٌ، لا تيسٌّر. أينـما تلفّتّ بـدا لي أنني أسمـع: عسرٌ، لا تيسٌّر. أسمعهــا من المؤسسـات، من القـوانين، من التعليـمات، من المسؤولين، من المـوظفـين، صغـارهم وكبارهم، من كل من أحتكّ به ولا أحتكّ.

واشتدّ بي الإحساس بأنني قضيت عمري هبـاءً بدراسـة القانـون، ونيـل الدكتـوراه فيه، وتـدريسه لفـترة في كليـة الحقـوق، ثمّ العمـل مستشـاراً حقوقيـاً لأكثر من مؤسسـة، وبعد ذلـك العمل مستقـلاً في المحاماة، لأنني إنما ساهمت بنصيبي أيضاً في تبرير المحظورات والزيادة منهـا، ولم أعمل إلاّ في أضيق هـامش إنسـانيّ ممكن، ضمن الـتركيبـة الاجتماعية التي تتراصّ بالمحرّمات، لتحقيق النجـاة للبعض من ثقلها الساحق. لقد رأيتني، وأنا أتخطّى عتبـة الخمسين من عمـري، دولاباً صغيراً آخر من دواليب التاريخ التي ما زالت دائبة عـلى صنع زمنٍ لا تتناسل فيه إلاّ الأزمات والفواجع والأحزان.

ولم تكن الـدراسات القـانونيـة العديـدة التي ألّفتهـا، وكتبت فيـما بينهـا، عـبر أكـثر من ربـعٍ قـرن من الـزمن، رواياـتي الخمس ـ قبـل «المـرايـا» ـ إلاّ محـاولات مني تتكـرّر في استجـلاء هـذه النـاحيـة من السلوك البشري، سواء من خلال التـاريخ كـما أفهمه، أو من خـلال تنامي المجتمع كما أراه، أو من خلال تـداخل التـاريخ والمجتمـع معاً دون هوادة وباستمرار. وجاءت وفاة غاليتي سهام لتوغـل بي بعيداً في

متاهة الشكّ في قيمة ذلك كلّه، فأنظر إلى كل ما «أنجزت» من موقع، أدركت أنه موقعي في الطين الذي رحت أتخبّط فيه، غريقاً لا يغرق، وناجياً لا ينجو ـ اللهمّ إلاّ الآن، وباقتحام لا مفرّ منه لعمل فنيّ جديد. وجاءت «المرايا»، فيما راح تمثال سهام الرخاميّ الأبيض يرمقني من على قاعدته السوداء، مبتسماً، مستفزّاً، يحثّني وملؤه الحبّ والحيرة، ويحثّني وملؤه الخشية عليّ ممّا قد أضيع فيه من أفكار وأخيلة.

وخطر لي أن أباطرة التواريخ القديمة، إذا فقد أحدهم عزيزاً يعشقه، أقام له ضريحاً فسيحاً، أو بنى مدينة أطلق عليها اسم معشوقه. وهل لي أن آمر بإقامة ضريح فسيح في مدينة تكاد لا تتّسع لقبورها البائسة التي تتزاحم الأضداد فيها (رحمك الله يا أبا العلاء!)، أو آمر ببناء مدينة على الرمال لا تنجب عبقرياً واحداً، ولا تتناسل فيها سوى الضباع؟ أم أحذو حذو الفراعنة القدماء، فأحتفظ في قبو مظلم بجسد حبيبتي محنّطاً، وأضع على قالب محيّاها قناعاً من ذهب، أجعله على وجهها، فأخلّد جمالها وموتها معاً؟

لا الذهب ضمن طاقتي، ولا إقامة الأضرحة وبناء المدن. وما ضمن طاقتي إلاّ الكلمات. فلأُسخّر الكلمات إذن، ولأكتب لذكرى من أحبّ كتاباً متفرّداً، فذّاً، مثلها، كتاباً لم يكتب مثله أحد.

لم يكتب مثله أحد! ما أروع الغرور! ولكنه غرور كان لا بدّ منه ولو في البداية، لكي أضع نصب عينيّ هدفاً يصعب إدراكه. وعليّ أن أتخيّل في نفسي قدرات أبعد مما حسبت فيما مضى، عزماً كان ذلك مني أو غروراً. وسرعان ما تبيّنت أنني، مرّة أخرى، إنما أنحرف من فيض إنائي الذي قد طفح. وأن العزم والغرور كليهما لا شأن لهما في

ما يتقاذف داخلي كلّ يوم، كل ساعة. عليّ أن أتلقّف هذه الشظايا، ولتكن ما تكون. ولم يكن الدخول في المرايا إلاّ الدخول في منطقة تدوّم فيها صور الوقائع وصور الأحلام معاً، وقد دفعَتْ بها إلى حومة الروح أيامُ اللذائذ والعذابات بلهفاتها وخيباتها المتلاحقة في زمن ملعون.

لقد أردت منذ أول كلمة كتبتها أن أرى في نهاية سهام عودةً إلى بدايةٍ في منجىً من كلّ هذا الذي تحياه النفس مرغمة ساعة بعد ساعة، إلى حيث تتحرّر من كل جور، وكل قسوة، وكل قبح، طوباوية من دون خجل، وإن تكن القيامة منها على مرمى البصر، أو أقرب:

«وهناك سقطت، وفي سقوطها كان ثمّة ما يكاد لا يُسمع من تغريد طيور نائية، وصوت البحر ناعم غائم كما عَرَفَتْه قبل سنين، ولغطٌ لا يتّضح لسياسيين ووعّاظ مزعومين لا يكلّون عن الكلام يتلاشى في أذنيها. سقطت، واستمرّ سقوطها في نفق عميق هبط بها إلى قاع حبّها وذكرياتها المعتمة، حيث تتحسّس الرغبة في البقاء إلى الأبد، واكتشافِ معدن حياتها من جديد، لتصنع منه أعجوبةً جديدة. ما أعذبَ أن تنتهي هكذا، وبانتهائها تجد طريقاً يعود بها إلى الحياة، إلى مكان حياتها الذي وحده يسعفها في صنع أعجوبتها. ورأت يديه، بأصابعهما الطويلة المرهفة، تتحرّكان عبر ذهنها، وشفتيه تتحرّكان بأيّ جمالٍ من الكلمات! ولكنها ما زالت تسقط على إيقاع انسيابيّ لا ينتهي لأصوات كثيرة من الطبيعة والناس. ياالله، من هذا الذي يناديها من خلال هذه الموسيقى كلها؟ لم تفهم كلمة واحدة مما

سمعت، ولكنها أدركت معاني عديدة متباينة، وباتت تعلم أن لها هناك لقاءً أخيراً، راحة أخيرة، في قلب عاشقها الذي راح ينادي وينادي وهي مستمرّة في سقوطها في نفق السنين عودةً إلى الحياة، الحياة، الحياة...»

إنني اليوم أرى ما لم أره يومئذ بهذا الوضوح، وهو الوضوح الذي أتى به ما كتبت لاحقاً من حكايتي مع المرايا. أنا لم أكن أتحدّث عن سهام وحدها، رغم ذلك الحبّ كله، بقدر ما كنت أتحدّث عن طيفٍ ما عليّ أن أمسك به وأجعله يتجسّد، لأستكنه حقيقته. أردت أن أغرز أظافري في ذراعيه، وأدفن فمي في شعره. أردت أن أراه يتجسّد كل يوم في شكل جديد، ويستفزّني بانصياعه وتمنّعه، بتصرّفه معي ملاكاً وشيطاناً، وتكون الأعجوبة التي يصنعها أنه ينشطر ويتعدّد، ثمّ يلتئم ويتوحّد، ويخترق بي الزمن الملعون رغم كل جور، وكل قسوة، وكل قبح. ومن خلال المرايا المحدّبة والمقعّرة، من خلال الوجوه الدميمة والأجسام المستطيلة والمقزّمة، يتسلّل الطيف المجسّد معي بقدّه الذي لا يمسّه تشويه، ووجهه الناضح دوماً بروعته، ليبلغ بي ما لم يكن لولاه ليتحقّق لي من تراكيب وتهاويل.

الرجل الذي راح يسافر
في أقاليم الليل حتى الأبد

كانت الشمس قد غاصت في الأفق بحقد متعمّد، وتركتني في الظلام. ولم تكن ثمّة دقيقة واحدة من أصيل، كأنّ قوّة ما أطفأت النور في غرفة دخلتُها للتوّ، بعد أن رتّبت الأمر بحيث لا يكون

للغرفة أية نافذة. وخيل إليّ أن قفلاً بعد قفل راح يطقّ وهو ينغلق داخل دماغي.

ولكنني كنت أعلم أنني تحت شجرة. وبوسعي أن أستشعر الأوراق اليابسة وقد انتثرت حولي، وتحت قدميّ. ولعلّ الأشجار كانت كثيرة حولي. وحواسّي تستجيب للمس أوراق تتماوج وتتقصّف. وعندما مددت ذراعي لأتبيّن إن كان الذي بجواري هو جذع شجرة، أحسست كأنني أخرجت ذراعي من نافذة مفتوحة إلى الهواء البارد، ثم سقطت مرتخية على ركام من الأوراق اليابسة. وخيّل إليّ أن المزيد من الأقفال راح يطقّ وينغلق في رأسي.

وفي حلكة الظلام، كان صوت يقول: «في أيام شبابك أثمت مع فتيات عذارى، ثم هجرتهنّ أو هجرنك لكل مستطرق قادم. منهنّ من تزوّجت وأنجبت ونسيتك، ومنهنّ من لم تتزوّج وبقيت تلاحق ظلال أهوائها إلى أن ذبلت وهرمت، ومنهنّ من عاشت ولا عيش الأميرات، وتحاول كل يوم أن تخلّص جسدها من ذكراك، وتخفق... أتذكر هذه؟ وهذه؟... وهذه؟...»

امرأة بعد أخرى كانت تتقدّم وتتضح صورتها، ثم تتلاشى في الظلام. ولم أكن واثقاً من أنني أعرفهن، أو أنني من قبل رأيتهن. ولكن كل واحدة منهن تتقدّم نحوي كأنها تعرفني، ثم يغيم وجهها وقوامها، وتختفي لتحلّ أخرى مكانها.

وتقدّمت امرأة نحيفة هيفاء طويلة الشعر، يزيد إرسال شعرها من الإيحاء بامتداد قوامها، وبانت عيناها، وهما تتوقّدان بجمال وحشيّ، وهما في حالة ضراعة، أو ألم. وقفتْ لحظةً أو لحظتين، مرتخية

الذراعين، وبغتة انطلقت في حركة مضطربة، مذعورة، كـأنها تبحث عن مهرب، طريدة أطبق عليها المطاردون. ثم ركضت، واختفت.

ولم يكن ثمّـة إلاّ الـظلام، وخشخشـة الأوراق الميّتـة كلّما تحّـركت يـدي، أو قدمي. وجـاءني الصوت من جـديد، هـامساً هـذه المـرة: «لديّ هنا عصفـور صغير، لـك أن تقول إنـه بلبل، سمعتَ تغـريده ذات يوم وضحكت، نعم، ضحكت. ولماذا ضحكت؟ لأنـه أراد أن يعبّر عن عاطفـة أكبر من تجـربته. هكـذا أنت ظننت. ولم تعلم أنه لم يكن يروي إلاّ عن مصيرك أنت، وحـزنك. ولكنـك حسبت أنه إنمـا يغني عن حزنه الصغير هو . . . أتذكر؟»

قلت: «لا أذكر، لا أذكر.»

وإذا فضـاء أزرق ينشقّ عنه الـظلام، فضاء تمـلأه الطيـور، وهي تتصايح وتنعق، وتخنق الجوّ بأسرابهـا، وتهبط كالسهـام المارقـة إلى ما فـوق رأسي، ثم ترتفـع وتحلّق متنائيـة وتتناءى معهـا ضوضـاؤها حتى تكـاد لا تُسمـع، وإذا هي تهبط بقـوّة مـرّة واحـدة، بقصف كقصف الصنـوبر، وتحطّ على الأشجـار، فتنحني الأشجار تحت وقـرهـا وتمسّ فروعها الأرض، ثم ترتفع مرّة أخرى، وتتهاطل عنها أوراقها كالمطر.

وحلّقت الطيور بعيـداً، حتى تلاشت، وتـلاشت أصواتهـا. وهبط صمت عميق ثقيل على الغابة المظلمة.

أردت أن أسمـع صـوتـاً. أردت أن أرى شيئـاً. ولكن الصمت والظلام كانا كثيفين، قاتلين. وتحرّكت بجسمي كيفـما اتفق، نفضت ذراعيّ، التـويت بجذعي، أدرت وجهي يمينـاً وشمالاً، وظننت أنني أسمـع لهاثـاً صادراً عن حنجـرتي، لهاثـاً خنيقاً، متقـطّعاً، أردت أن

أكفّ عنه، ولكنني أحسست أنه لا يصدر عنّي، بل عن مكان ما في الظلام. إنه لهاث أذكره، أذكره جيِّداً، يصدر عن حنجرة أعرفها. كنت في زمن مضى أمرِّغ فمي على تلك الحنجرة، وأشعر بشفتيّ ذبذبات ما تندّ عنه من تأوّه خافق ـ إنه تأوّه حبّ، لهاث عشق.

ووقع فمي على الفم اللاهث، وأدركت أنها أخيراً، أخيراً، قد عادت من قلب الظلام. فأمسكت بكتفيها، وهززتها بعنف قائلاً: «لن تتلاشي هذه المرّة! لن تتلاشي! هل نحن في الجحيم، أم ماذا؟»

وتوقّف لهاثها لحظة، ثم قالت: «بل نحن في غرفتك. ألا ترى ذلك التمثال الذي يبتسم لك؟ ألا ترى المرايا حولك؟ ألا تراني في كلٍّ منها أومىء إليك؟»

ورأيت ذلك كله حقّاً. فنهضنا معاً، واقتادتني إلى إحدى المرايا، وخطونا من خلالها كأنها الفضاء، لنرى أمامنا درباً معبّداً بالحصى، يتلوّى من خلال التلال الخضر، هابطاً باتجاه البحر.

ونزلنا نحو الصخور وهي تتلقّى انقذافات البحر وزبده، وقد ركن في مضيق منها قارب يعلو وينخفض مع خفقان الموج. زورق له محرّك، ولكنه يكاد يغوص في مكانه لكثرة ما حطّ فيه من ماء. . .

ومن كهف قريب خرج رجل أسود طويل القامة، يتمشّى على مهل، عارياً إلّا من وزرة حمراء حول وسطه، وقال، مشيراً إلى الزورق: «إن كنتما مستعدّين للإبحار، هيّأته لكما في نصف ساعة. نصف ساعة فقط.»

* * *

كان نهاراً شتائياً، غير أنه مليء بالشمس، بعد أن توقّفت أمطار الليلة السابقة. وقد جاءت الأمطار مصحوبة بمراسيم الروعة والمهابة التي تليق بأمطار طال ترقّبها بعد أسابيع من الجفاف. جاءت مع البروق والرعود التي هزّت المدينة هزّاً. وكنت واثقاً من أننا في الصباح، إذا توقّفت الأمطار، سنسمع أخباراً عن رجال فاجأهم عشق الطبيعة الحارق وهم يدلجون في أرباض المدينة، وحوّلهم بصواعقه إلى أشكال من الفحم.

جاء النهار صاحياً، يتلألأ، وقد نضت كل شجرة عنها غبارها، وراحت خضرتها تتألّق. وبدت حتى البيوت العتيقة وكأنّها قد استعادت نضارةً مفقودة، وتجدّدت.

عدت من مكتبي إلى الدار حوالي الثانية بعد الظهر، ولي شهيّة هائلة للطعام. وتقصّدت أن أتناول غدائي وأنا أواجه نافذة تطلّ على حديقة الدار التي تتميّز بكثرة ما فيها من أشجار النارنج، والعديد من حبّات النارنج ما زال يتوهّج بين أوراقها القشيية الآن، كقناديل من ذهب.

قبيل الرابعة خرجت إلى الطريق، وبي نشاط غريب، وإحساس يوحي إليّ بأن أسير ساعات طويلة، مع أنني أعلم أن الشمس ستغيب بعد ساعة أو أكثر بقليل. أردت أن أعانق الفضاء، أن أشرب الضوء المزرورق المشعشع كما لو أنني أشرب خمراً من كأس يفيض منها الحَبَب. كانت تلك إحدى اللحظات القليلة التي نسيت فيها كل شيء، كل ماضٍ وحاضر، فيما عدا ذلك الوهج الآنيّ اللذيذ الذي لا ينبىء إلاّ عن نفسه ـ وربّما ينبىء أيضاً عن انعكاس

في داخلي يحرّرني لا من ذوات الآخرين فحسب، بل من ذاتي أنا أيضاً.

كانت السماء صاحيةً لا حدود لأبعادها، والشمس تتقافز على أعالي الأشجار والمنازل، وانعكاساتها ـ وقد جنحت إلى الغروب ـ تتواتر في برك الماء المتجمِّع هنا وهناك طوال الطريق، كالشرارات الحمراء الصغيرة.

والسيارات تمرّ بي ولكنها، على عكس عادتها، لا تسرع كثيراً. وهناك فتيان وفتيات يسرعون أو يتباطأون، ولكنهم دائماً يتصايحون، وشيء كالضحك يملأ الجو. حتى الكلب السائب الذي مرّ بي بدا وكأنه يستمتع بمرأى الدنيا، ولن ينبح على أحد.

سيارة قادمة من خلفي توقّفت بجانبي، لم أعرها اهتماماً، واستمررت في السير. غير أن من فيها زمّر قليلاً، فانتبهت. ونظرت إلى الخلف فرأيت من خلال الزجاج الأمامي وجهاً جميلاً يضحك لي، ولم أكن قد رأيته منذ زمن ـ منذ سنة أو أكثر. فاقتربت من جانب السيارة، وأنزلت صاحبة الوجه الجميل زجاج النافذة بسرعة، وهي تصيح: «نائل! سارح، سارح كالعادة!»

انحنيت لأكون على مستوى وجهها، ووجه زوجها الجالس على الجانب الآخر منها وراء المقود، وقلت: «وأنت رائعة، رائعة كالعادة!»

في تلك اللحظة الفائضة بنشوة الطبيعة، كنت سأقول ذلك لأية امرأة توقفني في الطريق. فكيف إذا كانت المرأة هي تالة، تالة الظاهر، دون غيرها؟

قال شريف الترك من الجانب الآخر: «هيًّا اصعد، فنوصلك أينما تريد.»

قلت: «لا، شكراً. أنا طالع أتمشّى. من يركب سيارة في مثل هذه الساعة الرائعة؟»

أجابت تالة مستضحكة: «أنا وشريف، ألا ترى؟»

فاقترحت: «لماذا لا تتركان السيارة هنا، وتتمشيان معي؟»

وتمنّيت فعلاً لو أنهما يترجّلان. غير أن شريف قال: «مع الأسف، نحن على موعد. لماذا لا نراك هذه الأيام؟»

ـ يظهر أننا صرنا لا نلتقي إلاّ في الأماكن المستحيلة!

فقالت تالة، وضحكتها تتجدَّد: «الحقّ عليك. تلفن لنا، ولو مرّة في العمر. . .»

ـ سأفعل.

وهتف شريف: «سبعة سبعة، واحد واحد، أربعة ستة صفر. تذكّر ٤٦٠، والبقية سهلة.»

وضحكت من أعماق حنجرتي: «سأتذكّر! طبعاً سأتذكّر!» كأنّني لم أكن أعرف الرقم منذ ما قبل زواجهما، وانتقال شريف للسكنى مع أهل تالة بسبب ظروفه الاقتصادية يومئذ. حتى السيارة كانت في الأصل سيارة تالة. ورغماً عن مشيئتي فإني أتذكّر الكثير ممّا يعرفه شريف، وممّا قد لا يعرفه، عن تالة صديقة سهام ورفيقة عمرها. وعندما تحرّكت السيارة وابتعدت، تخيّلت تالة كحمامة حملتها ذات يوم بين يديّ، ثم رفعتها بأعلى ما تستطيع ذراعاي، وأطلقتها في

الفضاء، لكي أتزوّج صديقتها، وتتحرّر هي في خياراتها.

في تلك البرهة لمحت على الرصيف المقابل رجلاً يلبس معطفاً طويلاً أسود، يمشي على مهل وقد انحنت كتفاه، رغم انتصاب جسمه. وعرفته في الحال. إنه رئيس وزراء سابق، ما خرجت يوماً في مثل هذا الوقت إلى هذا الطريق، إلّا ورأيته يتريّض وحده بالسير على مهل، تحت أشجار الصنوبر المتلاصقة، ناظراً أمامه إلى الأرض، يكاد لا يرى أحداً حوله. أية خواطر تملأ صدره، يستعيدها أو تفرض نفسها عليه، في تلك المشاوير؟ رئيس وزراء سابق ـ ولو لسنة أو أقل... كم رئيساً من هذا القبيل استطاع أن يبقى حيّاً، ليتريّض وحده في العصاري الطويلة، دونما حراسة من أحد، ويعيد تركيب الماضي على رسله، وعلى هواه؟ أم أنه لا يعيد تركيب أيّ ماضٍ، بل يتجنّبه كشيء يؤذيه إذا مدّ يده إليه؟ وإلّا لما اعتاد الناس رؤيته يتمشّى عصر كل يوم، وقد قطع كل صلة ظاهرة له بهم، كأنهم كانوا السبب في رفعه إلى أسمى المناصب، لكيما يوقعوه بعد ذلك في تلك الوحشة الغريبة التي ربّما عذّبته زمناً، ولكنه بات الآن لا يقوى على الحياة بدونها. أمّا أنا فكلّما رأيته وهو يتابع مشواره، والزمن يضيف كل يوم شيئاً إلى انحناءة ظهره، تذكّرت قصيدة لشاعر انكليزي (كيتس؟ شلي؟) يقول فيها ما معناه:

«أين أغاني الأمس؟
آه، أينها؟»

واختلطت في ذهني أغاني الأمس الضائعة ورؤساء الوزراء الضائعون بذكريات تالة وسهام ـ رغم أن الذكريات كانت أشبه

بالعصافير التي تهاجر أسراباً في الشتاء وتختفي، لتعود مع الصيف إلى أوكارها العتيدة في النفس. تعود وقد فرّخت عصافير كثيرة أخرى.

قفزت فوق بركة من ماء المطر، وتأمّلت امتداد الطريق المستقيم، وأشجار الصنوبر على جانبيه ما زالت تتألّق، وقد احمرّت السماء عند الأفق حيث انتشرت سحب خفيفة أمام الشمس فتأجّجت حواشيها كالجمر بأشعّة الغروب الوشيك. ولذا فإنني لم أنتبه أول الأمر للشابّ الذي أوقفني بمدّ يده إلى ذراعي لأتوقّف عن السير. فاعتذرت له: «العفو!»

لمحت أن عينيه حمراوان، دامعتان. وقال بحزن: «أما عرفتني، دكتور نائل؟»

عرفت وجهه، ولكنني لم أتذكّر اسمه في تلك اللحظة. فهو رجل أراه مرةً كل شهرين أو ثلاثة، فيحيّي كلانا الآخر عن بعد، ويمشي. قلت: «كيف لا أعرفك؟.. أنت...»

- حمّاد.

- طبعاً! أراك مضطرباً؟

اختنق صوته بشهقة فجائية، وأخرج منديله بسرعة من جيبه ليمسح دموعه، ثم قال: «أبي...»

- ما به؟

- جاءني قبل قليل نبأ يقول إنه أعطاك عمره.

- كيف؟ أين؟

- في عمّان. استلمت البرقية الآن من أبو حسين، صاحب الدكان... سكتة قلبية، تقول البرقية. سقط ميّتاً، في الطريق.

ووضع يده في جيب صدره، وأخرج البرقية، كأنه يخشى أن لا أصدّقه إذا لم يقم الدليل على ما يقول. فقلت له، وأنا أصافحه: «رحمه الله. والبقاء في حياتك يا حمّاد. كلّنا لها...»

فانفجر بكاؤه مجدّداً وهو يقول: «نعم، نعم.» وتركني، وانصرف في الاتجاه المعاكس.

بعد ذلك، وقد وقعت عيني على بناية «الساحة» على بعد خمسمئة متر منّي، قرّرت بدافع فجائي أن أتّجه نحوها لزيارة طلال صالح في مكتبه في الطابق الأعلى من البناية، ولم أكن قد رأيته لأكثر من أسبوعين، وكان من شأنه أن يداوم مساءً في مكتبه، وعنده فرّاش يتقن صنع القهوة التركية التي أحسست في تلك اللحظة أن موعدها قد آن، ولا بدّ منها.

في الظاهر، وفي ذلك السياق العشوائي، ما أبسط ما حدث... فلو كانت هناك عين تتابعني من مكان ما من الفضاء، لما دُهشت لما رأت، بل لنسبت إلى الأمر تلك الدوافع العادية التي تملأ كل ساعة من تحرّكاتنا اليوميّة: رجل يسير في شارع بشيء من السرعة، كأنه على موعد في مكان قريب. تراه عن بُعدٍ امرأة، وقد خرجت من دكان أرادت أن تشتري منه فستاناً، ثم غيّرت فكرها. تباغَت المرأة، رغم بعدها، لرؤية الرجل. والرجل مستمرّ في سيره. تسرع المرأة في إثره، وهو لا يدري بها. ولكن كعبها العالي لا يتيح لها ما يكفي من سرعة لاختصار المسافة بينهما بدقيقة على الأقل. يدخل الرجل مبنى من سبعة طوابق، ولا بدّ أنه سيختفي في غرفةٍ ما في أحد هذه الطوابق السبعة. هذا ما خطر للمرأة بلمح البرق. فتركض. تركض

رغم كعبها العالي، قبل أن يضيع الرجل عنها. وتدرك مدخل العمارة وهو واقف عند باب المصعد، بعد أن ضغط على زرّ استحضاره. ينزل المصعد إلى الطابق الأرضي، وينفتح بابه، ويدخل فيه الرجل. وقبل أن يضغط على أحد الأزرار، تندفع المرأة نحو المصعد، وتفتحه، ويد الرجل مرفوعة باتجاه لوحة الأزرار، وهي تلهث، تلهث بشدّة، وقد أحمرّ وجهها، وانفرجت شفتاها عن تنفّسها العنيف، وصدرها يعلو ويهبط بشكل واضح. فيبدي الرجل ما وسعه من لطف لسيّدة مستعجلة كادت أن تسقط على وجهها لتسرّعها، ويسألها: «أي طابق؟» وتجيب: «الطابق الذي أنت صاعد إليه!» فيسألها، ليتأكّد: «السابع؟» فتجيب وهي تهزّ رأسها: «السابع».

يضغط الرجل على زرّ الرقم ٧، وينغلق المصعد، ويتحرّك، والمرأة تنظر إلى شريكها فيه بعينين مفتوحتين واسعتين، ولهاثها مستمرّ بين شفتيها المنفرجتين، ولا تقول شيئاً. ويُحرج الرجل من تركيز عينيها عليه، ويتّجه ببصره نحو الباب، في انتظار انفتاحه عند الطابق السابع. وحين يتوقّف المصعد، وينفتح الباب، يفسح الرجل الطريق لخروج السيّدة أولاً، فتخرج، وتقف عند الباب. ويخرج هو أيضاً، وهو يعلم بالضبط أنه سينعطف إلى اليسار نحو مكتب طلال صالح. غير أنه لا يكاد ينعطف، متوقّعاً من المرأة أن تنعطف في الاتجاه الآخر، حتى يجد أنها تسير إلى جانبه.

فيسألها: «إلى مكتب الأستاذ طلال صالح المحامي، أنت أيضاً؟»

وإذا بها تجيب: «لا، لا، أبداً. أنا مجنونة!»

يتوقّف مشدوهاً: «نعم؟»

فتكرِّر: «أنا مجنونة، مجنونة، أستاذ نائل.»
ـ أتعرفينني؟
ـ جدّاً، جدّاً. . .

* * *

هكذا كانت البداية، كما رأتها وسجّلتها العين التي تابعتني، أو تابعتنا كلينا، كعين كاميرا خفيّة تنفذ إلى ما وراء الأبواب والجدران، ولكنها تعجز عن النفاذ إلى ما يجري في دواخل الناس.

أو هكذا تخيَّلت الحادث، عندما استرجعته فيما بعد.

لم أدرِ عند تلك اللحظة كيف أتصرّف بالضبط. ولكنني حاولت أن أحافظ على كياستي مع هذه الشابّة الغريبة. وخطر لي: ألعلّها فعلاً مضطربة عقلاً؟ ولكن العاقل فقط يستطيع أن يسمّي نفسه مجنوناً.

قلت مجاملاً: «شيء رائع أن تعرفيني، وتعرفيني جدّاً. . . هل لي أن أساعدك في شيء؟

ـ لا، لا، أبداً. أردت فقط أن أتحدثّ إليك.
ـ إذن، أنت لا تعرفين أحداً في الطابق السابع هذا؟
ـ لا في السابع، ولا غير السابع. ركضت كالمجنونة لكي أدركك. وأنت ميَّال إلى السرعة في السير.
ـ كان عليك ن تناديني في الشارع، فأنتبه إليك.
ـ وماذا كنت ستظنّ عندما تسمع امرأة لا تعرفها تناديك أمام المارّة كلهم؟

ـ كنت سأظنّ أنني واهم. أو أنني أنا المجنون.

فقالت بشيء من الجدّ: «يكفينا الآن مجنون واحد.»

فضحكت: «عندما تطلع الشمس بهذه الروعة بعد المطر، يحقّ لنا كلنا أن نتمتّع بشيء من الجنون. هكذا شعرت اليوم وأنا في طريقي إلى هنا.»

وانتبهت إلى أننا واقفان في الدهليز على مقربة من باب مغلق يؤدّي إلى مكتب صديقي.

أجابت: «غريب! الشمس هي التي جعلتني أترك الدار اليوم، هذا العصر. ولكن مع هاجس قويّ، غامض، ألحّ عليّ بأن أخرج.»

ـ لكي تريني؟

ـ لعلّني أراك.

ـ هل أنت جادّة؟

ـ جدّاً.

ـ القدر، ها؟

ـ أيّ قدر، أستاذ نائل؟ جنون. هل كان لديك هاجس، عندما خرجت من الدار، بأنك ستلقى امرأة لا تعرفها؟

ـ أتريدين الصدق؟ كلّما خرجت لأتمشّى، ساورني إحساس بأنني سألقى امرأة لا أعرفها. ولكنني مع الزمن بتّ أعلم أنه إحساس كاذب، لا يُعتمد عليه. والآن، ماذا تقولين: أندخل على صديقي هنا، ونسلّم عليه؟

ـ كما تشاء. أنا لا أريد أن أغيّر خططك.

ـ المسألة لا علاقة لها بأية خطّة. في الواقع، أنا ما جئت هنا إلاّ بدافع فجائي، اعتباطي. لأشرب عند صديقي فنجان قهوة.
ـ أترى؟ كنت مدفوعاً بهاجس لا يختلف كثيراً عن هاجسي.

ـ طيّب، يا سيدتي. كان القدر ينفّذ مآربه... ما رأيك الآن في فنجان قهوة عند طلال صالح؟

وهممت باقتياد محدّثتي، ولم أعرف بعد اسمها، نحو مكتب صديقي. غير أنها وضعت يدها على ذراعي، وأوقفتني عن السير، وقالت، مركّزةً عينيها في عينيّ: «لماذا لا نشرب القهوة في مكان لا يعرفك أحد فيه، ولا يعرفني؟»

تردّدت، وقد تجدّدت دهشتي. ما الذي تريده هذه الفتاة منّي؟ وسألتها: «هل لديك شيء معيّن تريدين أن تحدّثيني عنه؟»

أجابت بلهجة يائسة: «أشياء! أشياء كثيرة!»

وعندها تمعّنت في وجهها، وانتبهت إلى شعرها المشدود إلى مؤخّر رأسها، وشفتيها الريّانتين، وسألتها: «ما اسمك؟»

ضحكت، وتحوّلت لهجتها من اليأس إلى العبث: «أتستجوبني الآن؟»

ـ أريد أن أعرف اسمك، لا أكثر.

فأجابت باقتضاب: «سراب.»

ـ ماذا؟

ـ اسمي سراب. سراب عفّان.

فابتسمت، وأمسكت بذراعها، مستديراً بها في الرواق: «كيف لي

أن أقاوم فكرة شرب القهوة مع سيّدة تدعى سراب؟ وسأبقى عطشاناً، ولا شكّ؟»

ـ لا شكّ!

وسارت معي باتجاه المصعد.

غير أنني توقّفت، وقد عاد إليّ بعض عنادي، وقلت: «ولكن بعد أن قطعت هذه المسافة كلها لأسلّم على طلال، يجب أن أراه، ولو للحظتين.»

أُسقط في يدها، وقالت بشيء من الخيبة: «كما ترى. أأنتظرك هنا؟»

ـ تنتظرينني؟ بل ترافقينني. وتسلّمين عليه أنت أيضاً. إنه رجل لطيف جدّاً. قد نراه غارقاً في كتابة قصيدة جديدة.

ودونما تردّد ـ ولا أدري من أين أتتني الجرأة ـ أمسكت بيدها، وأسرعت بها نحو باب المكتب، وضغطت على الجرس. وفتح الفرّاش الباب.

قلت: «مساء الخير، عباس. الأستاذ طلال موجود؟»

ولمّا قال نعم، سرت باتجاه غرفته، وسراب تكاد تتعثّر في رفقتي. وحالما رآنا طلال، هبّ واقفاً وانطلق من خلف منضدته الكبيرة، ليرحّب بي، وهو ينظر متسائلاً إلى السيّدة التي معي.

قلت معرّفاً وبدون مقدّمات: «الأستاذ المحامي طلال صالح. السيّدة سراب عفّان.»

وأدركت من نظرة طلال أنه حسب أنني جئته بموكّلة ليس لديّ

الـوقت لأتعهّد قضيتهـا. وصافحهـا. وأشار إلينـا، بتكلّف رسمي، بالجلوس. فتمتمت سراب: «شكراً، أستـاذ،» ونظرت إليّ بشيء من الحيرة، لأنها لا تريد الجلوس.

فقلت: «طلال، نحن مستعجلان. خطر لي أن نسلّم عليك، ثم نراك في يوم آخر.»

لم يفهم طلال: «ولكن...»

ـ لا، نحن مستعجلان.

ـ فنجان قهوة على الأقل؟ عباس!

ـ لا، لا. القهـوة معناهـا أننـا يجب أن نجلس، والسيّـدة سراب لديها موعد آخر.

فهزّت سراب برأسها: «نعم، لديّ مـوعد آخـر.» وتحرّكت كـأنها تنوي الخروج. ولكنني أوقفتها بلطف، مرّة أخـرى، وسألت طـلال: «هل من قصيدة جديدة؟»

عندها ضحك، وقال: «وأنتـما مستعجلان هكـذا؟ الشعر بحـاجة إلى جلسة، وقهوة، ووقت...»

وإذا بسراب تسأله بدهشة عفوية: «أنت محامٍ وتكتب الشعر؟»

ـ ألا تعرفين أن ثلاثة أرباع المحامين يكتبون الشعر؟»

وأضفت أنـا: «وإلاّ كيف لهم أن يقضـوا السـاعـات الـطويلة في مكاتبهم بلا عمل؟»

فقال طلال: «اسأليه هو. الأستاذ نائل لا يكتب مجرّد قصائد. إنه يكتب روايات... روايات طويلة.»

وابتسمت سراب: «أدري. كتب ست روايات. قرأتها كلها.»
ـ ها! أنت إذن من عشيرة المعجبات بنائل عمران؟
ـ يعني... فرصة سعيدة، أستاذ.

ومدّت يدها لتصافحه، وأضافت: «أرجو أن أسمع إحدى قصائدك، في زيارة قادمة.»

وتدخّلت بينهما: «زيارة قادمة! أترى؟ هذا موعد. موعد لا ريب فيه!»

وقال طلال وهو يصافحني مودّعاً: «إذن سأكون في الانتظار. وقريباً إن شاء الله؟»

عند خروجنا من العمارة، قلت: «والآن، إلى القهوة. ولكن أين؟»
نظرت إليّ بعينين محتارتين: «لا أدري. أنا نادراً ما آتي إلى هذه المنطقة.»
ـ هل عندك سيارة؟
ـ نعم، ولكنها في البيت. جئت في سيارة أجرة لكي أستطيع التجوّل بين الدكاكين هنا بسهولة. وأنت؟
ـ في البيت أيضاً. جئت أتمشّى. فالمشي رياضتي الوحيدة. أترين ذلك الفندق الصغير هناك؟ فيه كافتيريا لابأس بها. ما رأيك؟

كان فندق «الأنسام» على بعد مئتي متر أو أقلّ، وكنت أرتاد مطعمه ومقهاه كلّما احتجت إلى أخذ ضيف يزورني فجأة إلى مكان نأكل فيه، لقربه نسبياً من منزلي. ما كنت أخشاه هو أن تعترض السيّدة على مرافقتي إلى مكان عام، والليل الشتائيّ قد هبط بسرعة.

ولكن، ألم تكن هي التي اقترحت أن نشرب القهوة في مكان لا يعرفنا فيه أحد؟ قد يعرفني نادل أو أثنان في المقهى، ولكن ما همّ.

أسرعنا السير، وأنا لا أعرف أين أبدأ الكلام مع الفتاة الغريبة، رغم ادّعائها بأنها تعرفني، وبأنها قرأت رواياتي كلها. وخطر لي فجأة أنها صحفية، أو مراسلة إحدى المجلات، وأنها تريد مقابلة معي لجريدتها أو مجلّتها. وكنت قد اعتدت ذلك الأمر في السنتين أو الثلاث الأخيرة، وأدهشني عدد النساء اللواتي يقمن بهذا النوع من العمل الصحفي، ومعظمهن شابّات، حديثات التخرّج من الجامعة، ويغلب عليهن اهتمام بالشعر لأنهن، فيما يبدو، يكتبنه، ويردن أن يعرفن «سرّه» من ذوي الشهرة الأدبية، أملاً منهن في اختصار الطريق إلى تحقيق المعجزات.

وصدق حدسي. وحال جلوسنا إلى مائدة قرب النافذة الكبيرة، سألتها مباشرة: «لأيّ مجلّة تكتبين؟»

أجابت: «مجلّة «الأسبوع». أتقرأها؟»

- نادراً. أهي التي تصدر في باريس؟

- نعم.

- وتجرين لها حوارات مع الأدباء؟

- الأدباء، المفكّرين، الممثّلين، الفنّانين... كله ماشي.

وضحكت.

فسألتها: «ولكن أين المسجّل؟»

بدت كمن فوجىء، وأجابت: «المسجّل؟ آ، تقصد المسجّل لتسجيل الحوار. أنا لا أستعمل المسجّل كثيراً، أفضّل كتابة الأجوبة

بخط يدي. ثم إنني اليوم لم يكن يخطر ببالي أنني سـألتقيك، هكـذا، فجأة، دون سابق إنذار.

جاء النادل، وطلبت قهـوة تركيـة «مضبوطـة» لكلينا، وقلت لهـا: «عـلى كلٍّ، لن نجعـل هذه جلسـة لقاء صحفي، بـل جلسة فنجـان قهوة، و. . .» لم تواتني الكلمة الصحيحة.

فأسعفتني: «و. . . تعارف. أليست هـذه هي الكلمة التي تبحث عنها؟»

أجبت مازحاً: «تمنّيت لو أن لديـك كلمة أكـثر. . . دفئاً من مجـرّد تعارف.»

وخيِّل إليّ لحظتئذٍ أن حمرةً شاعت في خدّيهـا الشفّافـين، وانفرجت شفتاها العريضتان كأن نَفَسها انقطع في صدرها. وانتبهت إلى عينيها الواسعتين، وأهدابها الطويلة. كان وجهها بيضاوياً، ترتفع فيه عظمتا الخدّين بشكل واضح، فتؤكّدان سعة العينين، وعمقهما، كما تؤكّـدان فمها الممتلىء. وكان شعرهـا مسحوبـاً إلى الوراء يكشف عن أذنيهـا، وكلتـاهمـا محـلاّة بقـرط ذهبي بسيط، كـما يكشف عن عنق طـويـل أحسست أنها تبغي التأكيد عليه، لأنه كان حقّاً عنقاً جميلاً، تمنّيت لـو أن قلادة ما تتدلّى منه على كنزتها الصوفيـة الخضراء ـ وحبَّذا لـو كانت القلادة ذات خرزات كبيرة، حمراء أو سوداء.

في لحظة الصمت تلك، وأنا أتأمّل وجههـا، وقلّة حليّها، تخيّلتهـا تستغيث بي لأمـر لا أعـرفـه، أو لا حيلة لي بـه. غـير أنني أسرعت وقلت، وأنـا أخرج علبـة السكايـر من جيبي: «فلنبدأ بـالتعارف إذن . . . أتدخّنين؟» وفتحت لها العلبة.

بحياء أجابت: «نعم، قليلاً.» وتناولت سيكارة، وتناولت أنا أخرى، وأشعلت السيكارتين بمقدحتي التي وضعتها مع العلبة على المائدة، كأنني أوحي إليها، وإليّ أيضاً، بأن لجلسة فنجان القهوة أن تطول، إذا اقتضى الأمر ذلك.

قالت، وهي تنفث الدخان: «هل أدهشك أنني قرأت رواياتك كلها؟»

ـ إلى حد ما. فالمعتاد عندي أن أرى من يقول إنه قرأ كتابي هذا أو ذاك، أو أنه قرأ اثنين منهما، وفضّل السابق على اللاحق، أو العكس. ومن المعتاد عندي أيضاً أن ينتهي الكلام إلى طلب نسخة من روايتي الأولى، أو الأخيرة. هديةً، طبعاً.

ـ وماذا تقول عندئذ؟

ـ أقول: أهلاً وسهلاً. ولكنني في الأغلب الأعمّ أعتذر، إذ قلّما تبقى لديّ نسخ من كتبي.

قهقهت، والنادل يضع فنجاني القهوة أمامنا: «إذن لا أستطيع أن أطلب منك نسخة من «الدخول في المرايا»؟

ـ ولكنك تقولين إنك قرأتها؟

ـ النسخة التي قرأتها لا تحمل إهداءً منك ولا توقيعك.

ـ سراب، أنت الآن تحاولين الحصول على نسخة منها، لأنك في الواقع لم تقرأيها بعد.

ـ أبداً. وسترى، حين نبدأ جلسة الحوار، أنني سأناقشك فيها. وهي آخر ما كتبت، أليست كذلك؟

ـ هي آخر ما نشرت.

ـ وهل لديك عمل جديد؟

ـ لديّ دائماً عمل جديـد. ولكن ليس هذا المهمّ. المهمّ، من أنت بالضبط؟

ـ أنـا، كما قلت لـك، سراب عفّان. وكـما قلت لـك أيضـاً، أنـا مجنونة.

ـ لا، لا. أنت عاقلة جدّاً.

ـ إذن، أنا عاقلة جدّاً، وأصاب أحياناً بالجنون.

ثم استضحكت، واستـدركت: «أو أنا مجنـونة، يعـود إليّ أحيـانـاً شيء من العقل.»

ـ وفي هذه اللحظة، أيهما أنت؟

ـ كلتاهما معاً!

أطفـأت سيكارتهـا بعصبيّـة في المنفضـة، وهي مـا تزال تضحـك ضحكتها الخفيفة. ولم أعرف كيف أعاملها، رغم ما اعتدت عليه من مثل هذه اللقاءات مع غرباء لا يثيرون فيّ أكثر من الـرغبة في إعـطاء إجابات قصيرة عن أسئلتهم، وأبقى، نفسياً وذهنياً، في معزل عنهم ـ دفاعاً عن دخيلتي. ودخيلتي التي يتصوّرون أنهم يحاولون النفاذ إليهـا بحـوارهم، أصـونها عـلى طـريقتي الخـاصـة بكثـير من التجـاهـل، والمداورة، والمزاح.

رفعت عينيها إليّ فجأة. فـذُعرت لمـا بدا لي فيهـما من يأس، رغم الابتسـامة البـاهته عـلى الشفتين. وتـذكّرت سهـام في تلك اللحظة. تـذكّرتهـا وهي تجالـد المرض وتحـاول إخفاء آلامهـا عنّي، وتـذكّـرت وجههـا المرمـري وهـو يـرنـو إليّ في أول الصبـح بمـزيـج من البسمـة

والبكـاء. وأحسست كأنّ نـظرة سراب نفـذت إلى حيث لا أريـد من دخيلتي، بحيث تقصّـدت، واعياً، أن أرفض لنفسي الانـزلاق إلى ما هو وهم من أوهامها ـ أو وهم من أوهامي أنا. هذه شابّة مدلّلة، ولا شكّ، أتيح لها أن تعبث، ولو ببراءة، مع رجل يكبرها كثيراً، وقرأت له أو عنه كثيراً، فراحت تمثّل أمامه دور العاقلة المجنـونة، الضـاحكة اليائسة، كأنها تصلح نموذجاً لشخصية يدخلها في إحدى رواياته. وما من ريب في أنها بعد قليل ستحدّثني عن صدمة عاطفية، وأزمة عـاتية تـدفع بهـا إلى التفكير في الانتحـار. ألا ترى كم أنـا معذّبـة، كم أنا تعيسة، وما رأيـك فيّ، أيها الكـاتب الباحث عن مـواضيع تصبّهـا في قوالبك القصصية؟

ولم يكن لي إلّا أن ألجأ إلى طريقتي المجرَّبة في مثل هذه الحـالات، فسألتها، مستمرّاً بالمزاح: «هل أنت حـزينة؟ يـائسة؟ تفكّـرين أفظع الأفكار؟»

بقيت عيناها طـافحتين ببؤسهـا المجهول، وهي تجيب بمـا لا يتفق ونظرتها: «أبداً، أستاذ نائل، أبداً... هل تراني حزينة ويائسـة؟ كل ما هناك هو أنني منذ أشهر، كنت أتمنّى لو ألتقيك. ولا أكتمك أنني لم أفكّر أول الأمر بلقائك صحفياً. بل كمعجبـة. نعم، كمعجبة ـ كـما خمّن صـديقك طـلال. وكنت أتصوّر أن لقـائي بك أمـر مستحيـل، أعني، الجلوس معك هكذا، والحديث إليك رأساً لرأس. أترى كيف تكون المراهقة المتأخّرة؟»

ـ هـا هـا! إذن أنت لم تسعي للقـائي كصحفيـة تكتب لمجلّة «الأسبوع».

ـ في البداية، قطعاً لا. ولكن تغيّر الأمر معي حين خطر لي فيما بعد أن أتّصل بك لمقابلتك كجزء من عملي، لا غير.

ـ ولكنك لم تتصّلي.

ـ أوه... المماطلة التي تعرفها، حين تتصوَّر أن الشخص الذي تريده سيكون هناك، ولن يهرب، وسيأتي الدور للاتصال به وفق ما تخطّط من عمل.

غير أن نظرتها المتوتّرة بقيت مركّزة في عينيّ على نحو يناقض كلامها. ومدَّت يدها إلى علبة السكاير، وقالت: «أتسمح لي بسيكارة أخرى؟» وسحبت واحدة، أشعلتها لها، وخيّل إليّ أن يدها رجفت قليلاً وهي تمسك بالسيكارة بين إصبعيها. غير أنني استمررت مازحاً بتجاهلي ما تبديه: «إذن، لك أن تقولي، سبق السيف العَذَل».

ـ وأيّ سيف، أستاذ نائل! قل لي، من كان أبوك؟ أين ولدت؟ لماذا درست القانون؟ ما الذي يدفعك إلى الكتابة؟ هل لك إخوة، وأخوات؟ بمن تأثّرت في صباك؟ لماذا أمضيت خمس سنوات على الأقل بين «جزيرة السمندر» و«المرايا» بدون نشر؟ كم مرّة تزوَّجت؟

قاطعتها: «سراب، ارحميني، أرجوك، واعفيني من قائمة أسئلتك الصحفية. ألم نتفق أن هذه جلسة فنجان قهوة؟

ـ وتعارف.

ـ تعارف، لا بأس، لكن بدون تفاصيل حياتيّة لا نميّز الصادق فيها من الكاذب. ثم أنا الذي أريد أن أعرف عنك شيئاً ما: ألم تقولي إنك تعرفينني جدّاً، جدّاً؟ بالمقابل، أتيحي لي أن أعرفك أنا، ولو قليلاً، قليلاً. ولأسألك من هو أبوك؟ أين ولدت؟ ومتى؟ وماذا

درست؟ ولماذا تقرأين كتبي الواحد بعد الآخر، وتحاسبينني على السنوات الضائعة؟

ـ السنوات الضائعة! أجمل السنوات؟ أم أرعبها؟ انظر! إنها تمطر من جديد، وبشدّة!

كان المطر يضرب زجاج النافذة التي جلسنا قربها، ولم أكن قد انتبهت لذلك، وأنوار الشارع وواجهات الحوانيت ولافتاتها المضاءة تضيف لألاءً كثير الألوان على الغيث المنهمر. وقلت: «مهرجان المطر!»

ـ نعم. ولكن انظر إلى الزجاج، تجري عليه السيول على غير هدى.

ثم أضافت بصوت منخفض: «كالدموع.»

وقبل أن أردّ، رفعت يدها عن المائدة باتجاه النافذة، وأتت بإيماءة معبّرة، وهي تحدّق في الزجاج، قائلة: «سيول هنا، وسيول هناك، وقطرات توقّفت في منتصف الطريق، وأخرى تنزاح ببطء نحو قطرات بجوارها...»

وتابعت بعيني السيول والمطر وإيماءات يدها: «هل ترين في ذلك شيئاً لا أراه؟ كقارئة الفنجان؟»

ـ بالضبط.

ـ ولكن الخطوط والرموز المتشكّلة في الفنجان يفترض أنها تتصل بمن شرب القهوة من ذلك الفنجان. أمّا هنا؟ بمن تتصل هذه الخطوط والرموز على زجاج نافذة لمقهى عام؟

ـ آ، أستاذ نائل، ألا تعرف؟ إنها تتصل بالاثنين الجالسين قربها.

ـ تتصل بنا، أنت وأنا؟
ـ طبعاً.
ـ إذن هاتي، اقرأيها.

وبكل جدّية، أو بجدّية الهازل الـذي يزعم أنـه ينطق بمـا لا يعنيه شخصياً، قالت، وأصابعها الطويلة العاطلة عن أية حلية تتابع حركة السيول قبل أن يتداخل بعضها في بعض نهائياً: «خريطة هائلة لطرق متشابكة، لن يعرف أحد السير فيها حتى النهاية. أترى؟ كلها طـرق مسدودة، أو منحدرة نحو الهاويات. ولكن. . .»

قاطعتها، منسجماً مع لهجتها الجادّة الهازلة، وقد بدأت أحبّ يديها وأرى في تماوج إيماءاتها الرشيقة تناغماً موسيقياً، كما في لقطة مكبّرة من فيلم بارع التصوير: «أما من بارقة أمل؟»

فأشارت بسبّابتها إلى بقعـة انعكست فيها ألـوان الأضواء لنيـونات الدكاكين المقابلة: «نعم. . . هنـاك بحيرة صغـيرة من . . . من نعيم مغلق على من فيه. . .»

ومـا كدت أركّـز عـلى هـذا «النعيم المغلق»، حتى اختـرقـه سيـل كثيـف، وسراب تهتف: «لا، لا! حتى هــذا النعيم الصغـير جـرفـه الطوفان!»

ـ إذن سيجرفنا الطوفان؟
ـ هذا ما يبدو.
ـ لا تستعجلي الكارثة، أرجوك. لعـل في هذه المسـاحة الشـاسعة بحيرة صغيرة أخرى نلجأ إليها؟
ـ أين، أين؟

وبمـزيد من جـدّهـا الهـازل رفعت رأسهـا، ومـدّت عنقهـا، وهي تبحث بعينها في أرجاء الزجاجة الكبيرة. بـل إنها نهضت عن كرسيّهـا لترسل بصرها إلى أقصى زوايا النافذة، وأنا أرقب عبثها بمتعة تمازجهـا الدهشة من قدرة هذه الغـريبة عـلى رفع الكلفـة بيننا بهـذه السرعة، وبهـذه البساطة. وراق لي، حـين وقفت، ومـدّت قـامتهـا من وراء الـطاولة، أن ألحظ نفـور نهديها الصغـيرين من وراء الكنـزة الخضراء الطويلة، وضمور خصرها المحاط بحـزام أسود عـريض يشدّ الكنـزة المستمـرة بحـاشيتهـا السفـلى لتكسـو أعـلى تنـورتهـا «التـارتن» (الاسكوتلندية)

عادت وجلست، وهي تهزّ رأسهـا يميناً وشمـالاً، وتكوّر شفتيهـا، لتقول: «ولا بحيرة واحدة. . . الطوفان عام، أستاذ نائل.»

ووجدتني أقول: «أتعرفين؟ أنت مش قليلة، مش قليلة أبداً.»

وبخبث جميـل سألت: «صحيـح؟ هل اكتشفت فيّ مـزيّـة تستحقّ الذكر؟»

أجبتها ضـاحكـاً: «قارئـة فنجان من الـطراز الأول! ولو أنني كنت أتمنّى لو أنك كشفت لنا عن «نعيم مغلق» آخر، مهما صغر.»

ومـا كـان منهـا إلاّ أن ضحكـت مـلء فمهـا وقـالت: «في المـطرة القادمة، إن شاء الله!»

سألتها: «ومن قال إننا سنلتقي مرّة أخرى؟»

أجـابت بثقة الجـادّة الهـازلـة: «أنـا أقـول. وهـذه السيـول كلهـا تؤيّدني.»

ـ ولكن، قبل ذلك، كيف ستعودين إلى البيت في هذا المطر؟

نظرت إلى ساعتها، وهتفت: «أوه، تأخّرت، تأخّرت جدّاً. ونسيت أن سيارتي ليست معي.»

ـ ولا سيارتي.

ـ ما العمل؟

ـ تكسي.

ـ آه، صحيح. مش مشكلة.

ـ أتعرفين؟ إلى ما قبل عشر سنوات، كانت الكلمة الوحيدة الأكثر تردداً على ألسنة الناس هي: «مشكلة»، كل شيء كان مشكلة. إذا تأخّر النادل قلنا: مشكلة. إذا لم نجد سيارة تنقلنا قلنا: مشكلة. إذا أمطرت الدنيا، قلنا: مشكلة. إذا لم تمطر قلنا: مشكلة، أمّا اليوم، فكل شيء أصبح «مش مشكلة»، نو پروبليم. ينقطع الماء في البيت فنقول: مش مشكلة. لا تشتغل السيارة في الصباح البارد فنقول: مش مشكلة. نقف أنا وأنت تحت المطر المنهمر، ونقول ـ

فقاطعتني: «مش مشكلة. ولكن إذا تأخّرت عن الساعة الثامنة في وصولي إلى البيت، مشكلة، وقد تجرّ إلى مشكلة ومشكلة! هل لاحظت، أستاذ نائل، أن المشكلة هي في أنها لا تُحلّ إلاّ بمشكلة أخرى؟ ستقول لي هذه جدلية هيغل، وتنسيني ما أنا فيه.»

ـ أنا أصلاً نسيت ما أنا فيه.

ـ جيِّد. إذن كلانا نسينا ما نحن فيه.

وشعرت عندئذ بانجذاب عنيف نحو هذه الغريبة المرحة التي أتتني مع الشمس الغاربة في يوم شتائي، وانحنيت باتجاهها بقدر ما

أستطيع دون لفت أنظار جلساء المقهى الآخـرين، وقلت: «من أنت بالضبط؟ هل أنت حقّاً سراب؟»

رفعت فنجانها الذي ربّما كانت قد بقيت في ثمـالته بضع قـطرات من القهـوة، رفعتـه إلى فمهـا ورشفت القـطرات الأخـيرة، وجعلت تلحس بلسـانها الأثر البنيّ من عـلى شفتيها، وأجـابت: «أنا سراب. ولكنني أتمنّى أحياناً لو كنت بحيرة. في الـواقع، أتمنّى لـو كنت بحراً، ولكن البحر مالح، فأتمنّى لو كنت بحيرة.»

صمتت، وأنـا أتمعّن في وجههـا، وفي شفتيهـا العـريضيتـين، ثمّ أضافت، ضاحكـة: «ومن كل بحـيرات العالم، أتمنّى لـو كنت بحيرة طبريّا... أتصدّق؟»

ـ بحيرة طبريّا؟ يقال إنها بحيرة جميلة جدّاً ومدهشة.

ـ اسمها يروق لي.

ـ هذه البحيرة تستطيع أن تكون وادعةً كالحمامة، وفجأة، على غير عادة البحيرات، تصطخب كالمجانين.

ـ صحيح؟ ماذا قلت لك عنّي منذ البداية؟

ـ أنت لست مشكلة، سراب. أنت مشاكل!

كان المطر قـد خفّ عندمـا خرجنـا، بحيث يمكن تحمّل نثيثـه وقد وقفنا تحت سقيفة المدخل، وأنـا أجيل البصر بحثـاً عن سيارة أجـرة. اقـترحت أن أرافقها في السيـارة إلى بيتها، اطمئنـانـاً عليهـا. ولكنهـا رفضت بـإصرار. وعنـدمـا ركبت، وقـد فتحتُ لهـا البـاب وأغلقتُـه وراءها مودّعاً، تذكّرت ـ والسيارة تنطلق ـ أنني لم أعطها رقم هاتفي، ولم آخذ رقم هاتفها.

ورحت مـرّة أخـرى أجيـل البصر في الشـارع المتـلألىء بـالبلَلَ والأنوار، بحثاً عن سيارة أجرة تحملني إلى البيت. وعندما تـوقّفت لي سيارة وصعدت إليهـا، شعرت بـوحشةٍ لم أكن أتـوقّعها. لقـد تمنّيت لو أن هذه الصحفيّة الحسناء رافقتني. وبقيت أذكر ضحكتهـا، وعطرهـا الذي فوجئت به متضوّعاً من شعرها عندمـا فتحت لها بـاب السيارة. وحـاولت أن أتـذكّـر بحـيرة رأيتهـا، أو شـاهـدتهـا في فيلم سينـمائي. وتساءلت: هل كنت صادقاً في وصفي لبحيرة طبريّا؟

* * *

حوالي منتصف الليل، وأنـا على وشـك إطفاء النـور في مكتبي في طـريقي إلى غرفـة النوم، وقـد أوت أختي سالمـة إلى فراشهـا بعد أن اطمأنّت إلى نوم غسّان، دقّ جرس الهـاتف. ففكّرت أن من يتلفن في مثـل هذه السـاعـة لا بـدّ أن لـديـه أمـراً مهـمّاً لا يمكن إرجـاؤه حتى الصباح:

ـ هلو.

ـ أستاذ نائل؟ آسفة لإزعاجك في ساعة متأخّرة كهذه.

ـ من يتكلّم، من فضلك؟

ـ سراب عفّان

ـ الصحفيّة الحسناء؟

ـ لا أشكّ في أنك معتاد على الصحفيات الحسان؟

ـ وغير الحسان أيضاً . . . خير؟

وقبل أن تجيب، أضفت: «بعد أن افترقنا، خطر لي أنك لم تطلبي رقم هاتفي، على عادة أهل الصحافة. ولم تعطيني رقم هاتفك.»

ـ رقم هاتفي؟ غير مهمّ. أمّا رقمك فهو عندي منذ زمان.
ـ أولاً، طمئنيني، هل وصلت إلى البيت بسلام؟
ـ نعم، وتذكّرت أنني لم أتفق معك على موعد لإجراء الحوار.
ـ ربّما فقدت الحماس، بعد فنجان القهوة والتعارف.
ـ بالعكس. تركتك وأنا واثقة من أنني سأراك غداً. ولا أدري من أين جاءتني هذه الثقة.
ـ من سيول المطر، ولا شكّ. هل قلت غداً؟
ـ نعم، غداً.
ـ متى؟
ـ ما عليك إلاّ أن تعينّ لي الوقت، والمكان.
ـ سراب، أنا رجل كثير الأشغال، ولا سيّما في الصباح.
ـ حالما عدت إلى البيت، تأكّدت من أن المسجّل الذي عندي يعمل، وأن عندي شريطاً أو اثنين جديدين. أريد حديثاً طويلاً، لساعة، أو ساعتين إذا أمكن. وأنا أعلم أنك في الصباح مشغول في مكتبك. هل عندك موظفون وكتّاب كثيرون؟
ـ ثلاثة أو أربعة، كأي مكتب محاماة.
ـ وفي المساء؟
ـ المكتب مفتوح، ولكنني لا أميل إلى الدوام في المساء.
ـ هلاّ خرجت على عادتك هذه المرّة، غداً؟
ـ لا، لا أحبّ اللقاءات الصحفية في مكتبي. ما رأيك في المكان الذي شربنا فيه القهوة اليوم؟
ـ ممتاز. في السادسة مساءً؟
ـ في السادسة مساءً، لا بأس.

طوال السنوات الأخيرة كنت أتعمَّد، حين يطلب أحدهم موعداً معي، أن أجعل الموعد بعد يومين أو ثلاثة. وها أنا الليلة أكسر القاعدة - وربّما قواعد غيرها - لمجرَّد أن اقترحت هذه الفتاة عليّ ذلك.

ولأول مرّة منذ سنوات، وجدتني أتطلَّع إلى الموعد بمتعة، وأترقَّبه. ولأول مرّة أيضاً، أجعل اللقاء في مكان عام، وأخشى - وأنا المطلوب - ألّا يأتي الطالب في حينه، أو ألّا يأتي أبداً.

وفي اليوم التالي، عندما وصلت إلى كافتيريا «الأنسام» في السادسة مساءً، أو بعدها بدقيقتين أو ثلاث، خشيت أن تكون صحفيتي الحسناء قد سبقتني، فلم تجدني، فخرجت... كانت المائدة التي جلسنا إليها في الليلة السابقة خالية. أسرعت إليها قبل أن يحتلّها أناسٌ آخرون، وجعلت أتمعَّن من خلال زجاج النافذة في المارّين، رغم الإضاءة القليلة التي في الشارع، عسى أن أراها قادمة، وأعيد النظر في الوقت نفسه باتجاه المدخل. وعندما دخلت، بعد بضع دقائق، كدت لا أعرفها، لولا أنها سارت في خط مستقيم باتجاهي. قوام فارع، وشعر طويل مرسل على الكتفين، وعينان باتساع الدنيا برحابها. ومع كل ما حاولت أن أتبدَّى به من وقار فقد استقبلتها استقبالاً كان سيعدّه أيّ إنسان يرانا استقبالاً «حافلاً»، لا مجرَّد لقاء صحفية بكاتب. وكان أول ما نطقتُ، وأنا أصافحها: «ما هذا الشعر الرائع!» وأحسست أنها أطلقت من يدها الباردة ليدي إشارة غامضة أجفلت لها، وأنا أنظر إلى عينيها، وفمها الضاحك. كانت ترتدي معطفاً طويلاً، زيتونيّ اللون، مفكوك الأزرار. فلمّا جلست

على الكرسي المقابل، نزعته عنها دون أن تقوم، بأن أخرجت ذراعيهـا من الردنين الواسعين، واستقرّ المعطف حولها، وبعض شعرها السابل تائه على ياقتـه. وكان حـول عنقها هـذه المرّة عقـد من حجر «الجـاد» الأخضر يتدلّى على صدر فستانها الصوفي «البيج». ما أقلّ مـا انتبهت في الماضي إلى ما تلبسه امرأة، وكان هذا نقداً تكرّره غاليتي سهام أيام زواجنا، فأدّعي أنني قد لا أنتبه إلى ما تلبسه النسـاء الأخريـات، أمّا ما ترتديه هي، فإنني أتأمّـل في «قَصّته»، وطـرزه، وألوانـه، وأستمتع بها جميعاً استمتاعاً صامتاً. فتقول: لا أصدّقـك! وها هي سراب، في المرّة الثانية التي أراها فيها، أدقّق في لون فستانها ومعطفها، كما دقّقت البـارحة في لـون كنزتهـا وتنورتهـا . . وقلت لها، وأنـا أنـظر مليّـاً في عينيهـا: «لست أدري، هل عينـاك سوداوان أم خضراوان؟ هـل هما سوداوان باخضرار، أم خضراوان باسوداد؟»

هزّت رأسها ضاحكة، وهي تقـول: «لن أقول لـك. ومن العبث أن تطيل النظر إليهما.»

ـ في هـذا الضوء الخـافت، لا شكّ أنهما تتلوّنـان بلون معطفـك، زائداً عتمة المكان. أين المسجّل؟

وقبل أن تجيب كان النادل قد أقبل، وطلبنا، كما فعلنا أمس، قهوة مضبوطة.

ثم أعدت السؤال: «أين المسجّل؟»

زمّت بشفتيها، وقالت: «آسفة، أستاذ نائل. لم أحضره.»

ـ نسيته؟ أهكذا ينزل الجندي إلى المعركة دون سلاحه؟

ـ نعم. أنا جنديّ بلا سلاح. ولكن (وهنا فتحت حقيبة يدها الكبيرة، وأخرجت منها كتاباً) أحضرت معي سلاحك أنت، «الدخول في المرايا». هلاّ أهديتني إيّاه بتوقيعك؟

ـ أأهديه، وأنت اشتريته بنقودك؟

تناولته من يدها، وفتحته على الصفحة الأولى الخالية وتردّدت فيما أكتب: هل أخطّ لها ما قد يفضح مشاعري الفجائية في تلك اللحظة؟ طبعاً لا ـ أو، بمقدار فقط. فكتبت: «إلى سرابٍ أشدّ بريقاً من المرايا.» ووقّعت.

تسلّمت الكتاب مني بلهفة، وقرأت ما كتبت. «الله!» هتفت، ثم . . . ثم قرّبت الكتاب من شفتيها، وأغمضت عينيها، وقبّلت توقيعي.

وشعرت عندها بحرجٍ شديد. أتحبّني؟ أتحبّني هذا الحبّ كله حتى تقبّل اسمي؟ أم أنها تمثّل؟ ولماذا تمثّل؟ وعندما رفعت عينيها إليّ، والصفحة المفتوحة ما زالت لصق شفتيها، كانت في عينيها ضراعة غريبة، أو لعلّه ذلك اليأس الذي لمحته فيهما ليلة البارحة. ما الذي أنا مقبلٌ عليه مع هذه الفتاة الغريبة؟

في تلك اللحظة، لحسن الحظ، جاءنا النادل بالقهوة ليبدّد الشحنة التي انشحن بها الجوّ باتجاه غير متوقّع. وقلت وأنا أرفع الفنجان: «ما زلت أعتقد أنك لم تأتي بدون مسجّل. إنه في حقيبتك اليدوية الكبيرة هذه.»

ـ أبداً. هاك، انظر.

وفتحت الحقيبة أمامي، ولم يكن لي إلاّ أن أتسامح معها، وقلت:

«إذن، حسناً فعلت.»

وقبل أن تمسّ قهوتها، ارتفعت يدها إلى صدرها، وجعلت تعبث بالعقد الأخضر، كأنما تتلمّس به قوّة خاصّة، وقالت: «عندي اعتراف، أستاذ نائل.»

فمازحتها: «سراب، هل ارتكبت خطيئة بين الأمس واليوم، فأردت الاعتراف؟»

هزّت رأسها أن نعم: «خطيئة، أرجو ألاّ تعتبرها خطيئة مميتة.»

ـ يتوقّف الأمر على مدى خطورتها.

ـ إذن، فهي مميتة، لأنها خطيرة.

طاب لي نزوعها إلى الاستمرار بالمزاح وهي تتظاهر بالجدّ.

ـ اعترفي إذن، وأريحي ضميرك، ولو مؤقّتاً.

أخذت رشفة من فنجانها وقالت ببطء: «أستاذ نائل، أنا كذبت عليك.»

صمتت هنيهة، ثم نظرت في عينيّ مباشرة، لتؤكّد أن لا مواربة في ما ستقول، وأنها جادّة هذه المرّة: «أنا لست صحفية.»

ـ ولا تكتبين لمجلّة «الأسبوع»؟

ـ ولا أجري حوارات مع الأدباء.

ـ ولا الفنّانين ولا الممثّلين ومن لفّ لفّهم؟

ـ والمسجّل الذي أملكه في البيت من النوع الكبير، ولا أستعمله إلاّ لعزف الأشرطة الموسيقية.

ـ إذن، سراب، فرّحتني.

ـ صحيح؟
ـ طبعاً. لأنك أردت لقائي لمجرَّد اللقاء بي، لشخصي.
ـ أردت أن أسمع صوتك، أن أراك تتكلَّم.
ـ ولكن هذا يخيفني. أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه.
ـ هذا ما قالته صديقتي رندة الجوزي، التي حذَّرتني أكثر من مرّة من لقائك. أتعرف رندة الجوزي؟
ـ لا. من هي؟
ـ كاتبة مغمورة، مثلي. تطلعني على ما تكتب، وأطلعها على ما أكتب. ولا ترضى إحدانا عن الأخرى. أتعرف ماذا قالت عنك؟ قالت إنك قمعتني.
ـ أنا قمعتك؟ أنا الذي لم أكن أعلم بوجودك حتى البارحة؟

ـ قمعتني بكتابك الأخير هذا. . . ما كدت أنتهي من قراءته حتى رحت أمزّق مخطوط رواية كنت على وشك الفراغ منها. ورأتني رندة أفعل ذلك، فراحت تكركر، وكانت هي أيضاً قد قرأت كتابك. وقالت: «أرهبك نائل عمران! قمعك! إيَّاك أن تكتبي بعد اليوم! .»

ـ كلام فارغ. بل ستكتبين. ستكتبين رغماً عن نائل عمران. وأتمنّى لو أقول: ستكتبين بسبب نائل عمران. أخبري صديقتك ـ ما اسمها؟ ـ أن هذا ما يقوله نائل.
ـ ولكنك لم تقرأ شيئاً مما كتبت. من أين لك هذه الثقة بي؟ أمن سيول مطر البارحة أيضاً؟
ـ طبعاً. . . انظري إلى النافذة الآن: ما أصفاها!

ـ ولكن لا أرى من خلالها إلاّ الظلام.

ـ لا تتشاءمي. أنت الآن ترين من خلالها الظلام وقد هشّمته الأضواء.

ـ هل الظلام جسد يتهشّم؟

ـ بل هو روح، والنور هو الجسد.

ـ لست أدري إن كنت أتفق معك. أتصوّر أن الظلام هو الجسد، والروح، إن وجدت، هي النور الذي يهشّمه أو، على الأقل، يعيد تركيبه، ويوهّجه.

ـ قد تكونين على حق. ولكنني، على عكس المفهوم السائد، أتصوّر أن الجسد هو النور الذي، إذا أُبتلي بروح مظلمة، انطفأ. وإذا انطفأ الجسد، كان مجرّد مادة ميّتة. ولكنه قد يضرم الروح بنوره ويلهب فيها النار، ويبقى الاثنان مشتعلين.

ـ أظن أننا، جوهرياً، متفقان.

ـ ولماذا لا نختلف؟

ـ فلنختلف إذن.

ـ ما لون عينيك؟

ووجدتني دونما تفكير مسبق أمدّ يدي إلي يدها المستقرّة قرب فنجانها، وأضغط عليها. فقلبتْ يدها لتمسك بكفّي وتضغطها لثانيتين بأصابعها الطريّة، ثم سحبتها، وأخذت رشفة أخرى من قهوتها.

أممكن هذا؟ أممكن أن يأتي الحبّ مرّة أخرى كالصاعقة؟ أم أنني بتُّ عديم المقاومة، وسقطت عند أول إغراء؟ وجاءتني ذكرى رشأ

منصور في بيروت قبـل أكثر من عشر سنـوات، قبل انفجـار مأسـاتها الماحقة. جـاءتني ذكـرى تلك الليلة التي وجـدتني فيهـا أعـانق تلك الـطالبة الجـامعية، وكـانت تلك أول مرّة ألتقيهـا فيها، بعـد محاضرة ألقيتها في الجامعة الأمريكية. وشعرت أن الـدنيا مـا عادت تعني فجـأة إلاّ هذا الوجه الهارب من إحـدى لوحـات بوتيشـلّي يطالبني بمـا نسيته منذ عهد بعيد. وفي المساء التالي سألت سيّـدة جليلة كنت ضيفاً عـلى مائدتهـا: «أيمكن أن تحبَّ فتاة في الحـادية والعشرين رجـلاً في الخامسـة والأربعين؟» فضحكت وقالت، ناظرةً في عينيّ نظرة العارف: «عندما تحبّ المـرأة رجـلاً لا تسـأل عن عمـره.» لا أدرى إن كنت اقتنعت بجوابها، غير أنني لم أسألهـا عن حالي أنـا، وأنا أدرى بهـا: فقد كنت قضيت النهار كالمأخوذ مع رشأ، ننتقـل من مقهى إلى مقهى، ونتأمّـل البحـر من على صخـور الروشـة، ونتحدّث عن انتحـار العشّاق. . . صاعقاً جاءني ذلك الحب، وكنت أحسب أن مثله لا يحدث إلاّ للذين هم في مطلع العشرينات من عمرهم. صاعقـاً جاءني، وكنت أحسب أنني انتهيت من مثله بعد أن تزوّجت من سهـام خير الـدين عن حب جامح سبَّب لي ولها إشكالات مؤلمة مع أهلها وأهلي، وقد مرّت سبـع سنوات على زواجنا لم يتسلّل بيننا في أثنـائها دخيـل يفسد علينـا يومـاً واحداً من حبّنا. تالة الظاهر وحدها كانت في أول الأمر تحـوم حولنـا كطيفٍ قد يداهمنا في ساعة من الغفلة محمّلاً بالخطر، غير أن زواجهـا فيـما بعد من شريف الـترك أقصى ذلك الـطيف عنّي. وكان أسبـوعي الأول مع رشأ في بيروت وبرمّانا وجونية أسبـوعاً خـارجاً عن الـزمن: أسبوعاً كل ساعة فيه بدهر كـامل من الإثـارة والعنفوان. وعـدت إلى سهام لأجد أنّني ما زلت أحبّها، بـل لعلّني ازددت حبّاً لهـا، وازددت

شهـوةً في تملّكها، مـع كـلّ تشبّثي بـرشـا. وعشت التنـاقض اللذيـذ الممزِّق ساعة بعد ساعة. وكـانت الأشهر القليلة التـالية، وأنـا أكتب إلى رشأ، وتجيبني، أشهر البحران الصوفيّ، كـأنّني في دوران لا ينتهي من رقصة الدرويش. وكانت سفرتي إلى بيروت، كل خمسة أسابيع أو ستة، بحجّة قضية في المحاكم اخترعتها تستدعي حضوري الشخصي هناك، عودة كلّ مرّة إلى المـزيد من البحـران الجنوني. إلى أن فـرغت رشأ من كتابة وتقديم رسـالتها للماجستـير (بالانكليـزية) عن «جـلال الـدين الـرومي والقـديسـة تـيريـزا»، وعـادت إلى رام الله في الضفّـة الغربية، حيث استحال عليَّ الذهاب تحت ظلّ البنادق الإسرائيلية.

أمـرّةً أخرى تمـزّق البروق سـواد الليل، وتصيبني الصـاعقـة؟ وإذ راحت سراب تتكلّم المزيد عن الجسد والروح، كما تراها، كان بي ما يكفي من الوعي لأتساءل: أيمكن أن أعود فأعرف نشوة الدرويش في دورانه الراقص؟ أهي لمسـة يدهـا؟ أهي ألوان عينيهـا؟ أهي ضحكة أسنانها؟ هذه عابثة شهيّة انبثقت بين البارحة والليلة من العـدم، وفي شعرها المنسرح تهاويل شيطانية.

رأتني سراب سـاهمـاً، أصغي ولا أجيب. فقـالت: «هـل سمعت شيئاً مما قلت؟»

أجبت: «لم أسمع شيئاً، وفهمت كل شيء.»

فكركرت: «بل سمعت كل شيء، ولم تفهم شيئاً.»

فقلت بكـل ما استـطعت من جـدّ: «أتـذكـرين ليلة أمس لأول؟ أتذكرين الرعد المتواصل، والصواعق؟»

ـ أموت خوفاً من الرعد. لم أستطع النوم طَوال الليل، كأن السماء ستنهار فوق رأسي وتحطّمني. ولكنني فتحت الستائر لأرى الوميض الهائل يتكرّر وكأنه هو الذي يزمجر ويهدّد الكون بالويل.

ـ سراب، أنا أعشق البروق الصاعقة. ويبدو أنني قد صُعقت.

ـ بَعُد عنك الشرّ، دكتور نائل! لو صُعقت، لكنت الآن فحمةً كبيرة.

ـ أنا فحمة كبيرة، ولكن متأجّجة... سراب، من أنت؟ لماذا لا تجيبينني؟من أين أتيت؟ من أرسلك إليّ؟ لماذا لم تسمعي نصيحة صديقتك ـ ما اسمها...

ـ رندة الجوزي؟

ـ نعم، رندة. اسمها جميل. ولا أشكّ في أنها ذكية كذلك.

ـ جدّاً. وهي مثلي تموت خوفاً من الرعد، وتحبّ متابعة البرق. كنا معاً ليلة أمس الأول.

ـ ليتني أنا كنت معك.

ـ لتحميني؟

ـ لنُصعق معاً، أنا وأنت!

ومددت يدي وأمسكت يدها بقوّة، وأردت لأصابعي أن تتحاور مع أصابعها، وأحسست بالفعل أن أصابعنا تداخلت وراحت تتحاور، وما عادت بنا لحوالي دقيقة حاجة إلى الكلام، لولا أنها التفتت حولها بفزع، والمقهى يكاد يمتلىء بروّاده، وسحبت يدها لتمسك بها فنجانها الذي لم تبق فيه إلّا بقايا القهوة الكثيفة، وترفعه إلى شفتيها دون أن يصيبها منه شيء، وعيناها السوداودن الخضراوان مرفوعتان إليّ.

وبقيت صامتاً أتأمّل وجهها. وقدّمت لها سيكارة، وعندما أشعلتها لها، تمعّنت في الضوء الذي أنار شفتيها أسفل أنفها لبرهتين - وتذكّرت وجه سهام المنحوت في الرخام: هنا أيضاً رخام يريد من يتحسّس صقله الأملس. وكدت بعد أن وضعت المقدحة على المائدة أن أرفع أصابعي إلى شفتيها وأنفها لأطمئنّ إلى أن هذا الرخام المصقول يستجيب للّمس. وخيلَ إليّ أنها علمت بما يدور في ذهني، فرفعت رأسها، ثم أدارته قليلاً، وهي تنفث الدخان، كأنها تريدني أن أتملّى منها جيّداً.

وفجأة قلت: «بروفيلك يُظهر كيف تتصل أرنبة أنفك بجبينك، وكأنك تمثال إغريقي. وجهك رأيت مثله في تماثيل الآلهة في الأكروبوليس بأثينا.»

- هذا إطراء جميل، أحبّه. ما من امرأة إلاّ وتحبّ الإطراء.
- هذا ليس إطراء. إنه محاولة لتحديد شيء أراه أمامي.
- جعلتني «شيئاً»، دكتور نائل؟
- شيئاً يتصل بأعظم ما صنع الإنسان. إنه حضور، حضور قويّ، رائع.
- وجهي فقط؟ أرنبة أنفي؟
- كلّك، كلّك... سراب، كيف لم تتزوّجي حتى الآن؟ كيف لم يخطفك أحد؟
- بل تزوّجت. وكانت تجربة مرّة خلّصت نفسي منها بسرعة، وبصعوبة.
- حدّثيني عنها.

ـ الآن؟ أتـريـدني أن أعكّـر هـذا الينبـوع العـذب الـذي جعلتني أستحمّ فيه؟

ـ وفي هذا البرد؟

ـ في هذا البرد الجميل، المطعون بالصواعق.

ـ سراب، بعبارتين اثنتين خلقت صورة كاملة، صورة غير عادية. أكاد أرى إله الصواعق ـ جوبيتر، أليس كذلك ـ يرمي بقذائفه النارية حـول حوريّـة جُنّت من الحب في يوم بـارد، وراحت تستحمّ في مياه ينبـوع تجمّعت بين الصخـور. . . وجوبيـتر عاشق مـاكر. إنـه يغازل الحوريّة على طريقته.

ضحكت سراب ملء فمها، وهزّت خصلات شعرها يمنةً ويسرةً، ودنت مني بوجهها بقدر ما تستطيع، قـائلة: «أتدري؟ إنـك تذكّـرني بدروس الدراما الكلاسيكية في كلية الفنون. أنا لم أخبرك أنني درست الفنّ المسرحي في كلية الفنون. وكان أستاذنا منذر فاضل خرّيج أحد معاهد فرنسا، ويعشق كورنيّ وراسين، ويصرّ على أن نتمرّن بتمثيـل مقاطع طويلة من مآسيها، على غرار الكوميدي فرانسيـز أيام زمـان. وكان علينا أن ندرس الإشارات الأسطورية اليـونانيـة والرومـانية التي تملأ تلك النصوص.

ـ ولكن دراستي أنا كانت شيئاً آخر بالمرّة.

ـ فلأعترف لك مرّة أخرى: رغم كل مـا قرأتـه لك، كنت أخشى أنـك عندمـا نلتقي ستحدّثني بلغـة قانـون العقوبـات، وذيل قـانـون الشركـات، وتعديـل ذيل قـانون الجُنـح، وتعديـل الـذيـل، وتنـازع القوانين. . .

ـ اختصاصي الحقيقي هو القانون الدولي، الذي درسته في جنيف، ولكنني مرغم على العمل كمحام. وهو ليس إلاّ وسيلة رزق. أما هواي الفعلي فشيء آخر تماماً.

ـ دعني أسألك: لو خُيِّرت بين الخبز والحبّ، أيهما تختار.

ـ أنا يا سيّدتي رجل عملي: أختار الخبز.

ـ يا خيبتي! أمّا أنا فأقول: أعطني حبّاً، وعيّشني على الماء.

قابلتني بوجهها وعينيها الواسعتين وشفتيها الأشبه بمرمر وردي، واجتاحتني رغبة هائلة في أن أحتوي خدّيها بين راحتيّ وأقبّلها عبر المائدة، عبر بقايا القهوة، وأعقاب السكاير. ولم يكن منّي إلاّ أن صحت صيحة مكتومة: «آه، وقليل من الخمر!»

وتجمّد وجهها على ابتسامتها. أم أن ذلك كان يأسها القديم يأتيها بين لحظة ولحظة؟ ثمّ دنت من وجهي وهمست: «ألم أقل لك إنني مجنونة؟»

وانتابني حزن غريب وأنا أرنو إلى عينيها. وتمتمت: «تبيّن لي أنني أنا المجنون.»

ـ أتدري كم الساعة؟ تخطّت الثامنة. حصّتي من الليل نفدت. سندريلاّ يجب أن تعود راكضةً إلى موقدها.

ـ أعطيك حصّتي من الليل، وهي لا حدّ لها. فابقي.

ـ يا ليت! عليّ أن أكون في البيت قبل عودة أبي من العيادة.

ـ من أنا حتى أناقشك في أمور كهذه؟

ـ أنتحرّك؟

قالت ذلك، ودفعت بكتاب «المرايا» في حقيبتها.

ـ يلاّ. معك سيارة اليوم؟ سأرافقك إليها.

كانت سيارتها في نفس الفرع الضيِّق المعتم الـذي أوقفت فيه سيارتي. بل لم يكن يفصل بين السيارتين إلاّ سيارة واحدة.

فتحتْ باب سيارتها، ومدّت يدها لتصافحني، غير أنني رفعتها إلى شفتيّ ولثمتها. وقبل أن أنظر حولي لأتأكَّد من خلوّ المكان من عابري السبيل، أمسكت بوجهها بين يديّ، وقبَّلت فمها، ولم أُطل القبلة الشهية تحسّباً للمكان العام، ولكنني رأيت في عينيها وشفتيها، رغم قلّة النور، يأساً وألماً مريعين، وقدّمت لي شفتيها بضراعة هائلة مرّة أخرى. فأطبقت فمي على فمها بضراوة، وكأنني لم أقبّل أمرأة منذ عشر سنين. ولهثتْ على خدّي: «أوه، نائل...»

قلت لها وهي تستقرّ على مقعدها: «غداً؟ ولكن لا. غداً عندي دعوة عشاء.»

قالت وهي تشغّل المحرّك: «سأخابرك الليلة ونتفق. هه؟»

عند عودتي إلى البيت، كانت سالمة قد هيَّأت عشاءً لها ولغسّان، وأسرعت بإضافة صحن آخر لي، قائلة إنها لم تكن تعلم متى سأعود. وبعد العشاء، أطلعني غسّان على دفاتر القراءة والحساب والمعلومات الحياتية، والتمارين التي انتهى منها. ثم رافقناه أنا وعمَّته إلى فراشه، وهو يمانع ويطالب بالتفرّج على سهرة التلفزيون، ونحن نصرّ على ضرورة نومه في تلك الساعة، لكي ينهض في الصباح مليئاً بالحيوية، ويبذّ أقرانه في الدرس واللعب في المدرسة، إلخ.

في منتصف الليل ذهبت إلى غرفة نومي، ونقلت إليها أحد جهازي الهاتف اللذين في البيت، ووضعته على «الكومود» قرب رأس

فراشي، على غير عادتي. كنت في انتظار مخابرة من سراب، وبي إحساس عميق بأنها لن تنام قبل أن تتصل بي. حاولت أن أقرأ في الفراش، على غير عادتي أيضاً، فلم أفقه كلمة ممّا قرأت. وما كاد جرس التلفون يرنّ أول رنّة حتى رفعت السمّاعة. وجاء صوتها همساً، كأنها تخشى أن يسمعها أحد وهي تتلفن.

ـ ألم تنم بعد؟

ـ وعدتني بالمخابرة، فكيف أنام؟

ـ أنا متعبة بشكل بديع، وأريد الآن النوم.

ـ وما الذي أتعبك بهذا الشكل البديع؟

ـ كتابة المزيد من يومياتي.

ـ نعم؟

ـ منذ مدّة وأنا أكتب ما يحدث لي كل يوم ـ ما يحدث، وما لا يحدث.

ـ وما لا يحدث أيضاً؟

ـ إلى حدٍّ ما.

ـ يبدو أنك اليوم كتبت عما حدث ـ عن جلستنا هذا المساء؟

ـ صفحات وصفحات.

ـ بحرارة؟

ـ وبعمق.

ـ هل ستسمحين لي بقراءتها؟

ـ مستحيل! أأفضح لك أسراري؟

ـ وهل معرفة أسرارك فضيحة؟

ـ وأيّ فضيحة. . . هل قلت إن لديك دعوة عشاء غداً؟

ـ لسوء الحظ. مع طلال صالح، وآخرين لم أرهم منذ زمان. أتذكرين طلال؟

ـ وكيف أنساه؟ وعدنا بقصيدة، وعلينا أن نطالبه بإنجاز الوعد.

ـ سأذكر له ذلك. وبعد غد. . .

ـ نائل! لا أستطيع أن أفكّر في ما بعد غد. . .

ـ سنتخابر.

ـ تصبح على خير. ولكن، قبل أن تنصرف، قل لي: إن أنا لسبب ما لم أستطع النوم، أتأذن لي بإيقاظك للحديث معك؟ هل في البيت من ينزعج من جرس التلفون في آخر الليل؟

ـ لك أن توقظيني في أيّة ساعة شئت. ولكن افرضي أن أباك سمعك تتحدّثين بالتلفون في الثالثة صباحاً؟

ـ سيذبحني. ولكن ما همّ . . . ثم إن أبي ثقيل النوم. . . أوه، أريد أن أنام الآن . . . مرّة أخرى، تصبح على خير.

* * *

فرحت جدّاً بلقاء صديقي القديم عبد الله الرامي بعد انقطاع طويل بيننا. فأنا لم أره منذ مطلع السبعينات، بعد تلك الصيفية الغنية بالنقاشات التي قضينا معظمها في سوق الغرب بلبنان. كان عمله السياسي، منذ منتصف السبعينات، يقتضي منه التكتّم الشديد في حركاته، وأغلب الظن أنه كان يتنقّل من بلد إلى آخر باسم مستعار، أو بأكثر من اسم. وكان معظم نشاطه الفدائي فيما فهمت في أقطار أوروبا الغربية. أدهشني أن أراه، وهو الآن على مشارف

الخمسين، وكأن يد السنين تعجز عن أن تطوله. أسود الشعر، عالي الضحكة، متوقّد العينين، يمشي بظهر منتصب وكأن مآسي الدنيا ـ والله يعلم أنه عرف الكثير منها في السنين الخمس عشرة الأخيرة ـ لا تستطيع أن تحني كتفيه.

سألني في الحال عن سهام: فهو لم ينسَ إعجابها بكتاباته في إحدى المجلّات اللبنانية يومئذ، وكيف كانت لا تضيّع فرصة لمرافقتنا في جلساتنا وأحاديثنا لإعجابها الصريح بحماساته التي يشتعل بها ولكنها لا تحجب أبداً خفّة ظلّه ودعابته.

وقد صُدم بشكل لم أتوقّعه عندما أخبرته بوفاتها، وقال بصوت يهزّه الحزن: «كنت أعتبرها من أروع من لقيت من النساء.» وحدّثنا فيما بعد عن زوجته الدانمركية التي تركها في كوبنهاغن، وقال بصراحته المحبّبة، إن انجذابه إليها «بدأ سياسياً، وتحوّل إلى جنسي، وهو الآن في حالة ما بين بين...»

كانت سهرتنا معه في فندق «هوليداي». وكان طلال، صديقه القديم الآخر، في حالة تجلٍّ شعري، كدأبه كلّما تخطّى بالويسكي الكأس الثانية. وكان معنا سليمان أبو عوف الذي يدعو نفسه «الأديب الذي ضرب على نفسه الصمت»، رغم شهرته طوال السبعينات بما كان يكتب من عمود أسبوعي في جريدة «الرقيب»، بالإضافة إلى روايتين اثنتين حظيتا آنئذٍ باهتمام واسع هنا وفي عدة أقطار عربية، أصرّ بعدهما على أنه، بعد أن قال ما قال لحوالي عشرين سنة، «لم يبق ما يستحق عناء القول». وينخزني بين حين وحين، قائلاً: «وهذا نائل، رغم كل نجاحه في استغلال تناقضات الشرائع

والقوانين، لا يكفّ عن القول، روايةً بعد رواية بعد رواية... والله لو كنت شهريار لأمرت مسرور بضرب عنق شهرزاد قبل أن يدركها الصباح، لكي تمسك عن الكلام المباح!» فعلّق الطيّب الهادي، ونحن نضحك، بأن شهرزاد كانت ستجمّد ذراع مسرور وهي مرفوعة بسيفها في الفضاء، بقولها له، وكلها إغراء: «بلغني أيها السيّاف السعيد...» وأين السيف من الكلمة؟

والطيّب الهادي، صديقي القديم أيضاً، كان في زيارة نادرة بشأن دراسة يكتبها للمجلّة التي يعمل فيها في باريس. وهو يراوح في إقامته بين باريس والرباط، وذلك منذ أن خرج من بيروت مع المقاتلين الفلسطينيين في السفينة التي حملت أعداداً كبيرة منهم إلى تونس في أوائل الثمانينات. وكان من الأدباء المغاربة القلائل الذين وجدوا مستقرّاً في بيروت في السبعينات، حيث عمل في الصحافة، على هامش النشاط الفلسطيني فيها أول الأمر، ثم منخرطاً في الثورة بقلمه وكيانه جميعاً، حتى غدا من أعلام تلك الشلّة المدهشة التي، في بيروت، غيّرت وجه الصحافة العربية في كل مكان، وساهمت، بانطلاقها من واقع النضال الفلسطيني، في تغيير مسارات الشعر والرواية والنقد في الوطن العربي بأجمعه.

وكنت أكنّ للطيّب حبّاً لأنه، عدا كل شيء آخر، عاصر أيامي السحرية مع رشأ منصور، وكثيراً ما التقينا ثلاثتنا معاً في مقاهي ومطاعم بيروت في سهرات تستمر حتى الفجر... إلى جانب شجاعته الفكرية، تعجبني ذاكرته الفذّة: فهو يحفظ القرآن الكريم حفظاً مدهشاً. فإذا ذكر أحدهم آية، وقام حولها خلاف أو جدل،

ذكر الطيّب في أية سورة بالضبط وردت، والسياق الذي وردت فيه. وإذا قرأ شيئاً راق له، انطبع نصّه في دماغه! وفي تعلّقه بالشعر، كان القديم والحديث يتمازجان على لسانه دونما جهد، من امرىء القيس والشنفرى إلى أحمد شوقي وابراهيم طوقان، فضلاً عن معاصريه وزملائه الكثيرين من الشعراء.

وهكذا كان اجتماعنا في تلك الليلة حدثاً رائعاً لنا جميعاً. واختلطت مواضيع حديثنا اختلاطاً هائلاً، من الحميم والخاص، إلى ذكرياتنا المشتركة، إلى مواضيع الساعة العامة، العربية منها وغير العربية. ويبدو أن الطيّب قد اكتشف مؤخّراً الكاتب النرويجي كنوت هَمْسون الذي قرأه بالفرنسية، ورأى في تأثره بنيتشه تلك النوازع التي توجِد أبطالاً متفرّدين في شعوب هي، كما قال الطيّب، لسوء حظّها، بحاجة إلى أبطال، وإذا البطل يرقى قمم المأساة لا وحده فحسب، بل بشعبه جميعاً، وعندها هاتي يا مآسي وهاتي يا مذابح! واستشهد بقول إحدى شخصيات هَمْسون المهمّة، بطل ثلاثيته «كارينو» الذي يقول ما معناه: «إني أؤمن بذلك الذي يولد زعيماً، ذلك المستبدّ الذي توجده الطبيعة، ذلك السيِّد القائد، لا الرجل الذي يختاره الآخرون، بل الرجل الذي يختار نفسه ليكون حاكم الجماهير. إني أؤمن بشيء واحد، وآمل أن أراه يتحقّق: وهو عودة الإرهابي الأعظم، الخلاصة الحيّة للسطوة الإنسانية، القيصر...»

ثم أضاف الطّيب: «هل كان هَمْسون يتنبّأ، قبل ثمانين سنة أو أكثر، بما راح يتدافع نحوه العرب، وشعوب العالم الثالث، باحثين عن الإرهابي الأعظم قيصراً لهم، ولكن دون أن يحقّق القيصر المزعوم

إلّا كل ما هو النقيض من أحلام نيتشيه؟ . . . قبل شهرين كتبت مقالاً عن بطل كنوت همسون هذا، وحاولت أن أرى كيف يتحقّق، أو لا يتحقّق، في الأنظمة العربية المعاصرة. أتدرون ما حدث؟ منع عدد المجلّة الذي ظهر فيه المقال في معظم الأقطار العربية! وكانت تلك المرّة الثالثة التي يمنع فيها عدد من المجلّة بسبب مقالٍ لي، فعاتبني رئيس التحرير بقوله: دخيلك يا أبو محمد، أنا كلّي احترام لآرائك، ولكن لا تسبّب لي منع المجلّة في العالم العربي كل أسبوع. بدنا ناكل خبز. . . ومنذ ذلك اليوم يصرّ العمّ أبو حسن على قراءة كل مقال أكتبه قبل أن ينزله في المجلّة!»

في أثناء ذلك الكلام الكثير، المتراشق في كل صوب، لم تغب سراب عن ذهني لحظة واحدة. وعلّلت نفسي بأن السهرة قد تنتهي حوالي منتصف الليل فيتاح لي الحديث معها هاتفياً قبل النوم. ولكن السهرة التي جمعتنا بعد غياب السنين الطويلة لم تكن لتنتهي بهذه السرعة. واستمرّت حتى ما بعد الواحدة بعد منتصف الليل.

في البيت وجدت أختي في المكتبة، تراجع مجموعة من الأوراق، والقلم بيدها. فسألتها: «ما هذا يا سالمة! أما نمت حتى الآن؟»

قالت وهي ترفع النظّارة عن عينيها، بادية الإعياء: «عندي تقرير سنوي أقدّمه غداً للمدير العام، لم أستطع إتمامه إلّا قبل ساعة. وها أنا أراجعه وأصحّحه التصحيح الأخير. كيف كانت سهرتك؟»

ـ ممتعة جداً. هل خابرني أحد؟

ـ نعم. سيّدة خابرتك مرّتين. أتصوّر أن لها قضية عندك.

ـ هل ذكرت اسمها؟

ـ كتبتُ اسمها على ورقة، هنا، لئلاّ أنساه.

وناولتني الورقة. فلمّا قرأت الاسم، دُهشت جداً «رندة الجوزي؟ متأكِّدة».

ـ متأكِّدة. لماذا تسمح لعملائك بالاتصال بك في البيت؟ يجب أن تعطيهم رقم هاتفك في المكتب فقط.

ـ هذه سيّدة لم أعطها رقماً قط. بل لم أرها قط أصلاً. ألم تترك رسالة؟ ألم تترك رقمها؟

ـ لا. سألت عنك بعد العاشرة بقليل، ثم أعادت الكرّة عند منتصف الليل. كيف يخطر لأحد أن يتلفن في مثل هذه الساعة؟ عندما أخبرتها أنك لم تعد بعد، قالت إنها ستتصل بك غداً في المكتب.

ـ لا بدّ أن لديها قضية مهمّة. يلّا، عزيزتي، قومي نامي. غسّان نائم؟

ـ سهر قليلاً، ثم أقنعته بالنوم.

ـ طيّب. تصبحين على خير.

اتجهت نحو غرفتي وأنا أتساءل: ما الذي تريده صديقة سراب بهذا الإلحاح؟ أرجو ألاّ يكون قد وقع مكروه لسراب... ووقفت أمام تمثال سهام، أطيل النظر في العينين، في الأنف، في الشفتين. ما الذي تفكّرين، أيّتها الغالية؟ أحزينة أنت؟ أغاضبة؟ أساخرة؟ واقتربت منها، وتحسّست وجهها البارد وجبينها، ومررت بأصابعي على فمها، وعنقها. «أمرّةً أخرى، أمّرةً أخرى؟» هذا ما تقولين يا سهام، أدري، أكاد أسمعك...

في ظهيرة اليوم التالي، وأنا أراجع الصيغة النهائية للنصوص العربيّة والإنكليزية لاتفاقية مقاولة هيّأها معاوني الأستاذ عبد الخالق شعيب، حوَّل عليّ رزوقي مكالمة هاتفية (بعد أن سألني على الخط الخاص: «سيِّدة اسمها رندة الجوزي تريد مكالمتك. هل أحوّل عليك الخط؟» فقلت نعم).

ما كادت تقول هلو، حتى شعرت أنني، رغم فضولي الشديد، يجب أن أتحفَّظ في ما أقول بشأن سراب ـ وهل لديها ما تحدّثني فيه غير موضوعها؟

«أولاً،» هكذا بدأت، رأساً، «أرجو أن تعذرني لهذه اللجاجة مني. أمس اضطررت إلى الاتصال بك في منزلك، فلمّا أجابتني زوجتك ـ»

قاطعتها: «السيِّدة التي أجابتك ليست زوجتي، إنها أختي. من أين حصلت على رقم هاتفي؟»

ـ من صديقتي سراب. وأنا في الواقع أريد الحديث إليك بما يخصّ سراب.

ـ هكذا توقَّعت.

ـ كنَّا معاً معظم نهار أمس، وتحدَّثنا طويلاً عنك. لست أدري لماذا أصغي إلى قصصها التي لا نهاية لها، مع أنها نادراً ما تصغي إلى تعليقاتي ونصائحي. أو، إن هي أصغت، فإنها لا تلتزم بها.

ـ وماذا أردت أن تخبريني أمس، عند منتصف الليل؟

ـ رسالة وعدتُ بإيصالها إليك، لأن سراب اكتشفت أمس عصراً أن تليفونها في المنزل معطوب، أو مقطوع. فطلبت إليّ أن أتصل بك

من منزلنا أن تكون ـ ربّما ـ قد عدت من حفلة عشائك، لأخبرك بأنها في انتظار كلمة منك عن لقائكما اليوم. وهذا هو السبب في أنني عدت واتصلت في منتصف الليل.

ـ شكراً، آنسة رندة، على اهتمامك.

ـ ماذا أقول لها؟ لأننا بعد ساعة سنلتقي للغداء معاً.

ـ قولي لها: المكان نفسه، الوقت نفسه.

ـ في «الأنسام»، في السادسة مساءً؟

ـ يظهر أنك تعرفين التفاصيل.

ـ كلّها. ولو أنني أخشى عليها اندفاعها الزائد.

ـ نعم؟

ـ اسمح لي أن أقول لك إنها كانت تتحدَّث وكأنها لم ترَ رجلاً في حياتها من قبل. وقلت لها بصريح العبارة: اعقلي يا امرأة، وابتعدي عن المشاكل.

ـ أنا لا أرى أية مشاكل. كل ما في الأمر أنها أرادت لقاءً صحفياً معي، رغم أنها أنكرت ذلك فيما بعد. أكاد أجزم أن الذي يهمّها هو مقال تريد أن تكتبه.

ـ ألست تبسّط الأمر أكثر مما يجب، أستاذ نائل؟

ـ هل ترين أنت من كلامها ما هو أكثر من ذلك؟ حتى في تنويع مواضيع الحديث، أشعر أنها تفكِّر من خلال أسئلتها الصحفية الموضوعة مسبقاً.

ـ لا، لا. هذيانها أمس لم يكن كلاماً يكتب لمجلّة... على كلّ، أرجو أن أراك يوماً، فالحديث طويل.

ولم يكن مني إلّا القول بمنتهى الدبلوماسية: «نحن بين الأيادي، يا سيِّدتي... وحتى ذلك الوقت، أو حتى السادسة مساءً اليوم، بلِّغيها تحياتي.»

ما هذه الصداقة الغريبة بين هاتين الفتاتين؟ ما هذا التكاشف المطلق بينهما؟ تبدو رندة أكثر «تعقّلاً»، ولكن لعلّها الغيرة من صاحبتها هي التي تدفعها إلى مثل هذا الموقف. حتى أسلوبها في الكلام يذكِّرني بأسلوب سراب. سأنبِّه سراب إلى ضرورة التستّر بشأن الخصوصيات العاطفية. المجتمع قاسٍ، ومنافق. وعلى المرأة أن تصون ما في قلبها حتى عن أعين أقرب الناس إليها. هذا إذا أرادت تجنّب المشاكل. ولكن سراب لا تريد تجنّب المشاكل. سأحدّثها في هذا كلّه اليوم... الساعة السادسة. ما أبعدها! ونائل عمران أمسى الشيخ نائل، يتحدّث في البديهيات ويسدي النصائح الجوفاء... إذا أرادت سراب أن تتبادل خصوصياتها مع رندة، أو غير رندة، فمالي أنا؟ سراب، أنت رائعة، مهما فعلت. ولكان يومٌ آخر يمضي دون أن أراك يوماً مضاعاً آخر، في عمر معظمه ضياع. ويجب أن أشكر لرندة تبليغها الأمانة بهذا الإصرار. وانتبهت إلى أن رندة، كسراب، لم تعطني رقم هاتفها. غير ضروري، أبداً.

* * *

عندما دخلت كافتيريا «الأنسام» لم أصدِّق أنني لم ألتق سراب إلّا مرَّتين، وأن هذه هي المرّة الثالثة فقط. مستحيل. هذه الفتاة أعرفها منذ أشهر. منذ سنين. أعرفها منذ أن ولدتْ. ولكنني لا أعرف شيئاً

حقيقياً عنها. كأنها من خلق مراياي العتيدة، تُرى ولا تُلمس، تُسمع ولا تتجسَّد. وإذا هي جالسة إلى المائدة نفسها، قرب النافذة نفسها، في انتظاري، فأسرعت إليها لأقول، وأنا أصافحها بيد، وأمسك كتفها بالأخرى وهي ما تزال في معطفها: «كنت للتوّ أقول لنفسي: إنك تُرَيْن ولا تتجسّدين.»

فضحكت قائلة: «هل أنا شبح أمامك؟ المسني! هل خيّبتُك؟»

ـ لا، بل كذّبتني، لحسن الحظ. كذّبتني دائماً، أرجوك. سبقتني هذا المساء؟ ولكنها بالكاد السادسة.

ـ جئت هنا أتسوّق، وانتهيت بأسرع مما ظننت، لأنني لم أجد شيئاً أشتريه.

عندما جلسنا وطلبنا قهوتنا، سألتني عن عشاء البارحة، فحدَّثتها عنه، وقلت: «وطلال صالح ذكّرته بوعده.»

ـ وماذا قال؟

ـ يريدنا أن نزوره في مكتبه هذا المساء. بعد قليل من الآن.

ـ المهم، القصيدة؟

ـ القصيدة جاهزة، ويريد أن يقرأها لنا في مكتبه. طلبت إليه أن يعطيني نسخة منها فلا نحتاج إلى الذهاب إلى مكتبه. ولكنه أصرّ على قراءتها بنفسه لك. طبعاً، من أين له زائرة جميلة مثلك تصغي إلى قصائده؟

ـ ولكننا لن نتساهل في حكمنا عليها.

ـ وأنت، هل تنظمين الشعر أيضاً؟

ـ هل يبدو على وجهي أنني أنظم الشعر؟

ـ جداً.

ـ غريب.

ـ نظراتك، يأسك. تمرّدك. رنين ضحكتك. شعرك الهادر. يداك الموسقتان. أناملك ـ

ـ أستاذ نائل، أنت الذي تحاول الشعر الآن!

ـ ولا يأتيني إلاّ النثر. أنتظر أن تكلّمني سراب، فتكلّمني رندة. ماذا أفعل؟

قهقهت، وأتت بإيماءة بديعة من يديها إذ رفعتهما لتغطّي بهما وجهها كأنها، مازحةً، تستر خجلها، وقالت وهي تنظر إليّ من خلال أصابعها: «آسفة، آسفة. تعطّل تلفوننا أمس. وكان لا بدّ من الاتصال بك. وحسدتُ رندة اليوم على أنها تحدَّثت إليك. طبعاً، لن أشجِّعها على مكالمتك، إلاّ عند الضرورة. أخاف عليها، وعليك.

ـ هل هي تشبهك؟ صوتها، نبرتها، شيء ما في كلامها، يذكّرني بك. هل هي مثلك جميلة؟

ـ أحياناً أجدها جميلة جداً.

ـ وأحيانا؟

ـ أشبه بالعفريت، عندما تغضب أو تعبس. أتذكُّر العفريت الذي وصفته أنت في «المرايا»؟ له صلة قوية بها . . . قالت لي اليوم إنها اكتشفت أنك غير متزوّج.

ـ زوجتي سهام فارقت الحياة قبل أربعة أعوام، ولم يكن لها من العمر إلا ست وثلاثون سنة.

بدا لي أنها أجفلت، وتجهَّمت وسقطت خصلات غزيرة من شعرها على وجهها، إذ مدّت يدها عبر فنجان قهوتي، وأمسكت

بمعصمي المستقرّ على المائدة، وهي صامتة. ثم همست، وكأن دموعاً تقطر من همسها: «نائل! مسكين!»

هزّتني اللعينة بتمثيلها، وبجمالها المرعب في تلك اللحظة، وكان عليّ أن أخلص من الهاجس المأتمي الذي حرّكته في نفسي، وقلت: «سراب، حزنك رائع! هل هذه «طريقة» ستانسلافسكي؟ تقمّص العاطفة حتى النخاع؟».

سحبت يدها بغضب: «لِمَ لا أحزن لحزنك؟ أريد أن أحزن معك، وأريد أن أفرح معك، وطريقتي لن يعرفها حتى ستانسلافسكي.»

وشعرت أن الدم يتفجّر فجأة من رأسي، وقلت هامساً: «أحبّك.»

واقتربت بوجهها، وخصلات شعرها تكاد تغطّي شفتيها، وهمست: «أنا لا أحبّك. أنا أعشقك. أعشقك.»

وعندها نهضتُ وقلت: «يلّا، لنخرج. لنذهب إلى طلال. الوقت أدركنا.»

ومشينا معاً المسافة القصيرة إلى العمارة العالية التي يحتلّ مكتب طلال قسماً من طابقها السابع. وحالما دخلنا المصعد، وانغلق علينا الباب، أخذتها بين ذراعيّ، وقبّلتها بهوج، ورغبة، وعنف. وضغطت على زرّ الرقم ٧، وهي على صدري، وعدنا إلى الهوج والرغبة والعنف لثوانٍ فقط: ما أسرع المصعد في وصوله إلى الطابق الأعلى! وانفتح الباب. ولكن سراب ضغطت عندها زرّ الطابق

الأرضي فانغلق الباب، وهبط المصعد، وعدنا إلى التقبيل المجنـون، وما كاد المصعد يصل إلى الأرض، وينفتح بابه، حتى ضغطت سراب على زرّ الرقم ٧، وعدنا إلى اللعبة السريعة اللذيـذة، لولا أنـه توقّف في صعـوده هذه المـرّة عند الـطابق الخامس. فـانفصلنا الـواحـد عن الآخر بشكل أخـرق، إذ دخل رجـلٌ أدار لنا ظهـره، وضغط على زرّ الرقم ٧ أيضاً، وصعدنا معـاً إلى حيث لا بدّ من الصعـود، وخرجنـا صامتين، نكتم ضحكنـا، إلى الدهليـز الذي ينتهي في طـرف منه إلى مكتب الصديق العزيز المحامي طلال صالح، واتجهنا نحوه، بينما اتجه الدخيل البغيض، هادم اللذّات، نحو الطرف الآخر.

حالما فتح عباس الباب ، جاءنا طلال راكضاً، واقتادنا إلى مكتبه، وكلّه تـرحاب. وكعـادته عنـدمـا لا يستقبـل المـوكلين، تـرك كـرسيّ المنضـدة، وجلس معي على الكنبـة، بينما جلست سراب في الكـرسي الذي بجانبي. ثم عـادت فنهضت لكي تخلع معطفهـا، فساعـدتها، وأراد طلال أخذه منها ليعلّقه على مشجب قريب، غـير أنها آثرت أن تبقيه وراءها وحولها على الكرسي. ولم يفتني أن صـديقي أطال النـظر إلى قـوامهـا وهي تتـأوّد في حـركتهـا، بفستـانها الأخضر، إلى أن جلست، ثم جلسنـا جميعـاً لنتبـادل المجـامـلات الأوليـة، ونشعـل السكـاير. وكـان عباس سريعـاً في الرجـوع إلينـا بفنـاجـين القهـوة، والانسحاب من الغرفة.

كنا أنا وسراب ما نزال في وهـج تلك الإثارة العنيفـة القصيرة التي خشيت أن يستشفّها فينا طلال، وخيِّل إليّ أن وجه سراب بقي مورّدا أكثر من عادته، وأنه يبدو في شفتيها من أثر القبل ذلك الورم الإضـافي

الطفيف الذي يزيدهما امتلاءً، وإغراءً. غير أنها كانت رابطة الجأش، تبتسم بمقدار، وتتكلّم بمقدار، تاركةً لي التحكّم بالموقف، ولو أنها اعترفت لطلال بأنها هي التي طالبت بإنجاز وعده.

وبغتةً هتفت: «الله! ما أروع هذه الورود!»

ولفت نظري أن طلال، ربّما لأوّل مرّة منذ سنين، كان قد وضع على مكتبه مزهرية رشيقة، مستطيلة العنق، فيها بالضبط خمس وردات حمراء، طويلة السيقان، شديدة النضارة، كأنه اقتطفها للتوّ من حديقة ما.

وقال طلال ضاحكاً، ظاهر السرور: «للمناسبة، للمناسبة.»

وأنا أعرف أن صديقي مع النساء ـ إلاّ إذا كنّ يراجعنه في مسائل قضائية ـ خجول جداً في البداية، ويشعر أن لا بدّ له من كأسين قبل أن يرتفع عن دماغه ما كان يسمّيه «بالكابح اللعين». وقال إنه لو كان يعلم أنه سيكتب قصيدة كلّما وعد امرأة بقصيدة لأكثر من الوعود يميناً وشمالاً، عسى أن تُفكَّ عقدة لسانه. ولم أستطع إلاّ أن أقول: «وهل كل امرأة تعدها هي سراب حتى تُفكّ العقدة العزيزة؟» وأمّلت في أن يأخذ كلامي مأخذ المجاملة، لحضورها معنا، وليس «دليلاً جرمياً» آخر على «جناية» حب سيحاول إثباتها عليّ...

ذهب إلى منضدته، وأخرج من أحد أدراجها ورقتين «فولسكاب»، وعاد بهما إلى مكانه، قائلاً: «والله لم أنته منها إلاّ هذا المساء. وقد أغير فيها الكثير فيما بعد.»

قلت: «اتركها على عفويتها يا رجل.»

راح يتمعّن في الصفحة الأولى صامتاً، ثم ضحك: «عنوان القصيدة: «أتحب عينيّ؟». وأرجو، ست سراب، أن تسمحي لي بحرّية الشاعر إذا تغزلّ.»

وتظاهرت سراب بالدهشة: «أهي قصيدة غزل؟»

فتدخّلت: «وماذا نتوقّع من رجل كتب عليه أن يتعامل كل يوم مع المزوِّرين، والمحتالين، والقتلة، صاعداً نازلاً في أروقة المحاكم وغرف المحامين؟ لنا الله يا طلال!»

وأضاف هو: «ثمّ إن القصائد العصماء نتركها لأصحابها المحترفين.»

تنحنح قليلاً، وأخذ رشفةً أخرى من قهوته، وبصوتٍ خفيض لا يخلو من قوّة، ولا يخلو كذلك من نبرةٍ مسرحية ربّما جاءته من خبرته في المرافعات أمام القضاة، راح يقرأ ببطء إيقاعي، وهو يرفع عينيه بين حين وآخر بنظرة سريعة إليّ، ثم إلى سراب، ويؤكّد بعض الكلمات تأكيداً يزيد من وقعها:

قالت: أتحبّ عينيّ؟
قلت: أحبُّ خدَّيكِ
كفاكهتينِ،
وشفتيك كجمرتينِ
ضاحكتينِ -
قالت: وعيناي، أتحبُّهما؟
قلت: أحبّ نهديكِ

عابثين، متحدِّيينْ ـ
قالت: سألتك عن عينيّ،
أتحبهّما؟
قلت: أحبّ قوامكِ
متثنّياً كصفصافةٍ ـ
فقالت: أف، وعيناي؟
قلت: أحبّ ساقيك
الممشوقتين كسيفين،
وكاحليكِ المنوِّرَيْنِ،
وقدميك تلتقيانِ وتفترقان
كحمامتين ـ
فقالت: وعيناي،
ألا تحبّهما؟
فقلت: آهِ، عيناك؟
أأستطيع التحديق في الشمسِ
إذا سطعتْ،
دعي عنك شمسين اثنتين؟
قالت: إذن لمن كحّلتهُما؟
قلت: للدنيا، لكي تُشرقا
حتى في ظلمة الليلِ
على كل من فيها.
قالت: مبالغٌ أنت،

بل أنت ماكرٌ ومخادع.
قلت: في حبّك أنا
ماكرٌ ومخادع.
قالت: إذن فابقَ عندي
وامكرْ بي، وخادع.
قلت: أتصدقينني؟
قالت: وما همّني،
ما دمت تزعم أنك اليومَ
تحبّني؟
فقلت: وكلَّ يومٍ!
قالت: هُسّ، لا تبالغ!
كفاني حّبك اليوم،
وما همّني الغد، أو ما بعد غد ـ
ثم قل لي بربِّك:
أتحبّ عينيّ؟

انتهى من قراءته، وران صمت قام في أثنائه وألقى بالورقتين على المنضدة، ثم عاد إلى مقعده، دون أن ينظر إلى أيّ منا، كأنه يخشى ما سوف نقول. فسألتُ سراب: «ما رأيك؟»

قالت: «جميلة. جميلة جداً. تستحق الورود الخمس التي في المزهرية.»

فقال طلال: «أهديها إليك.»

ـ الورود، أم القصيدة؟

ـ الورود والقصيدة.

هتفت بفرح: «قبلت!» وقامت والتقطت مخطوطة القصيدة من على المنضدة.

ثم أضاف طلال: «وكلّما زرتني هنا مع نائل، لك منّي وردة.»

ـ رائع! وإذا لم تتوفّر الوردة، فأنا أرضى بقصيدة.

قهقه طلال صالح: «غالي وطلب رخيص! قبلت!»

وبابتسامة شيطانية التفتت سراب إليّ، وحدّقت في وجهي، وقالت: «أتحبّ عينيّ؟»

فاختطفت الورقتين من يدها، لأراجع النصّ الذي أريد، وقلت:

«أأستطيع التحديق في الشمسِ
إذا سطعت،
دعي عنك شمسين اثنتين؟»

* * *

في الطريق، وفي يدها الوردات الخمس، سألتها عن سيارتها فقالت إنها أعطتها عصر اليوم لأختها شذى، كما هو من شأنها أن تفعل بين حين وآخر. وتبيّن أن أختها، الطالبة في سنتها الخامسة في كلية الطب، تعتمد كثيراً على سراب في توصيلها، وأن سراب تفضّل أحياناً أن تأخذ شذى السيارة، وتحرّرها من مسؤوليتها، كما حدث اليوم. وأمّا سيارة أبيها، الدكتور علي عفّان، فنادراً ما يسلّم الأب مفاتيحها لأيٍّ من ابنتيه، ومهنته تحتّم على كلٍّ وجود سيارته تحت

تصرّفه الخاص طَوال ساعات الليل والنهار.

قلت: «إذن أوصلك بسيارتي.»

قالت: «بل أستقلّ سيارة أجرة.»

ـ مستحيل!

ـ دارنا بعيدة.

ـ أين؟ في القطب الجنوبي؟

ـ لا، أقرب بقليل.

ودفعتها من ذراعها باتجاه الشارع الفرعي الذي أوقفت فيه سيارتي، كما كنا فعلنا كلانا ليلة أمس الأوّل، وهي تقاوم قليلاً، وفمي لصق شعرها أنشق منه عطراً منعشاً في الليل البارد الرطب.

وما إن احتوتنا السيارة، وقد بدأتُ تشغيلها، حتى استأنفنا القبلات العنيفة اللاهثة التي كان المصعد ضنيناً بها علينا. ولست أدري كيف استطاعت سراب، ونحن في تلك الحالة من الإثارة، أن تدلّني على الطريق إلى بيتها ـ الذي بلغناه في حوالي التاسعة. ولا أنكر أنني لم أعرف أين أنا حين بدأت رحلة العودة، وضللت، واجداً نفسي أسوق في طرق سريعة لا معالم فيها أتبيّنها في ذلك الليل، واضطررت أكثر من مرّة إلى التوقّف والسؤال من أناسٍ اتّفق وجودهم على الرصيف، إلى أن وصلت أخيراً إلى منعطف جنين، ومنه توجّهت مباشرة وباطمئنان إلى الدار، وكأنني عدت من نشوة الدرويش الراقص، حيث الامتلاء والتفجّر في اللازمان واللامكان، إلى صحوة الصمت والسكون، وفراغ الزمان والمكان.

بأيّ تفصيل أتحدَّث عن عودة النشوة مع سراب كل يوم من الأيام اللاحقة، رأيتهـا أم لم أرها، وسـاعاتي كلهـا امتلاء وتفجّـر، وسراب لصق جلدي وملء عينيّ، نحن الراقصينْ أبداً في دوران غبت فيه مرّة أخرى، وللمرّة الأخيرة، عن الزمان والمكان كليهما.

- ٣ -

سراب عفّان

ما عدت إلى البيت، بعـد ساعتـين أو ثلاث مـع نائـل، إلاَّ وجدت كل شيء حولي مملاً، باهتـاً، بليداً - إلى أن أعـود إلى أوراقي، أو إلى أن يتصاعد بي الاندفاع إلى لقائه مرّة أخرى. وما أسرع ما يتصـاعد! وليس بـين الأوراق واللقاء إلاّ الـوقت الذي يجب ألاّ يكـون، الوقت الذي يجب أن يُلغى من الزمن.

* * *

ليس لي في يـومياتي إلاّ أن أكتب عنـه وعني دون أيّ إنسان آخـر. ما لا يتصل به لا يهمّني. كل ما خطّطته لحياتي يبقى الآن معلّقـا حتى إشعـار آخر. أنـا أعلم، عندمـا تأتيني سـويعـات الصحـو والصفـاء الذهنـيّ أنني أريد الاستمرار بمحاولة النفاذ من الحصار القديم، كأنما النفس مـدينة مسـوّرة أحاط بهـا الأعـداء، وكَسْرُ الحصـار عنهـا يعني الانطلاق نحو مـدن أخرى، وآفـاق أخرى، وصبـواتٍ أخرى، لا بـدّ لي منهـا كلّها وفق مـا شغلت فكري بـه في السنـوات الأخـيرة. ولكنني الآن، وهنـا، ليس لي إلاَّ أن أتابـع هذا الحلم الحسيّ الـذي ما بـات حلماً، هذه التجربة التي أعزلها كل يـوم عن تجارب العيش وتجـارب

الأهل الأخرى، لأنها لا تنتمي إليها: الحلم/ التجربة، الجوهرة التي أعيش بلألائها من خلال الظلام اليومي الذي أرفضه.

وأذكر الآن عبارة لكاتب فرنسي نسختها يوماً في إحدى أوراقي، يصف فيها بعض ما أنا فيه الآن. يقول: «أن تحبّ يعني أنك تجد لذّةً في رؤية شخصٍ يحبّك، تجد لذّةً في لمسه، وسماعه، تجد لذّة في الشعور به عن طريق كل حاسّة من حواسك، بأقرب ما يمكن لكيانك، وألصق ما يمكن بجسدك وروحك.»

هنا تبطل الحاجة لأيّ تفسير أو تعليل. ومع ذلك فإنني أستطيع الكثير من التفسير والتعليل: يكفي أن أراه، وأسمعه، لأدرك أن لعاطفتي أن تشتطّ ما شاء لها الشطط، والتفسير والتعليل اللاحقان جاهزان عند أطراف أصابعي.

* * *

من اللحظة التي تركتة فيها هذا المساء، بكيت. بكيت طويلاً. بدأ بكائي وأنا في السيارة. وفي البيت أغلقت غرفتي على نفسي وبكيت، ولا أعرف سبباً لبكائي ـ سبباً قد أستطيع تحديده والتأمّل فيه. وقلت سأسأله لعلّني أجد الجواب لديه، وهو المجَرِّب المتفهّم. أم أن الجواب عندي، ولكنني أتجاهل وأراوغ، كأيّ امرأة؟ هل كانت لديّ الرغبة مثلما كانت لديه، فحاولت إقناعه بالعكس، وأنا أعلم أن بداخلي امرأة تستطيع أكثر مما أتصوّر أنا أو يتصّوره هو، فأفزعني ما أنا عليه؟ أهذا هو المأزق الذي سعيت إليه؟ وهل مقدَّرٌ عليّ أن أعيش تلك المعادلة الصعبة التي تتكرّر معي إلى ما لا نهاية؟ فأنا بين كوني امرأة تُغري، وتُغرى، ولكنها تهاب الدخول في الحلقة

الأخيرة، وبين كوني امرأة تريد الحب، وتريده حتى آخر قطرة فيه ـ أتمزّق، إذ أعرف تماماً أن ما ينتظرني من شعور بالإثم سيعذّبني على نحو لا أستطيع التكهّن به، ذلك الشعور الذي كنت وما زلت أغذّيه بأن علاقتي بالآخر يجب التأكّد من إطارها، من مسارها. . . أوه، نائل، أيّ إطار، أيّ مسار، أرجوك، خبّرني.

* * *

«لقد أغريتني بإنسانيتك.

«تلك الإنسانية التي تجسّدت أمامي، بعد حديثنا الهاتفي مساء أمس، الذي تطرّقت فيه إلى مواضيع شخصيّة صرف استدرجتك إليها وأنا لا أكتفي من سماع كلامك فيها. فلقد كانت أوصافك وأحاديثك المتفرّقة عن طفولتك، عن أختك، عن سهام، عن صديقك جاسم الذي مات وهو يشرب بين يديك، تكمل لوحة عنك ما استطاعت الأيام السابقة أن تكمل خطوطها وألونها، إذ كنت أريد أن أراك بوضوح أكثر من الوضوح الذي رأيتك فيه في كتبك كلّها. فظلّ ترددي قائماً ما دامت الخطوط والألوان لم تكتمل، إلى أن أكملتها بنفسك وعلى طريقتك. وكان في إنهائها بداية البدايات عندي. وها أنا الآن، مرّة أخرى، وبعزم مضاعف، أدخل عالمك المسحور. ولكن أدخله هذه المرّة مصابةً بالرعب، بالنشوة، بالرغبة، ولا من سلاح أمتلكه أمامك. فأنت تمتلك كل ما يلزم في كل رحلة تقوم بها. أمّا أنا، وليس عندي ما عندك سوى أخيلتي الجامحة، فأخشى على نفسي منك أن تشكّلني، أو تعيد تشكيلي، حسبما تريد

وكيفيـما تشاء، فـلا أعود أعـرف حقيقتي إلاّ من خلالـك. ولِمَ لا، لِمَ لا، لِمَ لا؟..»

هـذه كانت الصفحـة الأولى من رسالـة كتبتها إليـه، وبعد يـومين أعطيته إيّاها ليقرأها أمامي، ونحن في ملتقانا في مشرب «الهوليداي». وبعـد أن قرأهـا بصمـت طلب إليّ أن أقـرأهـا عليـه بنفسي، «لكي تتجوهر كلماتها بأمواج صوتك.» وقرأتهـا على مهـل، وكلّي أوّل الأمـر خشية من أن يسمعني أحد من حولنا. غير أنني سرعان ما غفلت عن ذلك، وليسمع من يريد أن يسمع، متذكّرةً تلك المولّهـة التي صرخت أنها ستعلن حبّهـا من عـلى أسـطح المـدينـة! ثم طـالبتـه بـالجـواب «تحريريّاً،» قلت: «في رسالة تكون على الأقل ضعفي طول رسالتي!» فقـال: «سأكتب.» قلت: «هـذا المساء، لكي أقـرأها غـداً.» طـوى رسالتي ووضعها في جيبه، قائـلاً، وهو ينـظر في عينيّ بتصميم: «هذا المساء، وتقرأينها غداً، هنا.»

* * *

كان لقاؤنا اليوم في «الهوليداي» قصيراً، ساعة أو أقلّ، ولكنه كان في عمق أسبوعين على الأقلّ من أروع السـاعات. أسبـوعين، قلت؟ لماذا لا أقول شهرين، أو سنتين؟ جاءني بهذه الرسالة التي قرأتهـا أولاً بصمت، وجُننت، ثم طلبت إليـه أن يتلوهـا بصـوتـه عـليّ، واحـدةً بواحدة، أليس ذلك من حقّي؟

«أتدرين ما أصعب الكتـابة إليـك؟ عوّدتني عـلى الحديث إليـك، عـوّدتني عـلى أن تثـيريني وتستفـزّيني، فـأجـد الكـلام يـأتي عفـويـاً،

متدافعاً، متصلاً بما تفكـرّين وتقولـين في تلك اللحظة بـالذات. أمّـا الآن، وقد وعدت بأن أكتب، فانظري إليّ! خمسون فكـرة تنهال عـليّ دفعةً واحدة، ولا أجد لي طريقاً فيها بينها، لأمسك على الأقل بواحدة منها بشكل واضح.

«وأعيـد قـراءة الصفحتـين الجميلتـين، المقلقتـين اللتـين كتبتهـما أنت، وأتساءل هل أنا حقّاً بهذه القدررة التي تصفـين، وهذا التمكّن من عواطفك، بحيث تجدين نفسك تـراوحين بـين البكاء والغضب، والشوق والرغبة؟ ما أطيب الدموع، أحيـاناً، ومـا أجملها! ومـا أحلى ابتسامتك من بينهـا! وأنا المصـاب بلوعة العـين، أتلوّع كل مـرة على نحو جديد لأرى عينيك تتحوّلان من إقبالٍ إلى إعـراضٍ إلى هجوم، من نشوة النمرة العارفة بروعة جسدها، إلى تفجّع ملاكٍ ضـائعٍ بـين السماء والأرض.

«ولقد فوجئت بذلك كله. لم أكن، ذهنيّاً على الأقـل، مهيَّأً لمنـازلة من هـذا النوع هي في منتهى الـرقّـة ومنتهى القسـوة معـاً، ولا يعلم الواحد منّا متـى يربـحِ ومتـى يخسر. بـل إنك تـوحين أنـك الرابحـة والخـاسرة في كل لحـظة، أو أنني أنا الـرابح والخـاسر في كـل لحـظة، وتؤجِّل بقية المنازلة من ساعة إلى أخرى، من نهار إلى ليل، من ليـلٍ إلى نهار. . . وفي كل صبح تجعلين يقـظتي على همسـك وكأنـك تنفين أحلام الليل لتستقدمي أحلام النهار، بمكر العـاشق وحذق الصيّـاد. وأنـا لا أحب شيئاً، ولا أخشى شيئـاً، مثلما أحب وأخشى هـذا المكـر وهذا الحذق. وأجدني مرّة أخرى أتساءل: أأنـا أم أنت صاحب هـذا المكر وهذا الحذق، أأنا العاشق أم أنت، هل الصيَّاد أنا أم الـطريد،

لأزعم أخيراً أننا كلينا هذا وذاك، واجعلها يا ربّ هكذا، حسماً للسؤال!

«ولا بدّ لي من القول إنني لن أشكّلك على طريقتي وهواي، كما ظننت، لأنني أريدك كما أنت، مهما يخيّل إليّ أو إليك أحياناً أن بغماليون دائب على إعمال إزميله في المرمر المغري. وأنا أصلاً أخاف على بغماليون، رغم كل براعة صنعته. أخاف عليه، كما حدّثتك مرّة، من أن ينقلب المنحوت على الناحت، وإذا الصانع هو المصنوع، وإذا العشق يجد له قناعاً لم يكن بالبال. وأنا كما تعلمين ولا ريب، جئتك بريئاً، دافقاً بالكلمات، طالباً رؤيتها وهي تتحوّل من وهم إلى حسّ، من صوت إلى جسد، كما يفعل كل من يرى في الجمال مثاله المطلق. وآه يا قهوةً مضبوطة تُشرب في مساء يومٍ داهمه المطر، ورسم خطوط القدر المستحيل على زجاج النافذة...

«ويبقى الهاجس شغّالاً، يتزيّا كل لحظةٍ بزيّ، ويلعب الخيال معي لعبته التي أحبّها، ولكنه يجعلها أحياناً لعبة صعبة، مُرّة، أريد لها أن تنتهي، ويبقى الخيال يشاكس والهاجس يعمل إلى غير ما هدف، سوى إشغالي بما لست أستطيع أن أحدّد شكله أو مساره.

«من مثل هذه الفوضى تنبع الكلمات ـ شكلاً لا يتحدّد، ومساراً تائهاً؛ ولكنني أعلم أنها جميعاً تنطلق كأسراب من عصافير الربيع لتطير باتجاهك دون أن تعلم أين ستستقرّ. وما الضرر؟ هكذا أسائل نفسي. المهمّ أن الكلمات تتجنّح، وتحلّق، وربما تُجَنّ، وترين أنت أسرابها وهي تبحث عن مأوى في فضاءاتك. فلتكن هذه نعمة غير متوقّعة من السماء...»

* * *

وأخيراً رأيت بيته، من الداخل!

لم يكن يعلم أنني كثيراً ما مررت بداره، أيام كنت أتسقّط أخباره، وهو لا يدري بوجودي. كنت أعرف بوّابة الحديد السوداء، والشرفة العريضة أمام المنزل، والنافورة الرخاميّة التي ترى من خلال السياج الحديدي. ولكنني لم أرها يوماً ترسل الماء في الفضاء، أو على الأقل تنفثه برفق لتبلّل جفافها. لم أكن أدري أنه قطع عنها الماء يوم توفيت سهام، ولم أكن أعرف شيئاً عنها آنذاك. عدّة مرّاتٍ تقصّدت أن أدخل بسيارتي في شارع منزله(بعد أن اكتشفت أن منعطف جنين يؤدّي إليه)، فأبطىء السير عند وصولي إلى البوّابة الحديدية عسى أن أراه، غير أنني لم أره إلاّ مرّتين اثنتين، عصراً، كان فيهما جالساً على الشرفة وحده مشغولاً بالقراءة، ولم ينتبه إليّ.

وقبل أيام اقترح عليّ أن أرافقه إلى البيت، فرفضت. خفت، وأحجمت. وكان حسبي ما تخيّلته عن دواخل المنزل وغرفه، كما وصفتها في إحدى يومياتي السابقة. غير أنني اليوم، إذ دخلتُ سيارته التي كان ينتظرني فيها، حالما قال: «هيّا نشرب القهوة عندي في البيت»، قلت: «في قلعتك؟ مع سالمة وغسّان؟» فقال: «يؤسفني أن سالمة وغسّان لن يكونا في القلعة، لأنها في زيارة لأخي وائل. ولن يكون فيها إلاّ أم هادي.» وأنا أعلم أن أم هادي هي خادمة العائلة العجوز منذ عشرين سنة أو أكثر. فسألته: «ألن تُصعق أم هادي لرؤيتي معك، أم أنك عوّدتها على الزائرات؟» بدا عليه السرور لموافقتي الضمنية أخيراً، وقال: «ستُصعق حتماً، لأنها ما عادت ترى في السنوات الأخيرة إلاّ العجائز يزرن أختي. وستذهب بها الظنون.»

قلت: «صحيح؟ رائع! يلّا!»

يجب أن أعترف هنا أن لي خيالاً يخيفني أنا نفسي أحياناً. فخيالي الشغول الذي أرادني أن أكتب يوميات «أ» أكثر من يوميات «ب»، أو أن أمازج بين الاثنتين، يصوّر لي من الواقع ما لا أراه بعيني، وإذا الواقع، عندما أراه، كما صوّره بالضبط! هذا الجنيّ الذي في داخلي يتمتّع بقوة خارقة، يبتليني بها، شئت أم أبيت. وإلاّ فكيف أفسّر أن البيت من الداخل، حالما تخطّيت عتبته، كان بالضبط كما تخيّلت؟ لحظة واحدة، وأصابتني قشعريرة ـ مرعبة، لذيذة، لست أدري. قلت لنائل، ونحن في ردهة المدخل: «ولكن هذا البيت أعرفه.» فاندهش: «تعرفينه؟»

ـ كما أعرفك. لا تتكلّم، فأعطيك تفاصيل هندسته ونحن واقفان هنا. هذه مكتبتك، تمام؟ وهنا الصالون. تمام؟ وهناك غرفة الطعام. وذلك هو المطبخ، وخزائنه ذات لونين، أبيض وأزرق فاتح. وتلك الغرفة المغلقة الباب، غرفة نومك. والتي تليها غرفة نوم مهملة. للضيوف، ربما؟ وهذا الدرج الصاعد يؤدّي إلى غرفة أختك، وغرفة غسّان. تمام؟

ـ مش معقول! لا بدّ أنك زرتني في الحلم! هل زرتني في أحد أحلامك أنت، أم في أحد أحلامي أنا؟ ولكن السؤال الأصعب هو: ما الذي في دواخل الغرف؟

ـ وما الذي يكون في المكتبة سوى طاولة الكتابة، ورفوف الكتب؟ وربما لوحتين أو ثلاث، إحداها كبيرة. هذه الغرفة إذن في غنى عن

وصفي. سأقول لك ما الذي في الصالون، على وجه التقريب بالطبع... أثاثك في معظمه أزرق. صح؟

ـ تعرفين أنني أهوى اللون الأزرق. فهذا تخمين سهل.

ـ طيب. وعلى جدرانك على الأقل خمس، بل ست لوحات، بينها واحدة كبيرة يغلب فيها اللون الأزرق أيضاً؟

ـ بدأت تقلقينني. ثم ماذا؟

ـ وفي الغرفة منحوتة برونزية لعلّها كبيرة بعض الشيء. منحوتة تجريدية على الأرجح؟ آه، وفي الصالون المزيد من رفوف الكتب... وعندك أيضاً مزهريتان كبيرتان من الكريستال التشيكي... هل نجحت في الامتحان؟

ـ بامتياز! تعالي وانظري بنفسك.

وحسبت أنه يمازحني، وأنني سأرى الصالون على غير ما وصفت بالمرّة. ولكن لا! لقد كان كما تخيّلته بالضبط، ووقفت مشدوهة أمام اللوحة الزرقاء الكبيرة التي تخيّلتها في يومياتي السابقة.

وكما تخيّلت يومئذ، وقف نائل خلفي وأنا أتأمّل الصورة، وأمسك بذراعيّ، ثم غمر وجهه في شعري، وبحث بين الخصلات عن مؤخّر عنقي بشفتيه، وجعل يقبّلني وراء أذني، وينزلق بالقبلات إلى كتفي... وكدت لبرهةٍ أن يُغمى عليّ، تماماً كما في روايات القرن الماضي، إذ كان يغمى على البطلة حين يقبّلها البطل لأول مرّة. وأحسست بأن ركبتيّ تذوبان، ولو لم أتّكىء بجسمي كله على صدره، وذراعاه تطوّقانني، فلربّما كنت تهاويت إلى الأرض. إلاّ أنني نفضت نفسي بقوّة، وجمعت بقايا إرادتي، وقبل أن يدرك ما حل بي،

استعدت وعيي وقدرتي على الوقوف على قدميّ، وهو يهمس: «يا ساحرة، يا عرّافة، يا قارئة سيول المطر، ترين المكشوف والمحجوب ـ ولكن سرّاً واحداً لن تعرفيه...»

همست: «في ماضيك؟»

ـ لا، لا. في حاضري، سراب. ما الذي تحويه غرفة قلبي المغلقة، الآن؟

قلت وأنا أستدير له، وأمسك بوجهه بين راحتي يديّ، كما يفعل هو عادة معي، وأتمعّن في عينيه: «قلبك ليس غرفة. إنه دهاليز متداخلة، متقاطعة. أرى فيها امرأة دخلت، ولا تعرف كيف تخرج. أم أنها لا تريد الخروج؟»

ـ ومن أين لها أن تخرج، والخروج محظور؟

ولّما انحنى يقبّلني لمحت وراء ظهره بورتريه زيتية لامرأة جميلة تصوّب نظرات نافذة إلى عينيّ، بحيث اضطررت إلى إغماضهما لأنني حزرت أنها صورة سهام... فتحرّكت به خروجاً من الغرفة، وشفتاه لصق شفتيّ. وإذا هو يتمتم: «هذه خرفشة أمّ هادي وهي قادمة إلينا من المطبخ... لتسألنا إن كنا نريد أن نشرب قهوة أو شيئاً بارداً.»

وأسرع نائل في اتجاهها ليقول لها بصوت مرتفع: «أم هادي، قهوة، فنجانين. لا حلوة، ديري بالك! أحسن ما عندك!»

ودخل بي المكتبة، ورحت أستعرض رفوف الكتب، بانتظار القهوة، وهو يلفت نظري إلى هذا الكتاب وذاك، وذراعه تطوّق كتفي، إلى أن دخلت أم هادي، وتركت لنا صينية القهوة على

الطاولة، وخرجت، ولم نعد نسمع حتى خرفشتها.

ما الذي حدث بعد ذلك؟ آه، رندة، حبيبتي، ناصحتي رندة، أخبريني، لماذا تسمحين للقلم بأن يسيل طائعاً مع تيّارات الحزن والألم، وأمّا موجات السعادة الضاربة قبّة السماء، موجات الفرح المجنونة، فلا تجدين للقلم معها طريقاً سوى الصمت، وكأنه صمت الحسود، المتآمر؟ أم أنك، مثلي، لا تستطيعين وصف بحرٍ صاخب تقاذف موجه عالياً ليتلقّف الشمس اللاهبة في سمائها، فانفجرت الشمس شظايا وتهاوت بكل نيرانها إلى أعماقه؟

* * *

كلما مرّ يوم بلا لقاء ألقيت ببعض عبثي على الورق. لا أجرؤ على إطلاعه ألاّ على القليل جداً مما أكتب، رغم إلحاحه بأن أذهب إليه بكل ما عندي من كتابات. في يوم ما، ربما، ربما، أطلعه على يومياتي معه قبل التقائنا. ولكن، لعلّني لن أفعل ذلك أبداً. لعبتي الجنونية تلك يجب أن تبقى سرّاً لن أكشف أمره إلاّ عندما لا يبقى لديّ ما أعطيه للرجل الذي أحبّ. أمّا الآن، فما أكثر ما لدينا نتعاطاه في كل لحظة، مولّداً المزيد للتعاطي كل يوم.

اليوم أخذت إليه ما كتبته على الآلة الكاتبة في ظهيرة البارحة. أردت أن أرى مقدار ما استطعت أن أوصل إليه مما يبدو في فكري مستحيل الإيصال. جاءني العنوان تلقائياً، «لعنة الانفصال الداخلي»، وكالعنوان جاءتني تلقائياً الأسطر اللاحقة:

«الأرقام رموز يختلف قياسها باختلاف الأشياء المادية المرموزة بها، وما تحتلّه من المساحة الكونية.

«وهي عندنا ترمز للعنةٍ ظهرت لنا من زاوية غير مرئية، واحتلّت الجسد الإنساني، محدثةً انشقاقاً بالرمز نفسه، الرمز الذي يطلبه الفكر ويوجّهه الظرف المحيط بكثافته الخرقاء اللّزجة.

«وتبدأ حالة الانفصال بين الذات والنفس والفكر، وتنتهي بأشكال متناهية من التكوين الأحادي لكل منها، يتطابق زمنياً مع لحظة المواجهة الحقيقية مع جسدٍ آخر، يكون هو أيضاً في مرحلة المخاض للأشكال المتناهية، لكلٍّ منها رقمه المنعزل.

«تليها مرحلة المقارنة لمعرفة كيفية الاستخدام، وأيها الأنسب للتطابق الوقتي، خروجاً بالمقدار الكمّي المطلوب من الحصيلة المادية.

«وهذا هو السرّ في غريزة البحث الدائم عن الحقيقة... الحقيقة المحصورة بين الذات وبين الآخر، التائهة بين الأرقام.

«ولا تحصل حالة الامتزاج الداخلي إلّا عند إعلان السكون الاختلائي، النهائي، اللارقمي.

«وبين الانفصال والامتزاج، يجري الزمن نهراً من الرماد ـ مع الاعتذار إلى شاعرنا الكبير.»

ما كاد نائل يفرغ من قراءة الورقة حتى أخذ يحكّ رأسه، وبشكل ظاهر، دلالة على حيرته إزاء ما قرأ، وقبل أن يجابهني بأي سؤال عن الجزئيات، دفعت إليه بورقة أخرى كتبتها ظهيرة اليوم، قائلة: «قد تجد هنا مفتاحاً لهذا الكلام ـ وقد لا تجد!»

هزَّ رأسه استمراراً بحيرته، وضحك ضحكة اليأس مني ومن شطحاتي، وقال: «لن يكون مفتاحك أكثر يُسراً في التناول من مغلقاتك!» وراح يقرأ:

«حالة الحياة في المجتمع المجهول:

«مجتمع مسوّر بالخوف والأَسَن. أشباهٌ بشرية تتطاحن من أجل حفنة ألفاظ سطحيّة. لغة التوازن الإنساني معدومة، وحركة الحياة تتولّد في الأحشاء الداخليّة فقط، وحال خروجها لكي تتشخصن وتتأنسن، يُعلن عليها الانغلاق الفكريّ والنفسيّ.

«دورة الافتراس اليومي تتجدّد، وتتخذ الطابع التنويعي، مسبّبة ضعفاً عاماً يزحف تدريجياً، مكتسحاً أمامه بوادر التمرّد، محوّلاً الإنسانيّ من حالة الحركة الظاهرة المتسمة بإنسانيتها، إلى حالة الحركة الآلية المتسمة بفراغها.

«وأخيراً يبدأ هرمون الإحساس بالتضاؤل شيئاً فشيئاً، متخذاً منحدر الهبوط المتزايد، وصولاً إلى قاع المستنقع، مستنقع العبودية.»

وضع نائل الورقتين أمامه وانطلق في كلام لا أذكر إلاّ القليل منه، ولكنه كان كلاماً جميلاً كنت أحدّق في وجهه، في عينيه وشفتيه، وهو منطلق فيه، واهتزّ إلى الأعماق. قال إنني غاضبة، ومتمرّدة، ومعذّبة، ومليئة بحبّ لا يستطيع تحديد نوعه. قال إنني منفصمة، ومهلوسة، وعاشقة، وساخطة على ما في الحياة من كراهية وقسوة. قال إنني لن أرضى عن أي شيء، ومصمّمة على الخروج من الهامش الضيّق المتاح لأدخل في المتن الصاخب المخيف الذي يغريني بأصواته

وحريته. أصحاب الكراهية، قال نائل، يفلسفون البغضاء قوانين وشرائع ومبادىء يتنكّر فيها الشيطان بجناحي ملاك ليقارع الله في عليائه، ويحجب نور الحب بدخان الجحيم. وأنا أرى هذه الدراما بخبرتي المسرحية وكأنها تجري على خشبةٍ عريضة فأقحم كلماتي فيها، سمعني الجمهور أم لم يسمع... وقلت له مرّة أخرى، للمرّة الألف:
«أنا لا أحبّك... أنا أعشقك، أعشقك.»

وأحسست أن كلّ مسامة في جسدي تتحرّق لاحتوائه.

* * *

كان نائل اليوم في حالة شعريّة خاصّة، حالة تأتيه بصور جميلة، لعلّه يختزنها لكتاباته القادمة. ولكنني لا أظنّ ذلك، لأن الكاتب الكبير يرتجل من وحي اللحظة، ولا يعتمد على خزين الذاكرة، رغم أهميته، بقدر ما يعتمد على تصاعد الكوامن العشوائية من اللاوعي وشبه الوعي لديه. والمهم بالنسبة لي أنه يجد فيّ، كما قال اليوم، ذلك الجنيّ الذي يحطّم له الأقفال ويطلق المغلقات التي في ذهنه للرياح كلها.

قرأت له المقطوعة الأخيرة التي كتبتها أمس في المكتب على طريقتي التلقائية. فأخذها منيّ وأعاد قراءتها، ورأيت حُبّه لي رؤية العين وهو يتحوّل إلى كلمات ومجازاتٍ خليقة بشاعر عاشق لا بمحامٍ يكتب الروايات. أتُراني أتملّق نفسي بأن لي هذا التأثير «الجنّي» عليه، كما يزعم؟ اسمعي يا رندة، وكفّي عن النقد والتشكّك والسخرية. قال وهو ينظر في عينيّ ـ وبدا لي لحظتئذٍ جميلاً قوياً على نحو غريب ـ إنني

نقيّة كشعاع من الشمس في يوم أغرقه المطر، منعشة كالمياه الساقطة في وادٍ عميق من على الصخور الشاهقة. . . صورة الشلّال تلازمه، كما تلازمني. هل من معنىٍ صوفيّ لهذا الرمز الغامض؟ مرّر يديه في ثنايا شعري، وكأنه يمشّط خصلاته من رأسي حتى ظهري، وقال وشفتاه لصق خدّي إن الالتفاتة مني، بشعري المسبل هكذا على الكتف والنهدين، تُظْهِر كأنّ الريح هزّت له أعطاف الشجر لتنبئه بحبّ يهبّ على الدنيا كالعاصفة. . . العاصفة فكرة أخرى تلازمه، كما تلازمني. وأجدها تتكرّر في كتاباته بأشكال وأسماء مختلفة. وكلما ثار عشقه معي سألني: هل أنت العاصفة أم أنا؟ فأقول: نحن ملتقى العواصف، وهنا الرعب! وهل أنكر زهوي واختيالي حين قال بعد ذلك عن شفتيّ إنهما بمذاق الثمار التي أنضجتها التلال بشمسها ومياهها، وأسقطتها الريح عامدةً على فمه، لولا أنه، كلما التقم شفتيّ، ونهل منهما، تضاعف الجوع في شفتيه واشتدّ الظمأ. . .

* * *

ناقشته في التراوح الغريب الذي قلت له إنني أرى فيه ظاهرة ربما كانت غير منطقية من ظواهر فكره وأسلوبه: ذلك التراوح في التأكيد مرّة على الزمن دون المكان، ومرّة على المكان دون الزمن. «في يوم ما، في سنةٍ ما، هكذا تبدو كأنك تقول إذا طالبك أحد بتحديد الزمن.» فقال: «قد تظنين أنني أعمّم، وأضلّل. ولكن من حيث الزمن، لا أكثر. أما ما هو غير ذلك، فمحدّد وواضح، تحيط به خطوط فاصلة عازلة. فأنا أحاول أن أقتلع التجربة من سياقها الزمني لأضعها في المطلق. ولكن المطلق نفسه به حاجة إلى مرساة

تشدّه. فيكون المكان بالنسبة لي هو النطاق الذي يمسك بالتجربة من أطرافها، ويلملمها، ويساعد في إبراز كينونتها.»

ولكن في معرض آخر، أو سياق آخر، أراه يقول العكس تماماً: «في مكان ما، في مدينة ما،» ثم يحدِّد الزمن، إن لم يكن باليوم والشهر، فعلى الأقل بالسنة، فيقول: «إن المكان في هذا العصر يمكن أن يكون أي مكان، وبخاصة المكان العربي. وأمّا الزمن فلا بدّ من تحديده، لأنه في تحوّل مستمرّ، وقد يركض ركض المجاذيب. والتجربة إنّما تتجوهر في سياقه. فالزمن - مهما يكن المكان - هو الذي يلقي الاضواء والظلال، يبرز ويخفي، يصدق مرّة ويخادع مرّة، طلباً لإيضاح ما يجري في الحياة من تصعيد وتنامٍ، أو ضمور وتلاشٍ.»

ولما سألته لماذا لا يرضى بما ألفه الناس من الجمع بين الزمان والمكان، ما دام هو قادراً على وضع الأشياء مرّة في منظور زمني ومرّة في منظور مكاني؟ قال: «حالما يجمع المرء بين الزمان والمكان، يفقد المطلق، ويقع في ذلك التخصيص من الصورة والرأي الذي ينكفىء على ذاته، هذا إذا لم يستجلب الإهمال، أو القمع، بشكل من الأشكال. الناس من دأبهم أن يخصِّصوا (إذا توفّرت لديهم القدرة التعبيرية الكافية لذلك)، لأنهم لا يريدون، بل لا يستطيعون، أن يخرجوا عن حدودهم الذاتية التي هي جديلة الزمان والمكان. وأكثرهم، رغم ذلك، إنما يعمّمون هذا الخاص المحدود، ظنّاً منهم أنهم يقتربون من المطلق. وأمّا المطلق فهو الخلاصة الصعبة الحقيقية. هو الشعر. هو الذي يؤكّد الجوهر الإنساني بخيره وشرّه، بكبريائه وسقوطه. فكّري مثلاً، إن كنت تذكرين ما درسته في كلية الفنون،

في مآسي شكسبير التي يتخطّى الإنسان فيها الزمان والمكان، في كل زمان ومكان. فكّري في معظم حكايات «ألف ليلة وليلة». المطلق هو الذي يعجز عن الإمساك به السجّان والسيّاف. ولعلّ هذا المطلق، في خاتمة المطاف، ما هو إلّا محاولة التقرّب من إدراك الحياة وقد غدت مظهراً من مظاهر الكينونة الأزلية، ظاهرة من ظواهر الله. . . وغالباً ما يتبدّى لي أن الحالة البشرية، بكل نقائضها ومآسيها، هي بعض من مظاهر تلك الكينونة الأزلية. إننا بعض من الكوميديا الإلهية، حيث الجحيم أكبر مساحةً ألف مرّة من الفردوس ـ ولو أننا نلمح الفردوس أحياناً، بل قد ندخله مرّةً لنعود فنخرج منه ليُلقى بنا في الجحيم. . . وهذه هي الغربة الأبديّة: وجودنا دوماً خارج الزمان وخارج المكان.»

وبعد صمت قصير استدرك: «طبعاً، هذا لا يصحّ على الناس جميعاً، ولكنه قد يصحّ عليّ، وعليك. ولا فخر. . . أنت ما زلت شابّة، ولكنني أرى العلامة الفارقة في عينيك، في صوتك، في كل كلمة تقولينها أو تكتبينها. نحن نحمل العلامة التي لا يراها إلّا من هم على شاكلتنا: الموعودون بالغربة الأبدية. ولعلّ ما قلته قبل قليل عن نفي الزمان والمكان، يجب أن أصحّحه وأقول إننا، نحن الغرباء، نجدل الزمان والمكان بمفهومنا الخاص، وعلى نحو يعجز عنه الآخرون، فنجعل من هذه اللُّحمة وهذا السَّدى نسيجاً تُنسج فيه، في الوقت نفسه، الرموز والإشارات، ووعي التاريخ متقاذفاً ومستعاداً، ونحيا من خلاله من جديد الأساطير القديمة بكل ما فيها من عنف العشق والموت والمكابرة والتطوّح في مهاوي الجحيم،

ونصنع أساطيرنا الجديدة، مؤكِّدين كل مرّة أننا جزء من حركة الكون وتداخلاته، بأفلاكه وأقماره وسُدُمه جميعاً...»

وعنـدها صحتُ بـين يديـه، ولا أدري أصحت استجابـةً لكلامـه المذهل، أم لقبـلاته اللذيـذة، أم للموسيقى التي كـانت مستمرة من المسجّل ـ سوناتة بيتهوفن للبيانو، الأپاسيوناتـا، التي كانت تضفـر لي الآنيّ والمطلق، وتثير فيّ العقـل والجسـد فـأشعـر أن أحشـائي قـد انشقّت عن كهف لا يروى بما يدفق فيه من طـوفان الحب والنشـوة. صحت بين يديه، وقد أوحي إليّ بأنني أدوّم مع أفلاك الكون لغـير ما معنى أفهمه: «ولكن لمدّة، لمدّةٍ فقط. لهذه اللحظات العاتية الجارحـة التي ما إن تتراجـع حتى يبدو لي أن الزمان والمكان وحشان يتقـاسمان التهامي، فلا يبقى فيّ من سراب إلاّ المـرأة التي أرفضها، وتصرّ عـلى أن تكونني هي، بين أهلي، بين النـاس. ولكن عندمـا أكون معـك، وكذلك عندما أكتب، أنقذف في الفضاءات، وأصنـع أساطـيري على هواي... أتذكر ذلك المساء في كافيتيريا «الأنسـام» عندمـا قلت لك إنني أسبح في الينبوع العـذب رغم البرد، فحـدّثتني عن جوبيـتر وهو يرقب الحوريـة الي جُنّت حبّاً وراحت عـاريةً في الـزمهريـر تغتسل في مياه النبع، فجعل يغازلها برمي قذائفه النارية حـولها؟ بقيت الصـورة في خيالي لا تبارحني، وتذكّرت أيضـاً أن ليدا كـانت تسبح عـارية في النهر، فرأى حُسْنهـا جوبيـتر، وعلى طـريقته عشقهـا في الحال. ولكي يقترب منها دون أن يخيفها، تحوّل إلى بجعةٍ بيضاء تـطفو في اتجـاهها على الماء، كحلم أبيض يتدانى منها... وعـانقت ليدا البجعـة، تلك الروعة الناصعة الغـاوية، واستسلمت لهـا، وأخذتهـا رعشة النشـوة.

وأدركت عندها أن ربّ الآلهة هو الذي جاءها في ذلك الشكل البجعي اللذيذ.. هل أنا ليدا، وأنت البجعة؟»

ضحك، ضحك بمتعة غريبة، ثم همس في أذني وهو يعبث بخصلات شعري: «وثمرة ذلك الاستسلام، أتذكرين ماذا كانت؟»

قلت: «لا، وما همّني.»

قال: «هيلانة، أجمل امرأة في وعي البشرية. وهي التي من أجلها اشتعلت حروب طروادة عشر سنين طوال، واحترقت المدن، وتغيّر مجرى التاريخ...»

قلت: «لحظات العشق الباهظة لا بدّ لها من ثمن باهظ، وتستحقّه...»

* * *

كان لقاؤنا هذا المساء في «الأنسام» الذي جعل النادلون فيه يعرفوننا. وهم أصلاً يعرفون نائل: يعرفون اسمه وكتبه ومكانته. بل إن واحداً منهم، واسمه ذياب، جاء إليه راكضاً قبل حوالي أسبوعين، يطلب إليه نسخة من روايته «جزيرة السمندر»، قائلاً إنه بحث عنها في مكتبات المدينة ولم يجدها. واليوم لم ينسَ نائل أن يأتي إليه بنسخة، فرجاه ذياب أن «يهديها» إليه مع التوقيع، ففعل. وذهب ذياب فرحاً بالإهداء إلى ركنه من المقهى، وبعد قليل فاجأنا برسالة معنونة إلى «الروائي المبدع، نائل عمران»، وفيها يصف إعجابه بكتاباته بصيغة أدبية جيِّدة أدهشتنا كلينا. واعترف لنائل فيما بعد بأنه منذ سنوات يحاول أن يكتب، لولا أن ساعات العمل مرهقة

لا تتيح له متابعة اهتماماته الفكرية كما يشتهي.

وقد حدث مثل هذا في أكثر من مكان ارتـدناه معـاً، وفي أكثر من مرّة جاءه نادل أو ساقٍ بثلاثة كتب أو أربعة من مؤلّفاتـه، وطلب إليه أن يوقّعها لـه. كنت أوّل الأمر أفضّل لو أن أحـداً لا يعرفنـا في هذه الأمكنة، غير أنني جعلت فيما بعد أتبـاهى بأنني السيّـدة (المجهولـة؟) التي ترافق هذا الذي يرمقـونه بـاهتمام، وربمـا يتقولّـون عنه وعنهـا ما يشـاء لهم التقوّل، ولكن مـا عليّ إلاّ أن أحـرّك أصبعي الصغـير حتى يأتوا إليّ راكضين ليخدموني بما أريد. من أجله هو بالطبع.

كان طريفاً، قبل بضعة أيام، ونحن في سيارته في طريقنا إلى دائرة حكـومية عليـه أن يراجعهـا لبضع دقـائق، أننـا وجـدنـا في ركن من الطريق فرناً بلدياً يصنع أقراص الخبز الرقيقة. فتوقّف نائل، قائلاً إن سـالمة كـانت قد وصّتـه بشراء خمسة أقـراص لأكلةٍ شعبيـة تـريـد أن تطبخها له. نزلنا كلانـا إلى مدخـل المخبز، وجـاء إلينا شـاب مبيضّ الوجه والملابس بالطحين، كان يلقم فوهـة التنّور بـأقراص العجـين، وطلب منه نائـل حاجتـه. وما كـاد الخبّاز يعـدّ الأرغفة الخمسـة حتى تأمّل في وجهـه وهتف بفرح: «ألست نـائل عمـران؟ أم أنني واهم؟» فلما أجابه نـائل بـأنه هـو، قال الخبّـاز: «والله لن آخذ ثمن الخبـز!» وجرى بينهما الحوار التالي وأنا أرقب المشهد بمتعة:

- لا، تأخذ!

- حلفت يا أستاذ.

- ولماذا لا تأخذ حقّك؟

- لأنك من الكتّاب الذين أحبّ كتبهم.

ـ ومن هم الكتّاب الآخرون؟

ـ أجاثا كريستي وطه حسين، إلى جانب نائل عمران. يعني هل ترضى أنت أن آخذ نقوداً من أيّ منهم لو جاء يشتري خبزاً من عندي؟ أستاذ نائل، اسمح لي أن أقول لك، إن كتبك عندي هي كخبزي هذا في ساعات التعب والجوع الروحي...

عندما تركناه والأرغفة الحارّة بين أيدينا، علّقنا ضاحكين على المزيج الغريب من الأسماء التي يعجب بها خبّازنا المثقّف. وله الحق فيما يعجب به!

ولن أنسى في أوائل أيامنا معاً، كيف أننا خرجنا مرّة من المقهى وعرّجنا على صيدلية قريبة لأشتري دواءً أحتاجه، وإذا بفتاة قد لا تبلغ العشرين من عمرها تدخل وراءنا وهي تلهث، وتخاطبه بمزيج من الجرأة والحياء: «أنت الأستاذ نائل عمران، أليس كذلك؟» ومع أنني في تلك اللحظة كنت أطلب إلى الصيدلاني ما أريد، فإن أذني التقطت كلمات الفتاة اللاهثة وهي تقول: «العفو، ركضت وراءك لئلا أضيّعك، لكي أقول لك إنني معجبة بك.» فقال مازحاً، كشأنه في مثل هذه المواقف: «تقصدين، معجبة بكتبي.» فأجابت بإصرار: «بكتبك، وبك شخصيّاً.» شكرها، على طريقته الدمثة، وسألها مجاملاً: «اسمك الكريم؟» قالت كذا وكذا (نسيت اسمها)، وفي هذه الأثناء كنت قد دفعت ثمن الدواء، فاستدرت إلى نائل، وأخذته من يده قائلة: «يلّا، نائل.» وأفهمت المعجبة اللاهثة، بنظرة صارمة بعض الشيء، أن «اللقاء» انتهى. وتذكّرت لهاثي وأنا أركض وراءه

يوم التقيته أوّل مرّة حتى كدت أقع على وجهي في المصعد الذي سبقني في الدخول إليه.

أحياناً، في مقهى «الأنسام»، تُعزف على المسجّل موسيقى وأغانٍ عربية وغربية، بصوت يتقصّد مسؤول المحلّ جعله خافتاً، ليبقى خلفيّة مبهمة لا تعوق أحاديث الجالسين. هذا المساء فاجأنا أحدهم بعزف أغنية فرنسية قديمة، ربّما لأول مرّة في المقهى، هي «پليزير دامور». وما كدت أسمعها حتى ناديت ذياب، وقلت له: «أرجوك، أعد عزف هذه الأغنية الأخيرة، وارفع الصوت قليلاً.» فقال بخبث محبّب: «والله أحضرتها من أجلكم.» وذهب إلى المسجّل، وأعاد بثّها بشكل مسموع.

قال نائل، وهو يصغي إليها: «تفهمين الفرنسية جيّداً، طبعاً؟»

قلت: «أفهم كلمات هذه الأغنية على الأقل.»

قال: «لذّات الحبّ، ما أسرع ما تزول، أحزان الحب، ما أطول ما تدوم...»

استسلمت للأغنية، موزّعةً بين لذّات الحب وأحزانه، وقال نائل إنه يرجو أن ينقلب معنا الميزان فتطول اللذّات وتقصر الأحزان. وأجبت بأنني أشعر أن أحزان الحب لها لذّاتها أيضاً، إذا كان لا مفرّ من مجيئها... وحدّثته بما كان قد خطر لي مراراً ولم أجد فرصة لقوله: «قد لا تعلم أنني اكتشفت أن إحدى زوجات عثمان بن عفّان كان اسمها نائلة. فإن كنت أنا بصدفة التسمية من بنات عفّان، فلعلّه ليس من الصدفة أن أنتبه إلى أن اسمك نائل. ونائلة هذه يا

عزيزي، إن كنت قد نسيت التاريخ، هي الزوجة الوفيّة التي أرادت الدفاع عن الخليفة عثمان بن عفان عندما هوجم في غرفته بالسيوف، وحاولت أن تقيه بجسدها، ووقعت ضربة أحد السيوف على أصابعها وقطعتها. . . وقد وجدت أنها كانت شابّة جميلة عندما تزوّجها وهو في السابعة والسبعين من عمره. وبقيت حزينة على مصرع زوجها وهو في الرابعة والثمانين، حتى قالت، فيما أذكر: رأيت الحزن يبلى كما يبلى الثوب، وقد خفت أن يبلى حزن عثمان في قلبي. . . ولمّا كانت من أجمل نساء زمانها، وتزداد فتنةً إذا ضحكت، فقد خطبها معاوية. . . أحزان الحب، ما أطول ما تدوم. . . أتدري ما الذي فعلته نائلة؟ رفضته، وكسرت مقدّم أسنانها المشهورة ببريقها وحسنها، وأرسلتها إليه قائلة: أترى فيّ عروساً بعد هذا؟ نائل، هل ستبقى وفيّاً لي كما فعلت سميّتك الرائعة؟»

أجاب ضاحكاً: «حتى لو قطعت السيوف أصابعي! ولكن، انتظري! أراك قلبت الآية عليّ.»

قلت: «سأبقى أحبّك حتى ولو بلغت الرابعة والثمانين بعد المئة!»

اربدّ وجهه فجأة، وامتلأت تقاطيعه ألماً، ولم يجب وهو ينظر في عينيّ، ثم تكلّم ببطء كأنه لا يريد أن يفوه بما كان يقوله: «سراب، لن تعلمي ما الذي أنت تفعلين الآن بفكري، بعواطفي. تعلمين أن لسهام دوراً كبيراً في حياتي، وأن حزني عليها ـ» ولم يكمل.

فأمسكت بيده، وقلت: «أنا آسفة، نائل. . .» وتذكّرت أن تمثالها في غرفة نومه ما زال في مكانه، آخر ما يرى في الليل، وأوّل ما يرى

في النهار. واعترفت له: «أتعلم؟ جعلت أغار من وجودها ولو حجراً في غرفتك.»

فلوّح بكلتا يديه فوق المائدة بعنف غريب: «لا، لا، سراب. لا تفعلي ذلك. هي التي يجب أن تغار من وجودك في حياتي، من حضورك في كل لحظة في ذهني، في دخيلتي...»

وتمنّيت في تلك اللحظة لو يأخذني في حضنه وأدفن وجهي في صدره وأنا أقول: «أحزان الحب، لذّات الحب، إلى ما لا نهاية...» والتفتّ، وأشرت إلى ذياب، الذي أسرع إليّ، وقلت له: «بحياتك يا ذياب، أعد عزف تلك الأغنية الفرنسية مرّة أخرى. هل من مانع؟»

أجاب: «أبداً، أبداً.»

وملأت المقهى أنغامُ لذّات الحب، موحيةً بأن لأحزان الحب أيضاً لذّاتها، وجابهت نائل بسؤالي: «هل يمكن أن يعشق إنسان هذا العشق كله؟ أم أن الأمر كله وهم في وهم؟»

قال نائل بمكر: «هذا هو الهَيَمان الذي تحدّث عنه ابن حزم الأندلسي، الهيمان الذي يسبق الجنون. عندما أحطّمك بين ذراعيّ، سراب، ألا تكتشفين أن كل شيء حولنا وهم في وهم، إلاّ هذا الذي تتحدّثين عنه؟»

ضحكت: «رحمك الله ياابن حزم... ألا ترى أنني تخطّيت الهيمان ودخلت مرحلة الجنون، ومنذ زمان؟»

* * *

«عبث، عبث، عبث،» راح يـردّد. «هـذا الجهـد المتـواصـل، هـذا العذاب الداخلي، هذه النوازع التي تتبلور كلماتٍ على الورق ـ كلهـا عبث.»

لم أكن أدري مـا به بـالضبط في الأيام الأخـيرة. ولكنه كـان اليوم أكثر وضوحاً في تعبيره. «ما الذي نقدمّه للعالم، أنا وأمثـالي من الذين بعذاباتنا المتوالية جعلنا صلتنا بالوجود صلة كلمات وصور؟»

قلت بحماس: «كل شيء! كل شيء! ماذا يكـون العالم بـدونكم؟ بلا لون وبلا طعم.»

هزّ رأسه غير مقتنع: «نريد أن نعطي الإنسان حقّـه في الكبريـاء، في الجـمال، في الحريـة. ولكن مـا الـذي نحقّقـه من هـذا «العـطاء» المزعوم؟ أمنيـات، مجرّد أمنيـات، مجرَّد أحـلام، إزاء آخرين يشغلون الناس كل ساعة بكل ما يمنع عنهم هذه الكبرياء، هذا الجمال، هـذه الحرية. ألا ترين، يا سراب، أن أهل الحظْر والمنع هم سادة الواقع، هم القابضون على إمكانيات الحياة من أعناقها؟ ما الذي نحقّقه نحن في رؤانا المتمرّدة من مقاومة إزاء هؤلاء الجلاوزة كلهم؟»

فـأجبت بإصرار: «كـل شيء! كل شيء جميـل، كل شيء يستحق أن يعيش الإنسـان من أجله، كـل عـاطفـة رائعـة، كـل سمـوّ عـلى اللحـظة الآنيّة، إنـه من صنعكم. وفي النهايـة، مـا من خـلاص إلاّ ويتمّ عن طريق رؤاكم.»

ابتسم ابتسـامـة السـاخـر من نفسـه، وقـال: «أتمنّى لـو أصـدّق كـلامك. كلنـا نبدأ من الثقـة، ثم نـرانـا ننـزلق في مـزالق الخيبـة،

واليأس، والمحظوظون فقط ينهضون ثانية، ويثبّتون أقدامهم في سيرهم باتجاه إيمانهم الأول، مهما يكن السير. ما أكثر الفنّانين الذين ساورهم الشعور بالإثم، بأنهم إزاء قسوة الحياة وفظائعها لم يحقّقوا ما قد يحقّقه طبيب يقتلع ورماً خبيثاً من جسم مريض، أو سمكريّ يفتح مجرى للماء كان في انسداده تنغيص حياة عائلة بكاملها.»

قلت: «لا، يا نائل، أنا لست معك في شكّك هذا. أنت اقتلعت ألف ورم خبيث في أنفسٍ لا تعرف عَدَّها، ومددتهم بعافية جديدة لن تدرك مداها، وكل يوم تفتح ألف مجرى مسدود يبتلع المياه الآسنة ليفسح المجال لحركة الحياة... لا بأس من أن يساورك الشعور بالإثم، فهذا معناه أن ذهنك نابض، وقلبك نابض، وأحاسيسك نابضة. وأنت في غابة الجلاوزة تخلق في كل جملة تكتبها كميناً لا بدّ أن يسقطوا فيه يوماً، بشكل أو بآخر...»

وحين راح يعبّر عن المزيد من ذلك الإحساس بالإثم والألم، لم أتزحزح عن موقفي. وقلت له (ولو أنه يعرف ذلك دون أن أنصّ عليه) إنني مثل واحد على هذه الأنفس التي يشفيها ويمدّها بطاقة لا يدرك مداها. وقلت له إنني في هذه الأسابيع القليلة التي عايشته فيها جسداً، بعد معايشتي الطويلة له خيالاً، اشتدّ عزمي على ما كان يخطر لي قبل ذلك من خواطر كنت أعرف أنها مغرية ولكنها تبدو غير عملية، بل مستحيلة. قلت له إنني وقعت في حبّه كمن سقط في بئر، فوجد أن البئر تؤدّي إلى بحار من النشوة، لعلّها بحار الجنّة، وعبر هذه البحار سأقلع إلى حيثما تطفر بي خيالاتي الجامحة: إنه يدفعني في الاتجاه الذي بتّ أرى أن لا بدّ لي منه. وهكذا يكون هو منقذي.

قال: «أنا أتحدَّث عن عمل الفنّان، وأنت تتحدَّثين عن الحب.»

قلت: «هما متداخلان، ولا أستطيع تصوّر الواحد منفصلاً عن الآخر. عمل الفنّان بمعانيه الأوسع، والحب أيضاً بمعانيه الأوسع. وبخاصة في كتبك. متداخلان جداً، كالسبب والنتيجة، كالعلّة والمعلول. وكلاهما يدفعان بي دفعاً لن أستطيع بعد اليوم صدّه أو مقاومته.»

وبعد الجدل والمناقشة قال وهو يعصر كلتا يديّ بيديه: «إنني أخشى عليك. أخشى عليك.»

قلت، وأنا أرفع كلتا يديه لفمي، أقبلّهما الواحدة بعد الأخرى: «أبداً، أبداً، حبيبي. ولن أحيا إلاّ من أجلك، أينما كنت أنا، أينما كنت أنت.»

نظرت في عينيه العميقتين، وبدا لي أن شيئاً كالدموع يملأهما. هل توهَّمت ذلك؟ أمسك عندها بوجهي بين راحتيه، على طريقته التي تلذّ لي، وقبَّلني على فمي قبلةً طويلة، ثم ألحقها بأخرى أطول، فقلت له بين تمازج الشفتين في الشفتين: «قطعتَ عليّ حبل أفكاري.»

قال: «وأفكاري أنا أيضاً.» وقبلّني من جديد.

* * *

اليوم، أنا ونائل حاولنا المستحيل: حاولنا أن نحلّل الحب، استجابة الواحد للآخر. فرحة الواحد بالآخر. التعلّق المتبادل الذي يوحي لكل من المحبَّين بأن ثمّة في الجسد روحاً مجنّحة تبدأ فجأة، بعد نومة

طويلة، تخفق بجناحيها وتريد الطيران، والتحليق إلى ذرى كانت في السابق حدساً وإذا بها حقيقة هائلة.

ولكن الجسد شطر أساسي، كما يقول نائل. ويستشهد بما قرأه في «المأدبة» و«فيدروس»، أو ربّما بما يتذكّره من هاتين الحواريتين، قائلاً إن أفلاطون يتحدّث عن أن الحب الإيروسي هو الحب الحقيقي للآخر، لأنه مبني على شخصية الآخر، وتاريخه، وكيانه بأجمعه، ولا يمكن فصله عن الصداقة الحميمة السخيّة، كما لا يمكن فصل الفلسفة الحقيقية عمّا يسمّيه «بالجنون الإيروسي». (هذه النقطة الأخيرة لم أستوضحها تماماً.)

أرجو أنني لا أشوّه كلام نائل، أو كلام أفلاطون، بهذه الخلاصة للحديث الطويل الذي شغلنا ساعات. فبينما يقول الفيلسوف اليوناني ما معناه أن الذهن وحده هو مكمن الحب وطموحه إلى الخير، فإنه يتحدَّث عن هذا الحب بأنه «جنون» الحب. إنه كالشعراء العرب يقرن الحب بالجنون، ويستقرّ بهما في «الجَنان» - الذهن بمعناه الفلسفي؟ - ولكنه يعود ويربط بين الجسد والروح، أي أن الذهن إنما هو جزء من هذه الوحدة المركّبة. فأجنحة الروح معلّقة «بالروح بكاملها، لا بجزءٍ واحد منها. وخطوط الجسد الظاهرية وتضاريسه، حين تُرى لأوّل مرّة، تومىء إلى الروح كوحدة متكاملة، وإلى ما تمثّله من شخصية الفرد وعالمه.

ولكن الروح تكون في حالة جفاف إلى أن يبزغ الحب، فيسقي جذور تطلعاتها، وينعشها. وعند ذاك تستجيب الروح بفرح، وتأخذ في تأمّل استجاباتها الفرحة (كما أراني أفعل الآن؟). وحين تفعل

ذلك، فهي إنما تستعيد للشخص هويّته، تستعيدها من الضباب، ضباب الكثافة التي نعيش عادة فيها، لكيما تتضح غايات الذات الحقيقية...

لا أدري إن كان نائل، أو أستاذه أفلاطون، يحاول بهذا الكلام استقصاء حالتي أنا وفهمها! ويضيف أحدهما أن يقظة الروح هذه، وسقايتها التي تُنهي جفافها، تحدثان لها ككلٍّ متكامل، ولكن بكثير من الاضطراب، والعنف، والحمّى. ولذا، فإن الذهن وحده لن يحرّك الحب في أي اتجاه. إنما المهمّ هو في ما يجري من تفاعلات فيه وحوله: تفاعل بين التطلّع وبين الرغبة الإيروسية، وتفاعل هذين الاثنين مع الدهشة والمودّة المتصاعدتين تجاه الآخر. هذه هي محرّكات الحب التي لا بدّ منها. والجمال الجسدي، في خاتمة المطاف، يوجّه الروح في تحليقها نحو عالم الأشكال المثالية التي ما حياتنا إلاّ من ظلالها...

لا أعرف مقدار ما ساهمت به في هذا التحليل، غير أنني كنت أحسّ أنني أنا موضوع هذا التحليل، صائباً كان أم خاطئاً. وإذا كنت أنا الموضوع، فنائل هو الشقّ الآخر في موضوعي هذا، حيث يخيّل للواحد منّا، في لحظات التجلّي، أن الجسدين جسد واحد، والروحين روح واحدة، وما الفصم بينهما إلاّ من عمل الخالق الذي حرّك الكون حين حرّك النصف نحو النصف، وجعل لالتقائهما زلزلة اللذّة الجنونية.

* * *

بعد حديثنا المستفيض أمس عن الجسد والروح، تساءلت اليوم،

وأنا أتذكّر أيضاً آلاف المرّات التي سمعت وقرأت فيها كلاماً عن الجسد والروح: هل، فعلاً، لكل انسان أراه وأخاطبه وأتعامل معه روح بهذه الصفات، بالإضافة إلى ما أشاهده أمامي من جسده، وأسمع من صوته؟ هل لكل من المديرَيْن عندنا، شريف الترك وعبد الرحمن المولى، وهما يتنقّلان كالمكوك من مكتب إلى مكتب، روح تستكين، وتنبض، وتسقيها تجربة ما فتنتفض وتنتعش، ويتحرّك جناحاها، فتحلّق؟ هؤلاء العشرات الذين أراهم كل يوم يغامرون في الصفقات المالية، ومشاريع التفريخ والفنادق، وإنتاج اللبان والشوكولاتة، وبناء العمارات العديدة الطوابق، هؤلاء كلهم، هل لكل منهم روح قد تَخْفُق أحياناً بحبّ يثير فيها الفوضى الرائعة والحمّى العنيفة، فتنسيهم حاجاتهم الآنية، وتدفع بهم في منعرجات من الذهول، أو تصعد بهم في معارج يرون فيها رؤىً ويحلمون بما لا يحلمون به في منامهم، ويسمعون أصواتاً من عوالم أخرى تقلقهم على غير ما يَقْلق الجسد وتطالب الغريزة؟

هل تساهل أفلاطون مع البشرية أكثر ممّا ينبغي، فتحدّث عن الروح كأنها هبة الله لكل من يمشي على الأرض؟ سأثير هذا الموضوع مع نائل، وسأقول له إنني، بكل تواضع، أرى أن الروح التي قد تتحوّل بغتةً إلى نار آكلة، لا توجد إلّا في أولئك الذين يصفهم هو بأنهم الموعودون بالعذاب والغربة والنشوة والخلق، تلك القلّة التي أرادها الله، لحكمةٍ منه، قريبةً إليه، بكل لذّاتها وأحزانها، وتقصّد أن يميّزها بقلّتها وفرادتها.

* * *

قبل أيام، في «الهوليداي» عصراً، عرّفني نائل على عبد الله الرامي الذي لمحنا في المقهى فجاء ليسلّم علينا، وأصرّ نائل عليه بالجلوس لشرب فنجان قهوة. وكان نائل قد حدَّثني عنه أكثر من مرّة، وبمقدار وشكل أثارا فضولي واهتمامي، وعبّر عن سروره بأن توفَّرت لنا الفرصة للتعارف. قال إنه نازل في الفندق لبضعة أيام. وجدته رجلاً مرحاً، سريع النكتة والاستجابة، ومع ذلك فإنه يصغي بتركيز، فتبدو عليه أمارات الجدّ لدرجة التجهّم.

أمس، دون أن أعلم نائل، قرَّرت الاتصال به تلفونياً. وهذا الصباح خطفت رجلي حوالي الظهر، وذهبت بسيارتي لرؤيته في مقهى الفندق.

الفكرة هائلة! ولكن عبد الله لا يريدني أن أبحث الموضوع بأي شكل من الأشكال مع أي إنسان.

سيتوضّح الأمر بعد عودته في الشهر القادم.

الفكرة هائلة ـ ومقلقة.

سأعطيها المزيد من الوقت والتأمّل.

* * *

جميلٌ هو اسمُكِ،
وأجمل منهُ
جسمُكِ.
زهرةٌ أنتِ
استوحدت في البراري

على السفوح
وفي العوالي،
حيث الأمطارُ
والشّموس والزوابع
لا تُنبت إلّا
أندرَ ما يصنعُ الله ـ
مثلَكِ !
قوامُكِ تلعةُ صخرٍ:
ارسلي الشّعر عليها
ينابيعَ ليلٍ
يستحمّ بها وجهي،
وشفتاي على
شفتيكِ
وهما كوردةٍ
برّيّةٍ أخرى
فيهما الرحيقُ
مذاقُه الأمطار
والشموس والزوابع،
وليلُ شعرِكِ
يحيط بي
كليل البراري
حيث لا يوجد
إلاّ الله ـ

متمثِّلاً في اسمكِ،
وجسمكِ،
وعشقك!

غاب عنّي ثلاثة أيام في متابعة قضية استدعته إلى مدينة في الشمال، ولم يستطع أن يتصل هاتفياً لرداءة الخطوط، وجاءني بهذه القصيدة التي قال إنها نزوة منه شغلته في الأماسي التي قضاها وحده غريباً في الفندق. فليس من عادته أن يكتب شعراً، تاركاً نظم القصائد لطلال صالح. وأصرّ على احتوائي بين ذراعيه، لكي يقرأها لي قراءةً «حسّية»، كما قال. ولمّا فرغ من أدائها على طريقته، قلت: «إذا كانت قصيدتك تكفيراً عن خطيئة غيابك، فقد غفرت لك. ولكن لا تحسب أنني سأغفر لك كلما غبت، مهما جئتني بقصيدة. ومع ذلك، غب إن شئت، فأكتب لك أنا القصائد... أتضحك؟ غداً، أو بعد غد، سآتيك بقطعة شغلتني في اليومين الأخيرين. أتسمّيني «زهرة استوحدت في البراري»؟ أنا فرس بربرية جمحت في فيافيك المترامية...»

* * *

أيّ صباح رائع كان صباحي اليوم! كان الحرّ شديداً عندما حملتني سيارة الأجرة إلى حيّ جنين، حيث كان نائل ينتظرني، كالعادة، في أول المنعطف المؤدّي إلى الحيّ، ولّما نزلت من السيارة شعرت أن الشمس تنقضّ عليّ انقضاضاً، ريثما أعبر الشارع المزدحم بالبشر والعجلات، وهو يرقبني من على مقعده في سيارته الزرقاء في الناحية الأخرى، وبي إحساس سفينةٍ يمخر بها ملّاحها بين الصخور ببراعة

وحـذر ليبلغ بها برّ الأمان. ودخلت إلى المقعـد بقربـه، وكـأن النـار أُضرمت في جسدي، لأجدني في وسط بـارد الهواء، وقـد جعله نائـل ينطلق على أشدّه من مكيّفة السيّـارة. كانت يـده باردة حـين أمسكت بهـا، وخدّه بارداً حين مسحتـه بقبلة سريعة، وهـو يقول: «مـا أحـرّ شفتيـك! لو مسّـك حجـر مسّتـه سَرّاءُ.» قلت: «تقصـد، لـو مسّني حجر مسّته حَرّاءُ... بي من الحرّ مـا يكفي لحرق مـدينة بكـاملها.» قـال وهـو ينـطلق بنـا: «من هنـا تبـدأ القصـائـد، من هنـا تبـدأ الحرائق...»

كلانا ترك عمله غير آسفٍ هـذا الصباح، فـانقطاعنـا الواحـد عن الآخر يوماً واحداً كافٍ للتمرّد عـلى واجبات الـدنيا كلهـا، فكيف إذا كـان الانقطاع ليـومين اثنـين؟ آلاف الأشياء تـتراكم، آلاف الفِكَـر، آلاف الكلمات، آلاف الأحساسيس، ولا بدّ لها من منفذ تنـطلق منه معـاً إلى حيث المزيـد من الأشيـاء والفكـر والكلمات والأحسـاسيس. ولتـذهب مكـاتب التجـارة إلى الجحيم، ومعهـا مكـاتب المحـامـين، ومكاتب الوزارات، ومكاتب الدلاّلين والسماسرة. وعندما أوقف نائل السيارة في مكان ظليل من المرآب، وقد قاربت الساعة الظهيرة، نزلنا إلى الشمس الحـارقة نخـترقها في اتجـاه مدخـل «الهـوليـداي». وقـال ضـاحكاً: «من الـذي أشعل الحمم في الشمس اليـوم؟» أجبت: «أنا وأنت، مَن غيرنا؟»

سرنا نحو المشرب، مستشعرين برودة المكان المعتم التي أنستنا حمم الشمس، واتجهنـا نحو مـائدتنـا المفضّلة في الزاويـة العليـا البعيـدة، وليس ثمّـة إلاّ ثـلاثـة أشخـاص أو أربعـة، لا نعـرفهم، جلسـوا

متباعدين، كلّ منهم في عزلة موحشة ظاهـرة، يشربون البـيرة. أنا لا أشرب البـيرة، ولا أشرب الكحول الأخـرى، ومن عـادتي أن أطلب كـأساً من الببسي كـولا مع ثلج كثـير، فيسايـرني نائـل ويـطلب مثلما أطلب. هذه المرّة، حالما جلسنا، قلت: «جئتك اليوم بقصيدتي.»

ـ أخيراً، أخيراً! وستقرأينها لي. ولكن، لماذا رفعت شعرك؟

ـ لشدّة الحرّ.

ـ وتقرأين لي قصيدتك وشعرك مرفوع؟ أبداً! سترخين شعرك على كتفيـك، وتؤطّرين قـراءتك بـأروع مـا خلق الله! هيّـا، إلى الحـمّام، وعالجي الموقف بسرعة.

ـ إذن لن نشرب الببسي اليوم، بل النبيذ.

ـ بل أجود النبيذ.

ـ كأس واحدة فقط، هه؟

ذهبت إلى الحـمّام، وحللت شعـري المشـدود، وأرخيتـه كـما يحبّـه نائل، ومشّطته، وعدت بعد دقـائق لأجد نـائل يحـدّق بي وأنا أقـترب منه، وكأنه يريـد أن يلتهمني بعينيه. جلست دون أن أنـطق بكلمة، وهـو مازال يـرنو إليّ ولا يحيـد ببصره عني، صامتـاً، منفرج الشفتـين حتى قلت له: «ماذا؟ ألم ترني من قبل؟»

قال ببطء، وهو ينفث دخان سيكارته: «أبداً. كل مرّة أراك فيها، هي المرّة الأولى.»

فضحكت، مستـذكرة قصيـدة طلال، وقلت: «هس، لا تبـالـغ! هل طلبت النبيذ؟»

ـ سيأتي بعد لحظات. أين القصيدة؟

ـ أَقبْلَ أن تقام المراسيم، وتُدلق الخمر على التربة الحمراء؟

عندها جاءنا الساقي بكأسين كبيرتين من النبيذ الأحمر، لكل كأس عنق رفيع مرهف يحمل كرة الخمر بخُيَلاء وأَلَق. حتى ملمس ذلك العنق الزجاجي كان كله غواية، أحسست بها تسري في أصابعي، ومنها إلى ذراعي وصدري. وكانت الرشفة الأولى، وأنا أنظر إلى نائل وهو يرشف من كأسه، تأكيداً على ما يسري في جسمي من لذّة مصفّاة أوحت إليّ بأنني شخصية أسطورية في مسرحية إغريقية... رندة الجوزي! لن تعرفي هذه اللذّة الراعبة جسداً وذهناً معاً. إيّاك أن تتدخّلي في لحظاتي هذه بعقلك ومنطقك المرفوضين! أنا لست من أهل الأرض في هذه اللحظات. انظري إليّ، واسمعي كلماتي وكلماته، واسكتي إلى الأبد!

أخرجت القصيدة من حقيبتي، واقتربت من نائل ما استطعت، جاعلة خصلات شعري ستارةً بيننا وبين الآخرين، وأخذت جرعة عميقة من نبيذي، ورحت أقرأ، همساً، صراخاً، لست أدري، وأتوقّف بين حين وحين لأسعف نفسي بجرعة أخرى:

لم تكن لي عروش أو قصور... كان لي رأس
وجسد... ويوم أقتات منه أحلامي
وكنوز ثروتي... بركانُ عشقٍ لو تفجّر
لدفن حُبَّ العالم في قعرٍ لا يدركه قياس البشر.
جئتُكَ فرساً بربريةً موشومةً بالطبيعة،
وخُطاي نحوك قَدَرٌ رسمته عرّافة بابلية.
جئتك، وأنت هناك معلّقٌ بجدار أفقك،

وعيناك حدوتا فرسٍ مسمّرتان
فوق شفتيك كتميمةٍ. . . تتحدّى الشرّ الآتي!
أيَّ زمنٍ طرقتُ معك؟ أيَّ بحر دخلت؟. . .
وأحلامي مراكب تائهة
تجمع زَبَدَ عشقي العائمَ في ظلك،
فعشقي لك ليس إلاّ أسطورةً مجهولة
اغتربت ألف عام على ضفافك المنعزلة،
ولم تُختتم حتى بخطوطك الوهميّة. . .
وكانت تنتظر.
وانطلقت صفّارة التوقيت، في لحظة كانت
لا تزال فيها نوافذ الاعتقال الداخلي مغلقة،
يتسرّب منها بصيصٌ من نورٍ باهتٍ
يولد في لحظة ويموت في أخرى.
وبدأ الانطلاق!
وأصبح الزمن عديم الملامح،
عديم الحدود. . . وخرجتُ فرساً برّيةً
تحصد المسافات بقفزاتها الجنونيّة،
تخبّ نحو صخور هاويةٍ ما ألذّ الموتَ فيها
إن كانت هي الطريق إليك،

وهي تصهل عبر أرضٍ كالجمر، تكبو
وتعثر في الظلمات، لتنهض
من بين الصرخات وتعلو البطاح

وتطوي الغيوم بأحلامها التي بدأت
تنزف ندىً يتساقط على زهور حقلك المنتظر!
وتحوّل نبض العالم في قلبي إلى
شلّال أبديّ من عشقك،
وجنوني الطفولي يمرح
بخَلْجٍ دافىء يتعابث في طيّات اغترابك. . .
وامتزج العشق والفجر ليكتسحا ذيول ظلامٍ
عشّش تحت أجنحة روحك،
وأعلن كلاهما التحدّي!
والتحدّي والصراع هما لغة المسافة بيننا،
وحبّي المتوحّش يسبق الخطوات،
وساحاتك تتلوّى التواء الأفاعي، وتتلولب
حول قدميّ، لتتحوّل إلى دوائر،
وبدورها تتوالد الدوائر،
وأنت كأرجوحة إيقاعية في رأسي
تتوالى فيها صورتك،
وأسوارك تتناوب وتتزاحم
مع عدّ الزمن التنازلي
لتتلاشى مع المسافات، وتتحوَّل
إلى معتقل وخط نهاية:
تشكيلين رائعين للوحة مؤطَّرةٍ
بطوق النهاية
لفرسٍ بربريةٍ موشومة. . .

«هائل، هائل،» همس وهو يطفىء سيكارته في المنفضة، ويأخذ جرعة كبيرة من نبيذه الذي كان قد نسيه في أثناء تلاوتي. ثم أخذ الاوراق من يدي، وراح يقرأها من جديد بصوت خفيض مسموع، وخصلات شعري ما زالت تتأرجح كستارة تعابث الريح وتفصلنا عن العالم، وأنا أصغي إليه، متسائلة: هل أنا كاتبة هذا الكلام الذي، إذ أسمعه من شفتيه، يوحي إليّ بمزيدٍ من معانٍ لم أكن أعي أنني صاحبتها؟

وقال أخيراً: «إن كنت حقاً تعنينني أنا في قصيدتك هذه، فإنني رجل لم يُعشق في الدنيا رجل مثله. أما أنت، فأكبر عاشقة وضعت بعضاً من جنونها في كلمات!»

ونخب تلك الكلمات بالذات، شربنا ما تبقّى في كأسينا.

وعندما اتجهنا نحو قاعة الطعام لتناول الغداء (وهل كان لي إلاّ أن أرحِّب بتلك الزيادة من المتعة، في أمرٍ لم يبق فيه أصلاً مجال لزيادة، مهما يحتجّ والداي على تأخّري وغيابي ساعة الغداء عن البيت، ويكثرا من المساءلة والاحتجاج؟) شعرت وأنا أسير إلى جانب نائل عمران طوال الردهة، ثم الرواق المؤدّي إلى المطعم، أنني لست فرساً موشومةً فحسب تصهل عبر الهاويات والبراري، بل مع هذا الرجل أنا براري الدنيا وهاوياتها ومدنها جميعاً. . . واسكتي يا رندة! هذه تجربة لن تفهميها. ولا تسأليني أين جلسنا، وماذا أكلنا، لأنني والله لا أذكر. ولا أذكر كيف اقتادني نائل بعد ذلك من خلال حمم الشمس إلى السيارة وقد انحسر عنها الظل، وكيف قبّلني فيها وهي في حرارة الجحيم، وكيف أوصلني أخيراً إلى البيت قبيل الرابعة،

والكل في انتظار عودة سراب من وظيفتها الظالمة. ولم ينقذني منهم إلاّ انطلاقي نحو الحمّام، ونزع ثيابي بسرعة، والوقوف عاريةً تحت الدوش الذي، رغم حرّه هو أيضاً، أعاد إليّ يقظتي ووعيي. ومن الحمّام رأساً إلى الفراش، والنوم الأسود العميق.

* * *

كيف أكتب عمّا حدث؟ كيف أكتب عن تجربة مؤلمة ومقيتة معاً، مثيرة للحزن وللغضب معاً، تجربة أُقحمت فيها كما بمخالب شيطانية تريد تمزيق أحشائي وأنا في القمة من فرحي وسعادتي؟ وأمس مع نائل، كان قمّة من قمم حياتي: الحرّ اللاهب، العتمة الباردة الغاوية، الشِّعر الجنوني، النبيذ الذي كانت كأس واحدة منه تكفي رمزاً للذّات الحب التي تسمو على كل تجربة، وحديثنا المتداخل وكأننا في غيبوبة الدراويش التي وصفها نائل، ونحن لا ندري ما الذي نأكله في مطعم «الهوليداي»، ولا ما نحن نقول، غائبَيْن في دوران النشوة الإلهية...

جئت إلى المكتب في الصباح، سادرةً في حلمي المستمر، وبي إحساس عميق بعذوبة كلِ شيء أراه، كل شيء أمرّ به، كل شيء أسمعه. عذوبة هائلة تكشَّفت عنها الأشياء أينما التفتّ، وأنا على موعد مع نائل عصر غدٍ (أردته عصر اليوم، ولكن أعماله لا ترحمه أحياناً). وكنت رقيقة جداً مع اسماعيل الذي جاءني بفنجان القهوة وكله ابتسام، وكنت رقيقة جداً مع الأستاذ عبدالرحمن، ومع ثلاثة مراجعين، وأوراق العمل تنساب بين يديّ انسياب الجدول الصافي. وانتصف النهار، واقتربت الساعة من الواحدة، حين خرج المدير،

وبرفقته اسماعيل، وقلت سأقضي الساعة المتبقية في طبع صفحة أو صفحتين على الآلة الكاتبة، في محاولة للإمساك ببعض ذلك الوهج المتبقّي بعد انحسار اللهب.

عندها دخلت عليّ السيدة تالة الترك، ولم أكن قد رأيتها منذ أشهر، ولو أنني كلّمتها هاتفيّاً بضع مرّات كانت فيها دائماً كثيرة اللطف والدماثة. استقبلتها بحرارة، وإحساسي بعذوبة الناس والأشياء مازال طاغياً فيّ، ووجدتها جميلة جمال الأنوثة الناضجة، وفستانها الصيفيّ يؤكّد حسن ذوقها في اختيار ما تلبس، وفي أذنيها قرطان رهيفان، وحول عنقها قلادة ثمينة يشعّ بعضها على بشرة صدرها، وبعضها على ياقتها الزرقاء العميقة القصّ، وهي تحمل حقيبة يد زرقاء أنيقة. ولكن كانت تبدو عليها سيماء الحرّ الذي جاءت من خلاله لزيارتي في تلك الساعة من يوم قائظ.

بعد أن جلست، واقترحت أن آتيها بشراب بارد، أو بفنجان قهوة أغليها أنا، متوقّعة تبادلاً منعشاً لما أنا فيه من إشراق داخلي، رفضت أن تشرب شيئاً. وبدا لي أنها تتأمّلني بعينين قادحتين: تتأمّل وجهي، وجسمي، ويديّ، وأنا أخبرها بأن زوجها لم يحضر اليوم، وأن المكتب ليس فيه أحد سواي. وتهيّأت ذهنياً لإعلامها عن تطورات حقل الدواجن الذي لها فيه معظم الأسهم. غير أنها بعد عبارتين أو ثلاث من المجاملات المألوفة، فاجأتني بسؤالها: «سراب، أين كنت أمس؟»

لم أفهم قصدها، وقلت متضاحكة: «في هذه الدنيا.»

ولكن شيئاً من العبوس بدا في ملامحها، وقالت: «لم تأتي إلى

المكتب أمس. غبت عن عملك، أليس كذلك؟»

ـ آه، صحيح. انشغلت.

ـ بماذا؟ بمن؟

ـ نعم؟ بشؤوني الخاصة، ست تالة.

ـ أين تناولت الغداء؟

هبّ فجأةً في داخلي لسانٌ من نار، ولكنني تمالكت أعصابي (فلعلّني مخطئة في ما خطر لي في تلك اللحظة)، وقلت: «أراك مهتمّة بي كثيراً اليوم؟»

قالت بجفاء: «لست مهتمّة بك، كثيراً أو قليلاً. ولكنني مهتمّة بالرجل الذي كنت معه. رأيتك مع الدكتور نائل عمران في مطعم «الهوليداي».

ـ صحيح؟ ولكن لم أرَكِ أنا، ولا رآك الدكتور نائل عمران. مع من كنت؟

ـ غير مهم أن تعرفي.

ـ إذن لماذا تريدين أن تعرفي أين كنت أنا، ومع من؟

ـ اسمعي، حبيبتي سراب. تصرّفك ليس في مكانه.

ـ بل هو في مكانه، جداً. كنت مع رجل رائع، في مكان رائع، وتصرّفنا ـ إن كان لا بدّ أن تعرفي ـ كان رائعاً.

ـ أين تعرّفت به؟ في هذا المكتب؟

ـ أبداً. بل هو لا يعلم أنني أعمل في مكتب يعرف فيه أحداً منكم.

ـ ما الذي جاء بك إلى نائل؟ ما رأيته منكما أمس كان فظيعاً.

كيف أقمت علاقةً معه؟ كيف خطر لك أن تفكّري، مجرّد أن تفكّري، بإقامة علاقة معه؟ أتعرفين من هو؟ إنه أكبر من أبيك، ولكنه أيضاً أكبر من وجودك كله. هل ظننت أنك تستطيعين استغلاله؟ كيف تصوّرت أنك تستطيعين أن تمدّي يدك إلى قامته، أن تقفي بجانبه، أن تخاطبيه كما رأيتك تخاطبينه أمس طوال الغداء، كأنه عشيقك؟

نظرت إليها صامتة، وقد أذهلتني بعصبيتها، واضطرابها، وتحاملها عليّ. لو كان نائل زوجها، لفهمت معنى ذلك الغضب، أو تلك الغيرة. في حين أنني لا أذكر أن نائل ذكرها لي أكثر من مرّتين أو ثلاث، وكانت إشارته إليها دائماً عابرة، وتوحي بآثار عاطفة انطفأت منذ زمان. ولكن يبدو أن العاطفة، في هذا الطرف الآخر، لم تنطفىء تماماً. وتذكّرت يوم سألتها عنه فقالت إنه منزوٍ يرفض أن يرى أحداً. لعلّه كان يرفض أن يراها هي؟ ثم، هل كانت تعلم أن زوجها الأستاذ شريف لن يكون في المكتب في تلك الساعة، فجاءت إليّ فيها لتقول ما تريد بمطلق حريتها؟

لسان النار الذي هبّ في داخلي، غدا الآن ألسنة نيران، ولكنني لم أجبها، وأنا في انتظار أن تتوقّف عن تهجّمها. غير أن صمتي زاد من ثورتها، وأخذ وجهها يتغيّر من الوردي، إلى الأحمر، إلى الأصفر، ولولا أن شفتيها كانتا مصبوغتين بكثافة لرأيتهما في تلك اللحظات زرقاوين جافّتين.

«يمتدحك أهل المكتب،» قالت: «وهم لا يعلمون أية عاقّة مستهترة هم يربّون. . . لعلّك تريدين أن تدّعي أنك مخطوبة لنائل؟

أو أنـك تزوّجتـه وانتهيت؟ أنت لا تعلمـين أنني اتصلت مسـاء أمس بأخته سالمة، وعرفت كل شيء. اسمعي، هذه علاقة يجب أن تضعي حدّاً لها، اليوم، الآن. ولن أتردَّد في الاتصـال بوالـدك الدكتـور علي عفّان، وإعلامه بما أعرف.»

عندها انفجر غضبي، ونهضت على قدميّ، وصرخت في وجهها: «كفى! كفى! لك أن تغاري مـا شئت، لك أن تتقـوّلي كيفما شئت، لك أن تتطاولي بمـا شئت، ولكن ذلك كله لن يغـيّر شيئاً من عـلاقتي بنـائـل. . . أنت تتـوهّمـين أن عمــلي في مكتبكم يخـوّلـك الحق فـي التدخّل بحياتي الخاصّة، ولكي أضع حـدّاً لوهمـك هذا، أرجـوك أن تأتي، وتجلسي مكاني، وتتسلّمي المكتب، بقضّه وقضيضه. . . وها أنا ذاهبـة إلى البيت، ولن تروني هنـا مـرّة أخـرى. وإذا كـانت لـديكم أسئلة، فلكم أن تتصلوا بي بالتلفون. . .»

بُهتت تـالـة، وأمسكت عن الكــلام وهي تـراقبني أتحـرّك وألملم أغراضي بسرعة هوجاء، وأخرج أوراقي الخاصة من دُرْج منضدتي في بضعة ملفّات زرقاء. ثم قذفت على المنضدة بحلقة من المفاتيح تتعلّق ببعض خـزائن المكتب، وتناولت حقيبتي في النهـايـة، دون أن ألتفت نحو تالة التفاتة أخيرة، كأنها غير موجودة، وخرجت، وأغلقت الباب ورائي.

وإذا هي، وأنا مسرعة في اتجاه المصعد، تخرج في إثري، وتقـول: «سراب، سراب، اسمعيني، أرجوك. . .»

غير أنني لم أجبها، ولم ألتفت نحوها، وفي داخلي مراجل تغلي، إلى أن حضر المصعد، فدخلته، وتركتها في الدهليز.

حين استقرّ بي الجلوس في سيارتي، أمسكت بالمقود بيدين ما تزالان ترتجفان، ولم أتحرّك، وأنا أفكّر: «ما أفظع الغيرة! وما أروع أن أحبّ نائل، فأثير هذه الزوبعة من غيرة امرأة أخرى!»

وفجأة، انتفضت في صدري غيرتي أنا: «لا بدّ أن بينهما عاطفة غير التي أعرف. وإلّا، فكيف تثور تالة هذه الثورة الهستيرية، وهي متزوّجة وأم أولاد؟ أم أن الحب القديم أيضاً جرح لا يلتئم، وسرعان ما ينزف؟ وما همّني؟ نائل! أين أنت؟ أين أبحث عنك في هذه الساعة؟»

أسرعت في عودتي إلى الدار، لأتصل به في المنزل، فلم أجده. وفي المكتب، فلم أجده. وأخفقت في الاتصال به حتى هذه الساعة.

* * *

لي غريمة إذن، وربّما غريمات، وأنا لا أدري؟

ولي رقباء، وعذّال، وأنا في غفلتي، أفعل ماأفعل وأكتب ما أكتب؟

كانت الساعات منذ ظهيرة أمس حتى لحظة لقائي بنائل عصر اليوم، ساعات جحيميّة. لم أخبر أبي أو أمّي بتركي العمل، ولمّا عجزت عن الاتصال هاتفياً بنائل أمس، قررّت اليوم ألاّ أحدّثه هاتفياً عن تالة إلى أن نلتقي.

طبعاً، لم يغمض لي جفن الليلة البارحة. ولكن عوّضني عن ذلك حديثي مع نائل في الصباح الباكر قبل أن يذهب إلى مكتبه. كان كالعادة حديثاً قصيراً (يريد أن يكون صوتي أول ما يسمع في

الصباح. وماذا أقول أنا عن صوته؟)، وأكّدنا موعد اللقاء في ملتقانا المفضّل «الأنسام».

وسبقته إلى المكان. ولما دخل ورآني جاءني، أكاد أقول، راكضاً. وقبل أن يدنو ذياب منّا، قال نائل: «ماذا؟ ألم تنامي البارحة؟»

فضحكت (أول ضحكة لي منذ ظهيرة أمس)، وأنا أقول: «هل انتقلت العَرافة إليك؟ هل قرأت وجهي بهذه السهولة؟»

قال، وهو كعادته يركّز عينيه في عينيّ وشفتيّ كلما اشتدّت به العاطفة: «أتظنين أن وجهك يستطيع أن يخفي عنّي شيئاً له علاقة بنا؟ ثم إنني هذا الصباح، بالتلفون، هجست بأن صوتك مضطرب، على غير عادته.»

جاءنا ذياب، وطلبنا قهوتنا العزيزة، وما كاد يبتعد حتى ألقم المسجّل كاسيتة «پليزير دامور» (آه، لـذّات الحب، أحزان الحب...)، وقال نائل، قبل أن يتيح لي أن أفتح موضوع ما جرى أمس: «سراب، حبيبتي، أريد أن تنسي تالة وحديثها معك، وكأنه لم يكن.»

ضحكت مرّة أخرى، ولو بمرارة: «هل قرأت هذا أيضاً في وجهي؟»

فأجاب مبتسماً: «طبعاً... أتريدين الصدق؟ تالة اتصلت بي أمس في المكتب. اتصلت مساءً، وكنت على وشك الخروج. ولم أكن قد سمعت صوتها منذ زمان. وما قالته كان سخيفاً، ومرفوضاً. وقلت لها ذلك بالحرف الواحد، أنت لا تعرفين قصّتي معها، سراب.

القصّة قديمة، والغريب أنها لا تريد لهذه القصّة أن تنتهي. وكان تدخّلها وزيارتها لك، من قبيل الغيرة المجنونة التي ما فارقتها يوماً، منذ أن تزوّجتُ صديقتها سهام، ولم أتزوّجها هي... اغفري لي هذا الكلام الذي أشعر أنه لا يليق بي أن أخوض فيه، وبخاصّة معك. لماذا لم تخبريني أن أحد أصحاب المكتب الذي تعملين فيه هو شريف الترك؟ بإمكاني أن أوصي بك، ولو أنك في غنىً عن التوصية. بعد وفاة سهام، تقصّدت الابتعاد عن تالة وشريف، رغم صداقتي لشريف أيضاً. لأن ما بدر من تالة باتجاهي، ولا سيما في السنتين الأوليين، كان يقلقني ويزعجني.»

فقلت: «أهكذا يتورّط معك كلّ من يحبك؟»

- لا، لا. ولكن تالة من النوع الذي لا يرضى برفض، ولا يقنع بأمر واقع. غنيّة ومدلّلة منذ أن فتحت عينيها على الدنيا. وزاد غناها، مع الزمن، وبقيت كالطفلة المدلّلة التي، إذا أرادت دميةً، أقامت الدنيا ولم تقعدها إلى أن تحصل عليها. كانت تلميذتي لفترة، أيام كنت أحاضر في كلية الحقوق، قبل عشرين عاماً، ونشأت بيننا علاقة ما في تلك الأيام، قبل أن ألتقي بصديقتها سهام.

- أي أنها لم تحصل عليك كما أرادت، وما زالت مصرّة على متابعة رغبتها المهزومة؟

- وإلّا، فكيف أفسّر تصرّفها؟ أرجوك، سراب، انسي موضوعها... وعودي إلى عملك.

- مستحيل! أأعود إلى العمل في مكتبٍ تملك معظمه امرأة تراني غريمة لها في حبّك؟ ثم أنا، أصلاً، في غنى عن الراتب السخيف

الـذي كنت أتقاضـاه. ولم أعمل إلاّ ضـد رغبة أبي، طلبـاً للتسليـة، وربما للقاء الناس.

ـ ما أسهل أن تجدي أي عمل آخـر إن شئت، ولا سيما بمعـرفتك الانكليزية والفرنسية. من أين جاءتك هذه المعرفة بهذا الاتقان؟

ـ من تربية الراهبات، كما أخبرتـك مرة فيـما مضى. كانت دراستي الابتدائية والثانوية في معظمها في مدرسـة «القلب المقدّس» للراهبـات الكاثوليك. وكان التأكيد عندهن دائماً على إتقان اللغات، بالإضافة إلى المـوسيقى. لقد أُجـبرت، تصـوّر، أُجـبرت عـلى تعلّم العـزف عـلى البيانو، ورقص الباليه مرّتين في الأسبوع، لسنوات.

ـ وقضيت سنتين في انكلترا أيضاً؟

ـ نعم، أيام أخذ أبي العائلة معه، ليـمارس الجراحـة هناك، طلبـاً لعضوية «جمعية الجرّاحين الملكية»، الـ «أف. آر. سي. اس». ولكن ولعي الحقيقي كان دائماً بالمسرح، وهو ولع تصاعـد معي أيام دراستي في لندن، وكنت على وشك دخول «مدرسة الفنـون الدراميـة» هناك، عنـدما قـرّر أبي العودة، بعـد حصولـه عـلى العضـويـة التي أرادهـا. فـالتحقت هنا بكليـة الفنون. . . في يـوم ما، نـائل، أريـد أن أمثّـل لك، لك أنت وحدك، مقطعـاً من دور أوفيليا في «هـاملت». أوفيليا وقد جُنّت. . . أستاذ الدراما الـطيّب الذكـر، منذر فـاضل، بثقـافته الفرنسية، كان يتمتّع بشكل خاص بتمثيلي دور أندروماك وهي تتوقّع مصرع زوجها هكتور، في مسرحية راسين. . .

وغمـرني في تلك اللحظة إحسـاس فاجـع بأنني مـزيج من أوفيليـا

وأندروماك، دون أن يكـون لي أب هو وزيـر مهذار، ولا زوج أحبّـه يريد منازلة أخيل.

ثم أخـبرته كيف أنني تمتّعت بـدور سونيـا في «الجـريمـة والعقـاب» المسرحة عن رواية دستويفسكي. ووصفت له تلك اللحـظة الممزّقـة الهائلة، عندما يخرّ راسكـولنيكوف عـلى ركبتيه، وينحني أرضـاً ليقبّل قدميّ، أنا سـونيا المـومس المسلولة، المعـدمة، ويقـول: «إني أذ أقبِّل قـدميك، أقبِّـل فيك الإنسـانية المعـذّبـة. . . » كنت أحسّ أنني فعـلاً خـلاصة الإنسـانيّة المعـذّبة، وأنني المرأة العـربيـة التي تمثّـل عـذاب الإنســان وبؤسه في كـل مكان. وقلت: «إنها أبـأس مخلوقٍ على وجـه الأرض.»

فقال نائل: «والذي أرى هو أنها مقبلة على زمنٍ ستكون فيه أكـثر بؤساً وعذاباً، إن هي لم تتدارك أمرها. . . »

تحـدّثنا كثيـراً هذه الليلة، واستـطردنا في كـل اتجاه ـ شكـراً لتالـة وغيرتها المهووسة. وفي النهاية قال نائل: «عديني، سراب. . . »

ـ بماذا؟

ـ بثلاثة.

ـ أولها؟

ـ أن تمثّـلي لي مشهداً من دور أوفيليـا، واستغـلّي شَعـرك بـروعتـه كلهـا. أتصوّر أن أوفيليـا، عندمـا جُنّت، راح شعرهـا يـطير في كـل اتجاه.

ـ كعقلها، تماماً! وثانيها؟

ـ ما زلنا في الوعد الأول. لأنني أريـد أن أراك تمثّلين أيضاً مشهـد سونيا الـذي وصفته الآن، لأكـون أنا معـك راسكولنيكـوف، فأقبِّـل قدميك، وأقبِّل الإنسانية المعذّبة فيك.

ـ غداً، في المكتبة في دارك...

ـ والوعد الثاني، أن تعزفي لي قطعة لموتسارت عـلى البيانـو. وإيّاك أن تتهرّبي، أو ألاّ تجيدي العزف!

ـ سأبدأ التمرين حالاً... والوعد الثالث؟

ـ أن تعودي إلى العمل.

كدت أصيح عنـدها: «لا، مستحيـل! لن أعود إلى العمـل ـ» ثم استدركت: «إلاّ اذا أردتني أن أعمل سكرتيرة عندك، وبغير راتب.»

ـ بل براتب.

ـ وقدره؟

ـ دخلي كله!

ـ ولكنني أنذرك بأنني سأفسد عليك أعمالـك، وأخربط قـوانينك. وإذا وكّلتك امرأة جميلة بقضية، أثرت لك من المشاكـل ما لا تعـرف حتى تالة نفسها كيف تثيره.

ـ رضيت، والله العظيم!

ولم يهن عـليّ في تلك اللحظة المتـوهّجة أن أذكـر موضـوع رحيـلي الذي كنت قد بـدأت أرتّب له دون علمـه. (خشيت منذ البـداية أن يحاول منعي بطريقة ما، وأنا ما زلت أصلاً متردّدة بعض الشيء.)

فجـأة، قال: «سراب، اتـركي سيارتـك في مكانها، ولنـذهب إلى «الهوليداي»، فنتعشى هناك. ما رأيك؟»

ـ هائل! على عناد تالة!

ـ وإذا تأخّرتِ قليلاً هذا المساء في الرجوع إلى البيت؟

ـ إلى حينها، يفرجها ربّنا، ربّ العشّاق جميعاً.

وهكذا كان. وكان عشاؤنا في «الهوليداي» هذه الليلة في روعة غدائنا أول أمس. وتلفّتْنا حولنا هذه المرّة، وأنا أرجو الله أن أرى تالة في ركن من المطعم ترقبنا بعين العذول، وتختنْق غيظاً. ولكنها لم تكن هناك.

وكان الله رؤوفاً بي. عدت قبيل الحادية عشرة لأجد أن العائلة لم ترجع بعد من النادي. وها أنا الآن، بعيد منتصف الليل، أسمعهم يدخلون مبتهجين. ولسوف يسألونني: لماذا لم تأتي إلى النادي؟ انتظرناك، ولعبنا البنكو، وربحت ماما طاقماً من الكؤوس الكريستال، ومعه أيضاً مبلغ خمسين ديناراً!

وبودّي لو أقول لهم: أمّا أنا فقد ربحت الكون كله!

* * *

اليوم، كنت حذرة جداً عندما أعلمته بأنني قرّرت الرحيل. ذكرت له الأمر أولاً كأنه فكرة خطرت لي منذ مدّة ولم أعطها حقّها من التمعّن. فظنّ أنني أداعب الفكرة مجرّد مداعبة، كأمنية يتمنّاها أي إنسان، وهل أجمل من السفر، أينما كانت وجهته...

حين أدرك أنني جادّة قال، مداراةً لي: «فلنسافر معاً. لشهر أو شهرين.»

ولّما قلت: أريد أن أرحل، لسنين، ربّما لغير رجعة، دُهش.

رفض أن يصدّق. وقال فجأة: «اسمعي! فلنتزوّج. ثم نـذهب لشهر العسل إلى سويسرا، أو انكلترا.»

لم يفهم قصـدي، طبعاً. وقلت: «أتـريـدني أن أتـزوجّـك؟ غـداً أتزوّجك، إن أنت أردت، وأكون أسعد امرأة في الدنيا. ولكن الذي عزمت عليه لا علاقة له بالـزواج. بل إن الـزواج يكون هـو العائق. أريد أن أرحل، تحقيقـاً لرغبـة عميقة لا أستـطيع شرحهـا. . . لأنني أحبّـك. أريد أن أرحـل وأنا في ذروة الـوهج من حبّي لـك، وحبّك لي.»

لم يفهم. رفض أن يفهم. ولم أجـرؤ عـلى ذكـر السبب الحقيقي الذي من أجله أريد الرحيل، مصمّمـةً على عـدم البوح بـه، التزامـاً خاصّاً، قد لا أتساهل به إلاّ إيحاءً قبيل مغـادرتي. ومرّت بي لحـظات خشيت فيهـا أن تطغى فكـرة زواجي منه عـلى قراري الـذي وعدت نفسي بألاّ أتزحزح عنه.

ماأسهل أن أرجع عن قراري، لو تساهلت مـع نفسي! نائـل، ما أطيب حبّي لك، وما أصعب الاستمرار بقراري!

* * *

بعد تردّد، وتوجّس، وخوف من الفضيحـة، وحساب لمـا سيقولـه البعض، قرّرت أمس أن أضرب بهذا كله عرض الحائط، وأقبـل بأن أكـون المرأة الـوحيدة في حفلة العشـاء الصغيرة التي أقـامها نـائـل في منزله، وقصرها، كما قال، على «أحبّ أحبّائه فقط» : طـلال صالـح وعبـدالله الـرامي. ولم أكن أعلم إن كـانت أختـه سـالمـة ستشـاركنـا

الأمسية، ووجدت أنها تفضِّل أن تهيّىء كل ما هو ضروري للعشاء، بمساعدة أم هادي، ثم تنسحب إلى غرفتها. ولست أدري حتى الآن ما الذي تراه في علاقتنا أنا ونائل، وأتجنّب سؤاله عن ذلك، متعمّدةً تجاهل الموضوع: فهي إمَّا أن تتحمَّس لي، وإمَّا أن تحسبني امرأة طائشة لا أعرف حدّاً لطيشي، وكلا الأمرين لا أريد أن أسمع شيئاً عنه.

كانت أمسية حافلة بالشراب، والطعام، والنقاش، ولن أستطيع أن أستعيد إلاّ القليل مما قيل ونوقش. لم أشرب إلاّ الماء القراح، ولم أتناول من الطعام إلاّ قطعة صغيرة من اللحم مع الكثير من السَّلطة، والزيتون الفلسطيني الأخضر الذي من عادة نائل أن يأتي به عن طريق عمّان. وعند الختام كدت أقترح أن أغلي القهوة لنا جميعاً (صار للقهوة بيني وبين نائل مغزى طقوسي)، لولا أن أم هادي كانت أسرع مني، فجاءتنا بالشاي أولاً، وبعد ذلك بالقهوة التي، والحمد لله، تجيد صنعها.

كان الحديث سلساً، ينساب من موضوع إلى موضوع، ولأول مرّة رأيت نائل في سياق الآخرين، لأدرك براعته في النقاش، وثراءه في الرأي والمعرفة كلما تكلَّم. وكان ظاهراً أن المتحدّث لا تتجلّى قريحته إلاّ بوجود متحدّث متجلّي القريحة معه: فإذا أردت أن ينطفىء المتحدّث، فأحضر إليه غبيّاً يحاوره. ولا أنكر أنني، مع ثلاثة من أمهر المتكلّمين، فزعت أولاً، ثم نسيت فزعي وأحسست أن ذهني، ولساني، باتا يتحرّكان على صعيد لم أكن أتصوّرني قادرةً على إدراكه. غرور؟ ربما. ولكنني أعرف متى «يسايرني» الآخرون دماثةً، فلا يتحدّون ما أقول، ومتى ينتبهون إلى كل كلمة أقولها ويجابهونني - كما

يجابهون غيري ـ بالغربلة والتخيّل، فأجد لـذّة في الخلاف معهم، أو الاتفاق.

كنت المرأة الوحيـدة بينهم، ولكنني كنت أيضـاً واحـدةً منهم، يخاطبونني كما يخاطب كلٌّ الآخر، أو هكـذا تصوَّرت. يعـاودني الفزع بين حين وحـين، إذ أراني أخوض في قضيـة لم أعتد الخـوض فيها من قبل ـ ومع من؟ ولكن نائل، وكذلك طلال وعبدالله، كانوا يتقصّدون ألّا يُشعروني بأنني فتاة غريرة، في نصف عمر أصغر واحد فيهم.

كان طلال مليئاً بالنكتة ـ من أجلي. وهـو يحتلّ مكـانة خـاصّة من نفسي، لأنه الشاهد على أولى لحـظات اللقاء الأول بيني وبـين نائـل، ويتصرّف معي على نحو يؤكّد ذلك، ويؤكّـد أيضاً أنـه معجب بي لأن نائل يحبّني. وقد قال منذ البداية إنه، عندما علم أنني سأكون موجودة في ذلك المساء، احتار بين أن يحضر لي وردةً أو قصيـدة. فلمّا قلت له إنه في حل من وعده، لأنه وعـد مشروط بزيـارتي له في مكتبه، زعم أنه وعد غير مشروط إلّا بأن يراني، أينما كانت الرؤيـة! فقلت: إذن، بما أنك لم تأتني بوردة، فأين القصيدة؟

قال: «ولكن ليس الآن.»

فصاح عبدالله: «بل الآن، قبل أن تنتهي من كأسك الأولى.»

وألحّ نائل: «ولتكن غزلية جداً.»

فأخذ رشفةً من كأسه، وأبقاها في يده، ونظر إليّ، وكأس المـاء في يدي، وقال دون الرجوع هذه المرّة إلى أية ورقة:

انسيابُك الرقراقُ هذا

أقول: ما أحلاهُ!
إني لأهواه.
فتقولين: خذ الحَذَر،
سَل الطُّوفان المدمِّرَ أما
كان يوماً
مجرَّد سيلٍ آمنٍ
ينساب في مجراهُ؟
انسيابُك الرقراقُ هذا،
أكرِّر: ما أحلاهُ،
ما أنقاه!
ولكن،
والطوفانُ المدمّرُ شيمتُهُ
تقولين:
عليك أن تخشاه!
أأخشاه وأنا السعيدُ
ولو غريقاً
في الموج من هواهُ؟
بدَفْقِهِ تُخصب الدنيا
وتونع الأعضاءُ عشقاً
من ذَوْق لماهُ. . .
ربّاهُ،
ما أسلسه،
ما أعنفه،

وما أحلاهُ!

فرحت جدّاً بالقصيدة، واستبدّ بي دافع للقيام والرقص في الغرفة بخطوات الباليه التي تدرّبت عليها أيام دراستي الابتدائية والثانوية، لولا أن نائل وعبدالله، كليهما، أبديا إعجابهما صياحاً وهتافاً، ورفعوا جميعاً كؤوسهم يشربون نخبي، حتى أحسست بأنني حقاً أميرة، فنهضت، وانحنيت لهم انحناءة «الكيرتسي» الأرستقراطيّة اعترافاً بإعجابهم. وقال عبدالله بمزيد من المغالاة المستحبّة: «والله يا جماعة، لو كنّا عرباً أصلاء لوجب على كلٍّ منّا أن يشقّ قميصه طرباً في هذه اللحظة ـ طرباً لما سمعنا، ولما رأينا، ولما نرى!»

فضحك نائل قائلاً: «ذكّرتني بقصّة الجاحظ عن ذلك الذي شرب نبيذاً وسمع شعراً، فشقّ قميصه من الطرب، وقال لمولى كان إلى جانبه: أنت أيضاً، ويلك، شُقَّ قميصك!»

تساءل عبدالله: «وهل شقّ المولى قميصه؟»

أجاب نائل، مسترسلاً في ضحكه: «لم يكن المولى عربياً أصيلاً، لأنه قال: والله لا أشقُّ قميصي، وليس عندي غيره. فقال سيّده: شُقَّه يا رجل، وأنا أكسوك غداً! فردّ المولى: إذن أشقّه غداً. . . فقال السيد: وما أصنع أنا بشقِّك له غداً؟ قم، أغرب عن وجهي! . . . واستمرّ يهزّ رأسه طرباً، ويشقّ ما تبقّى من قميصه.»

وفي وسط ضحكنا جميعاً، قال عبدالله: «على ذكر شقّ القمصان، تعرفون قصّة ذلك الرجل الذي أخفق في الحب، وفي العمل، وفي الزواج، حين رآه صديقه وهو يلطم صدرة ويشقّ قميصه، كمداً هذه

المرّة. فسأله: ما بك يا رجل؟ قال: انتهيت الآن من قراءة فصل في هذا الكتاب عن تناسخ الأرواح. فاضطربت، وهلعت. وكلما فكّرت في الأمر زاد اضطرابي وهلعي. فسأله صديقه: لماذا؟ فأجاب: لماذا؟ لأنني أخشى بعد الموت، عندما أعود إلى الحياة الدنيا من جديد، كما يقول هذا الكتاب، ألاّ أُعطى كياناً آخر، بل أعود إلى شخصيتي الحالية مرةً أخرى. . . يا للمصيبة، يا للمصيبة! واستأنف لطم الصدر وشقّ القميص. . .»

قلت: «ولكن إليكم هذه القصّة الحقيقية التي جرت معي أنا. في سيارة الأجرة التي حملتني هذا الصباح، وجدت أن سائقها يلبس نظّارة ملوّنة، على غير عادة سائقي التكسي عندنا. نظر إليّ في مرآة الرؤية الخلفية، وقال: العفو، سيدتي. هل لاحظت نظّارتي الملوّنة؟ هل هي طبيّة؟ لا، للشمس فقط، وألبسها غوايةً، كي أبدو مهمّاً. صرت لا أستطيع نزعها. . . ووراءها قصّة. في محلّتنا يسكن في البيت المقابل لبيتنا سائق تكسي، مثلي. عندما بدأت ألبس هذه النظّارة، أو بعدها بيومين أو ثلاثة، اشترى له نظّارة مثلها تماماً، وجعل يلبسها. فقرّرت أن أنزع نظّارتي لبضعة أيام، فنزعها هو أيضاً. عدت إليها، فعاد. . . غريب! قبل أن أقتني سيارة الأجرة هذه، لم تكن لديه هو سيارة. اشتريتها، فاشترى سيارة مثلها. بعد مدّة، جاءتني صفقة مربحة، فبعتها. وإذا هو بعد مدّة يبيع سيارته. بقيت بلا عمل، فبقي بلا عمل. . . أخيراً اشتريت هذه السيارة، وهي كسابقتها «تويوتا»، واستأنفت العمل. وبعد أيام، اشترى هو أيضاً سيارة، واستأنف العمل. ولكن سيارته هذه المرّة «لادا» قديمة

بائسة. ولا أشك قطعاً في أنه سوف يستبدلها قريباً بـ «تويوتا». أنا الآن ألبس هذه النظّارة الملوّنة، وهو مثلي الآن يلبس نظّارة ملوّنة... هل هو ظلّي؟ هل هو بديلي؟ ما رأيك يا سيّدتي؟ وما قولك في البشر وطبائعهم؟»

قهقه نائل: «فكرة هائلة! الشخص الذي هو ظل، أو صورة مرآتية، لشخص آخر، ولكنه لا يعكس شكله فقط، بل أفكاره أيضاً، إلى أن يقع الظل، بسبب الأصل، في ورطة لا يستطيع الخروج منها، لأن الشخص الآخر، الأصل، غائب عنه... أتتذكّرون قصة غوتيه «تلميذ الساحر»؟»

آه، نائل! ما أندر السَحَرة الأساتذة، وما أكثر التلامذة المقلّدين!

واستمرّ الحديث، متراوحاً بين الدعابة والجدّ، وأخذت في هذه الأثناء نصّ القصيدة من طلال، وتحدّث عبدالله عن تطورات القضية الفلسطينية كما يراها هو، ووعدني بكمية من الزعتر الفلسطيني «مترعاً بعبق جبالنا وصخورنا»، قال، «وإكراماً لذكرى جدّتك المقدسية». وصمّمت في تلك اللحظة على الاتصال به حثيثاً لمتابعة الأمر الذي بات يهمّني أن أحسمه قبل أن يعود إلى كوبنهاغن، وألمحت له بذلك دون إثارة انتباه الآخرين، وأومأ لي بالموافقة.

وروى لنا نائل تفاصيل غريبة عن قضية آل سيفي ـ قضية ميراث فيها عشق، وأبناء شرعيون وغير شرعيين، وزواجات متناثرة بين القُطر وباريس ونيويورك، ومطالبات متضاربة بالتركة الضخمة، والموزّعة في أكثر من بلد، وعليه أن يفرز أصحاب الحق الشرعي عن غيرهم... العشق، ما أكثر مشكلاته! ومرّت بي لحظات تصوّرتني

فيها وقد ولدت لنائل ولداً غير شرعي، ورحنا نتنازع على تربيته. رهيب! لماذا غير شرعي؟ قلت لنفسي. لماذا لا نتزوّج وننهي المشاكل؟ أم أن العشق شيء والزواج شيء آخر وليس لهما، كالشرق والغرب، أن يلتقيا؟

ولسبب ما تذكّرت تمثال سهام في غرفة نوم نائل، وصورتها الزيتية في الغرفة التي نحن فيها، ترى هل كانت تتابع ضجيجنا وضحكاتنا وحكاياتنا، فتتعذّر بالموت والغياب، وتغفر لنا كل شيء؟ وتأكّدت في تلك الهنيهة أنها ستغفر لي، أنا على الأقل، ما أنا فيه من عشق، وقلق ممزّق. ولعلّها تزداد رضاً عني كلما عرفت مدى ما أعانيه من الحالتين معاً، ولا سيما القلق الممزّق.

* * *

طلبت إلى عبدالله الرامي ألّا يخبر نائل بشيء من أي ترتيب يتمّ بيننا. طبعاً، لم أكن بحاجة إلى توصيته بذلك، فهو المتكتّم الأول، وأكّد ضرورة ألّا يعرف أحد بعلاقته هو في هذا الموضوع، وألا يعرف أحدٌ، حتى أقرب الناس إليّ، حتى والداي، بتحرّكاتي بعد الرحيل. كنت أخشى من أن نائل، رغم أنه سيتحمّس للفكرة كفكرة، قد يعود فيرى أن بقائي هنا، ومعه، هو الأهمّ، فيلحّ على عدم سفري، ويجد عشرات المبرّرات لذلك. وقد تأثّرت جداً، قبل يومين، حين عاد إلى موضوع الزواج، فقال إنه يعلم بفارق السن بيننا، ولذا فإنّه لن يصرّ على الزواج بأكثر مما ينبغي، حفظاً لقدرتي على النظر في الأمر موضوعيّاً - آه من هؤلاء الحقوقيين المنطقيين! - لولا أن حبّه لي يوحي إليه، بل يؤكّد له، بأنه سيجعل مني أسعد امرأة في الوجود، ولذا فإن

من حقّه أن يصرّ، ولكنه، حبّاً بي، يريدني أن أُوليَ الأمر تفكيراً «عميقاً». ولكن هذا التفكير «العميق» قد لا يتحقّق عندي وأنا في هذه الحالة المستمرّة من الحب. لست أدري كيف أقنعه بأن الزواج لم يكن يوماً همّاً من همومي، وأني ما زلت على تصميمي القديم بأن أخرج من الحصار، وأقاتل مع تنظيم كنت منذ عشر سنين أحلم بأن أنتمي إليه، تأكيداً على إعجابي ببطولة هؤلاء الذين يتحدّون قوى الظلم والظلام الوافدة من الخارج، وتأكيداً في الوقت نفسه على إنسانيّتي في هذا الانتماء: صخرة أخرى من صخور القدس، زيتونة أخرى في جبل الزيتون، كما كانت تقول جدّتي خديجة.

* * *

يوم بديع لم يكن بالبال، في البستان الكبير الذي يملكه نائل مع إخوته على بعد ثلاثين كيلومتراً خارج المدينة ـ مع أشجار البرتقال والليمون ودوالي العنب، والعنب ما زال يتدلّى عناقيد، مع أشجار التفاح والمشمش والإجّاص والكمثري... شوينا دجاجاً على نار من حطب، وأكلنا في ظلال الأشجار، وغافلنا الفلّاح الطيّب أبو كاظم لنبقى في غزل متقطّع متواصل، حتى غروب الشمس... وكدت أقتنع بفكرة الزواج والبقاء ـ الزواج وعدم الرحيل. تعب لذيذ يحتضنني، يخدّرني. إنه الحب، والشمس، والسماوات المفتوحة... تعال يا نوم وخذني إلى حيث تشاء...

* * *

مُنى عيساوي، لماذا تسكنينني هذين اليومين بهذه الحدّة؟

«كانت غرفتها تطلّ على البحر، وكانت موفّقة في اختيارها شكلاً

وموقعاً. فبوسعها الآن أن تجلس لساعاتٍ قرب النافذة العريضة، وتفتح زجاجها، وتصغي مغمضة العينين إلى اندفاع الأمواج وتراجعها، هديرها ووشوشتها، فتسلم نفسها للصور الغريبة الهاربة أبداً عبر ذهنها: نتيجة سنينٍ من المطالعات والكتابات والتغلغل في طوايا الماضي البعيد. وفي نسيج تجاربها المتداخلة تداخلت أيضاً شخصيات خيالية كثيرة حتى كادت، في لحظات التعب، أن تعجز عن التمييز بين الواقع والحلم. كان ثمة أحداث تذكرها، فلا تعرف على وجه التأكيد إن كانت قد وقعت بالفعل، أو أنها بقيت واستطالت في ذهنها من الكتب التي قرأتها، أو كتبتها. أعَرَضٌ مَرَضيّ ذلك، أم أنه تقادم العمر؟ آه، ولكن حياتها كانت، في يوم مضى، حياة رائعة، عرفت فيها المغامرة والخطر، وعرفت الحب. عرفت الألم الفذّ الذي يسبق، ثم يلي، تحقيق الذات في أعماق التجربة وأوارها. من دَرَكات الفقر والشظف انبجست، وصعدت إلى قمم من الشهرة غير متوقّعة. وقد تعلّق بها ولاحقها أدباء مرموقون، وناشرون معجبون، وعشّاق شباب، وشيوخ ماجنون. ما أشبه ذلك كلّه بحكاية من تلك الحكايات القديمة التي تتحرّك بالمستحيلات! وهي إذ استلقت في كرسيّها قرب النافذة، تطيل النظر إلى البحر المترامي على مدّ البصر، وهو يغير ألوانه كل لحظة، وخيول الزبد لا تكلّ من التراكض والتلاشي، راحت تتساءل: هل ما زالت الشابّة التي عرفتها في نفسها قبل أربعين سنة هي ذاتها الآن، مستلقية في مقعد وثير قرب نافذة في غرفة بفندق مشرفٍ على البحر: امرأة تمازج فيها الحلم واللاحلم فلا ينفصل الواحد عن الآخر، امرأة ما عادت الأشياء تحمل لها من مغزى سوى أنها بين الحين والحين تشعّ دفئاً فجائياً من

جمالٍ لا يُفسَّر. وما عادت الأشياء تجري جريان الماء، بل هي الآن تختصّ وتتقاذف وتتناثر، وعليها أن تنتظر بكامل يقظتها تلك اللحظة البارقة التي يأتيها فيها إدراك مباغت للجمال، فتكتسب الأشياء شكلاً ومعنى. وعندها تغوص في حدث من أحداث الماضي، وترى امرأة في مقتبل العمر، في أوائل عشريناتها، تَنْظم حركتها كالخيط من خلال حشود الناس، مشدودة الشفتين ثابتة العينين، باتجاه محطّة كانت قطاراتها كلها رموزاً للوعد، والحب، لأن الرجل الذي تحب ينتظرها في مكان لا تدركه إلاّ القطارات، وهو ينتظرها ليحدّثها بأمور مثيرة، ويشركها في أشياء مثيرة، ليس لها أن تحدس بها إلاّ حدساً مبهماً. وبعد أن تمّ قول ما قيل، وبعد أن تمّ فعل ما فُعل، بعد أن تبلورت الصور الغائمة في تجربة حسّية وذهنية لها حدودها واشعاعاتها، عادت إلى حياتها ومشاغلها وكتاباتها، وتجدّدت الشكوك: تلك الأمور كلها، هل وقعت فعلاً، أم أنها اختلقتها؟ وحده مرور الزمن جعلها تعرف يقيناً أنها وقعت، لأن ذكراها بقيت، ولأن لها أن تستعيدها كلها واتاها الحظ، بأضوائها وعتماتها، بضوضائها وسكناتها، قبل أن تدركها نهاية سوداء لا تستعاد فيها صورةٌ تُرى، ولا كلمة تُسمع...»

هذه منى عيساوي كما وصفها نائل وهي في أيامها الأخيرة. وقد قلت له إنها تسكنني هذه الأيام من جديد، بقدر ما أقلقتني وتلبّستني بتفاصيلها الأخرى عند قراءتي «الدخول في المرايا» لأول مرة قبل أشهر. هل هي محرّضتي الداخلية على ماحدث؟

قال نائل إنني سلخت عنها أربعين سنةً من حياتها، وجعلت أمثّلها وهي في ريعانها، في كل حركة من حركاتها، في كل إيماءةٍ من

إيماءاتها. وكـان جوابي أنني بعـد أربعين سنـة سأراني مثلهـا في غرفـة كبـيرة تطلّ عـلى البحر، ربمـا في إحدى مـدن الخليج في يـوم شتـائي مشمس، ومثلهـا أستسلـم لهديـر الموج ووشـوشته، فتعـبر بي الصور، وتختلط الـوقائـع والأحلام، ولعلّني عنـدئذ أحيـا بها من جـديد قبـل النومة الأخيرة.

ـ ولكن أين محطة القطارات في حياتك هنا؟

ـ أنت لا تدري أن محطة القـطارات تحوّلت عنـدي إلى رصيف في أول منعطف شارع جنين، فجعلت أمرّ به عمداً في سيارتي ذهابـاً إلى شؤوني في المدينة وإياباً منها، مع أنـه ليس بالضبط عـلى أقصر الطرق إلى دارنـا. أصبح الشـارع نفسـه، المنعـطف نفسـه، رمـزاً للوعـد، للحب.

وأدهشني عندها أن يقول نائل: «حسبت أنني وحدي أفعل ذلك ـ كالمهابيل!»

ـ أترى؟ ليس من مخرج إلّا الرحيل. رحيلي أنا.

ـ متى ستكفّين عن هذا القول؟

ـ عندما أكفّ عن حبّك.

مازال صعباً عـليّ أن أحدّثـه عن خطّتي بـأي تفصيل، فضـلاً عن أنني مكلّفة بالتكتّم، والتكتّم أيضـاً صعب معه. أخشى إن أنـا حدّثتـه عنهـا أن يحـاول أن يثنيني بصـورة مـا، كـما يفعـل بـالحـديث عن زواجنا كلما أشرت إلى الموضوع. وقال اليوم إنه لا يفهم هذه الناحية التناقضية في تصرّفي، ثم أضـاف مازحـاً: «هذا فيـما عدا ألف نـاحية أخـرى فيـك لا أفهمهـا. هـل ستبقينني أعبـد سـرّاً لا يُفهم؟» ثم

استدرك: «اغفري لي هذه المغالطة. أديان البشرية كلها بدأت بعبادة الأسرار التي لا تُفهم.»

فضحكت، مستمتعةً بهذه الفكرة، وقلت: «هُس، لا تبالغ... وقل لي: من هي منى عيساوي هذه؟ وكم مُنى في حياتك جعلت منها كاهنةً لا تُدْرَك أسرارُها في وثنيّاتك؟»

راوغ في الجواب: «كاهنة اليوم، بكلمتين من شفتيها الريّانتين، ألغت لي الوثنيّات الأخرى كلها...»

* * *

سألني قبل يومين عن رندة الجوزي، قائلاً إنني ما عدت أذكرها له، وهل السبب هو أنني، لانشغالي به، انصرفت عن لقائها؟

زعمت أنني بالفعل، لانشغالي به، ما عدت أرى رندة بالكثرة السابقة، تجنباً للجدل معها في أموري الشخصية، غير أنني مازلت أعدّها أقرب الناس إليّ، وأراها بين حين وحين، أو «نتهاتف». وقلت له، سأجعل رندة تخابره مساء اليوم التالي، إذا كان في المنزل بعد الساعة العاشرة. يبدو أن رغبة المعابثة المعهودة عاودتني. وهل أستطيع إلاّ أن أعابث من أحبّ؟ ترى ماذا يقول فرويد في مثل هذا الضرب من الغزل؟

وهكذا تلفنت له مساء أمس، ولخوفي الشديد هذه المرّة من أن لا أفلح في التمويه عليه، بالغت في تغيير صوتي ولهجتي، وتصوّرتني السيّدة المعذّبة في مونودرامة كوكتو التي صوّرها في فصل واحد وهي تتحدّث إلى سمّاعة الهاتف، وهات يا ستانسلافسكي طريقتك المقنعة، ولو صوتاً فقط.

ولـذا فإنه حين ردّ عليّ وبدأت الكـلام دون أن أذكر لـه من أنا، ثم سـأل من أنا، لم يصـدّق أوّل الأمر أنني رنـدة الجوزي. ولكنـه لم يقل أيضاً إن صوتي هو صوت سراب وإن تكن أفكاري أفكار رندة.

قلت: «نسيت صوتي، أستاذ، لأنني لم أخابرك منـذ زمن طويـل. ولكن سراب أصرَّت عـليّ اليوم بـأن أتصل بـك. وأنا أشكـرك لأنك سألتها عنّي، وأرسلتَ إليّ سلاماً معها، مع أنك لم ترني قط.»

فجـاملني بالقـول بأن أيـة صديقـة لسراب سيحمل لهـا هو أيضـاً مشـاعر الصـداقة، حتى ولـو كانت مجـرّد صوت بـلا صورة. فقلت: «ولكنني صورة أيضاً.»

ـ راضيـة أم عابسـة؟ أخبرتني سراب أنـك حين تعبسـين تشبهـين العفريت.

ـ طبعاً، لأن دماغهـا محشوّ بـالعفاريت، ويلذّ لهـا أن ترى واحـداً منهم رؤية العين بين حين وآخر. ومهما يكن من أمر فإننـا سنلتقي يومـاً وأترك الحكم لك. المهـمّ أن سراب هذه الأيام لا أفهمها.

ـ بعد تعارفنا أنا وهي؟

ـ نعم، ولا أكتمك أن وضعها يؤلمني أحياناً.

ـ لماذا، ست رندة؟

ـ كنت في السابق أحذِّرها منك، فتسخـر مني. والآن أراها تـائهة في وديانٍ لا أعرف طريقي فيها معها.

ـ وهل ما زلت تحذّرينها مني؟

ـ وما الفائدة؟ أنت لا تعلم كيف تعقّد الأمر بيني وبينها. منذ أكثر من عشر سنـوات، منذ وفـاة جدّتهـا المرحـومة خـديجة، اتفقنـا عـلى

التعاون في الأزمات. فإذا وجدتها متهوّرة ومقبلة على فعلٍ طائش، كبحتها، وأرجعتها إلى العقل. وإذا وجدتني مبالغةً في الرزانة والانسحاب من مشكلات العيش، جرّتني خروجاً من قوقعتي العاجيّة لأجابه مشكلات الواقع بجرأة الأبالسة. والعكس بالعكس، طبعاً. غير أننا بمرور الزمن أصبحنا أشبه بقطبين، أحدهما موجب، باندفاعه وخروجه على المجتمع برمّته إذا اقتضى الأمر، متمثّلاً فيها، والآخر سالب، متمثّلاً فيّ أنا: وهو سالب بالترويّ، وتحكيم معايير العقل وحساب الضرورات التي لا مهرب منها. والآن أراها قد قرّرت السفر، وأنا كلّي خوف عليها ممّا هي مقبلة عليه. وأنا التي حذّرتها منك في البداية، أحثّها الآن على البقاء معك والاستمرار في هذا الجنون «الشخصاني» الذي تدوّخني في الحديث عنه ما دامت هي معك، وعن القصائد المتبادلة بينكما. أستاذ نائل، أتسمعني؟

- نعم، نعم. أنت تعجبينني. هذا السفر الذي تتحدّث عنه، أحترم رغبتها فيه، وأحترم دوافعها إليه، إن كنت غير مخطىء في تخمينها. ولكنني لا أريده لها، لأسباب أنانيّة، أنانيّة صرف. ابقَيْ على موقفك، رندة، لعلّنا كلينا معاً نقنعها بالعدول عنه. ولأعترف لك - ولو أنني أفضّل ألّا تعلميها بهذا - أن سراب، في أشهرٍ قلائل، غيّرت حياتي من أساسها. لا أستطيع تصوّر حياتي يومين اثنين بدونها. فكيف إذا فعلتها ورحلت؟ ثم اسمحي لي أن أكون شخصياً معك: لماذا لا نرتّب لقاءً بيننا؟

وهنا كان لا بدّ من المبالغة بالنبرة التمثيلية، كممثّلة رديئة لا تعرف التحكّم بصوتها: «ماذا قلت، أستاذ نائل؟ ماذا تقصد بترتيب

لقاءٍ بيننا؟ وماذا أقول أنا لسراب عندئذ، وماذا تقول أنت لها؟»
(وفكّرت لو أن إبسن وضع هيدا غابلر في موقف كهذا، هل كانت تتكلّم مثلما تكلّمت، وبهذه النبرة؟)

ولكن نائل، ببراءته، أطفأ الفتيل الذي كان يمكن أن يشعل البارود حين أجاب: «أقصد، رندة، لماذا لا ترافقين سراب مرّةً واحدةً في العمر، فنشرب القهوة معاً، أو نتعشّى معاً؟»

ـ في فندق «الهوليداي»؟

ـ فيه، أو في أي مكان آخر. المهمّ أن أراك، ونتحدّث بإسهاب.

ـ لا، أستاذ نائل. أنت لا تعرف سراب بقدر ما أعرفها. أعتقد، بل أؤكّد، أنها تفضّل أن أبقى أنا في الخلفيّة بالنسبة لها، وأن أبقى مجرّد صوت بالنسبة لك.

ـ رندة، هل أنت متزوّجة؟

وبنبرة التمثيل المبالغ فيه أجبت: «وما همّك إن كنت متزوّجة أو غير متزوّجة؟»

ـ لا بأس، لا بأس. اغفري لي هذا السؤال، واسمحي لي بسؤال آخر.

ـ بل اسمح لي أنا بسؤالك أولاً.

ـ تفضّلي.

ـ هل تحبّ سراب حقّاً؟ أعني، هل تحبّها كما تتصوّر هي؟ ولكن لا، لا تجب، أرجوك. بيني وبينك، مهما يكن موقفي الخاص من الموضوع، هذه الفتاة لا أظنّها تفكّر في شيء أو في أحد، كلّ يوم، كلّ ساعة، إلاّ فيك أنت. ولذا، ربّما كان الرحيل في صالحها.

ـ لا! أراك عـدت إلى منـطقهـا هي، وتخلّيت عن منـطقـك، ومنطقي.

ـ أنت تعلم أن جدّتها خديجة، والدة أبيها، كانت فلسطينية من القدس، من عائلة الجابري، إن كنت سمعت بها. وجدّتها هذه تكاد تكون هي التي ربّتها حتى سنوات المراهقة. أترى كيف أن الجذر حيّ، وأن العرق دسّاس؟ وهناك سرّ عائلي، ربّما لم تكاشفك به.

ـ سرٌّ مخيف؟ جَدٌّ مجنون مثلاً؟

ـ لا، لا . . . بل هو سرّ تسخو به سراب عندما تريد. فجدّتها لأمّها، أي أم ياسمين، مسيحية من الشمال، كان اسمها مرتا ميخائيل، تزوّجها جدّها لأمّها، الشيخ أحمد دلير كزوجة ثانية، في أوائل العشرينات، وهي في السادسة عشرة، وهو فوق الخمسين. . . كانت يتيمة عاشت في كنف عائلة الشيخ أحمد، وتميّزت بحسن وجهها وجمال قوامها، وسراب تعتقد أنها جاءت ممشوقة القوام على جدّتها مرتا، وأنها ورثت عنها شعرها المذهل بسواده وطول ضفائره. . . أترى أيّ خليط عجيب هي صديقتك بنت علي عفّان؟

ـ هذا كله بعض السرّ في. . . سحرها، في تعدّد النواحي في شخصيتها.

ـ وفي أنها تريد الانطلاق من حصارها.

وفاجأني هنا بقوله: «أنا أسمع الآن صوتها في ما تقولين!»

وتداركاً للموقف تظاهرت بالضحك: «ها ها! الكثيرون يعتقدون أن صوتي يشبه صوتها. . .» (بالغي في التمثيل يا رندة!)

غير أنه أجاب، وبكل براءة مرّة أخرى: «أقصد أن كلامك يشبه

كلامها، تماماً. ولم يبق إلّا أن تقـولي إن دماً غجـرياً أيضـاً يجري في عروقها!» (وقلت لنفسي: حبيبي نائل، لماذا أتمتَّع بلعبتي المـاكرة هـذه معك؟) ثم أردف: «واسمحي لي أن أقول، إنك تتخبَّطين في الـرأي بالضبط كما أتخبّط أنـا، وكما تتخبّط هي. وشكـراً لمخابـرتك اللطيفـة ولاهتمامك ـ وهل أقول اهتمامك الغريب هذا؟»

قلت: «أبداً. أجد الكلام معك ممتعـاً. ولذا فـأنا التي أشكـرك. وإذا رأيتني يوماً معها، سأذكِّرك بهذا الكلام، أمامها.»

قال: «قريباً؟»

قلت: «قريباً جدّاً. مع السلامة.»

آه نائل، وموعدنا بعد غد.

والرحيل بات ما أقربه!

- ٤ -

نائل عمران

في دراستي للقانون، وأكثر من ذلك في عملي كمحامٍ في قضايا بعضها شديد الغموض، وبعضها شديد التناقض في الأدلّة، وجدت بين الحين والآخر مادةً تفيدني في تركيب الأحداث في رواياتي، مهما ادّعيت أنني في كتابتي أبتعد عن ظروف مهنتي. غير أنني لأكثر من ثلاثين سنة كنت أعي الحدّ الذي لا بدّ أن يفصل، في مكان ما من التجربة، بين الواقع والخيال، وبين المحتمل والمستحيل، بين ما يمكن أن تجود به العلاقات الظاهرة بين الناس بكلّ تشعّباتها، وبين ما يمكن أن تجود به القريحة التي تُعمل سحرها في هذه العلاقات، وتستخرج ما يبدو أن الطبيعة تعجز عن صنعه. وكنت أتذكّر قول بيكاسو، حين يحوّر الأشكال ويداخلها ويمزّقها ويعيد تركيبها على هواه، إنه يقدّم ما لا تستطيع الطبيعة تقديمه، فهو إذن أبرع منها، ويرفض لها أن تتحكّم به.

ولكن برحيل سراب، وغيابها دونما كلمة واضحة، رغم ما كانت تلمّح به في الأيام الأخيرة، جوبهت بلغز لم يكن لديّ له أكثر من مفتاح واحد لا يفي تماماً بحاجتي، ولا يرضي قناعتي. وقد حدّثتها

ذات يوم عن طريقة لي في تفسير أي حدث، إذا كان غامضاً أو عصيّاً على التفسير، فقلت إنني أضع له ثلاثة سيناريوهات، شديـدة التباين في التفاصيل، ولكنها كلها ممكنة، وكلها تبدو، على نحو ما، صادقة، أو أنها بمجموعها تقترب من الحقيقة الجـوهريـة التي لا يمكن أن تكون أصلاً إلاّ شديدة التعقيد، وربّما شديدة التناقض. فجرَّبت حظّي على طريقتي هذه، ووضعت، ذهنياً، عدّة سيناريوهات لمتابعة ما لعلّه قد جرى لها. ولكنني لم أرض عن أي منهـا، وبقيت في حيرة إزاء غيـابها وصمتها.

وأحسست أنني كنت زهاء ستة أشهر أتعامل مع وهم جميـل جاءني لابسـاً قناع الـواقع، وأدخلني في مـراياه ـ كما كانت سراب تـردِّد لي دائـماً ـ ثم أعادني إلى حيث لا وهم، ولا قنـاع، حيث لا أعلـم إلاَّ أن هذه المرأة التي اقتحمتني بعشق لم أعـرف مثله في حياتي الـطويلة، غادرتني قلعةً مقهورة، سقطت دفاعاتها لفاتح رائع، ثم تركها الفـاتح فـاغرة الأبـواب محطّمـة الشرفـات لـريحٍ عـاتيةٍ تعبث بـين أرجائهـا الخـاوية. ولأوَّل مـرَّة في هذه السنـين الطوال أجـدني في قضية أنـا في الصميم منهـا، لا ينفعني فيها تقصيّ المحقّقـين، دع عنك قـواعـدهم وشرائعهم. لقد أتتني الطبيعة بما كنت أحسب أن الخيـال وحده يـأتي بمثله. والذي صدمني، وكرَّر الصدمة في نفسي أشهرَاً عديدة، هو أن يحاصرني هذا اللغز، حول شخص صرت لا أقوى على الحياة بدونه، على غرار قصةٍ كتبتها في مطلع شبابي، معتبـراً يومئـذ قيمتها الـرمزيـة أهمّ من قيمتها الواقعيـة، تختفي فيها حبيبـة البطل بعـد زواجه منهـا بأيام، دون أن تخلِّف وراءها أية إشـارة إلى معنى اختفائهـا، أو وجهة

اختفائها. وكان عليه أن يرى في فعلتها مئة وجه، يجعله كلٌّ منها يتأمّل وجوده بشكل لم يكن يخطر بباله من قبل. . . صدمتني المفارقة. هل كنت أتنبّأ في ذلك اليوم البعيد بالمرارة والألم اللذين وقعت الآن فيهما؟

كنت أعلم أن رحيل سراب جرى لأمر يتصل بتنظيم عربي أرادت الالتحاق به، عسى أن تجد نفسها في يوم ما، كما قالت بحُلميّتها العذبة ذات مرّة، تفيق من نومها تحت شجرة زيتونٍ في تلٍّ من تلال القدس، فتأخذ نَفَساً عميقاً لتملأ رئتيها بأنسام مدينة جدّتها خديجة الجابري، وتحشو عبّها «بأشعة شمسٍ لم يخلق الله مثلها إلاّ على جبل المكبّر»، وعندها فقط تكون قد حقّقت حريتها، وليكن بعد ذلك ما يكون.

ولكن لِمَ هذا التكتّم إزائي، وهذا التعذيب لنفسها، ولا أقول تعذيبي أنا، على هذا النحو؟ وكنت مقتنعاً بأن لعبد الله الرامي صلةً قوية بما عزمتْ عليه، وعبد الله يعمل «تحت الأرض»، ولا يرضى إلاّ بالسريّة المطلقة بشأن كل من يعمل معه، حتى إزاء أقرب أصدقائه. هل أراد أن يهيّئها في تنظيمه لعملية فدائية سرّية قد تحتاج إليها المقاومة في يوم ما: اختطاف طائرة، اقتحام ثكنة، إيقاع بعميل صهيوني؟ سراب ملتهبة الخيال في اتجاهات عديدة. وهي ناقمة على الأوضاع العربيّة، متمرّدة على الأَسَن الاجتماعي، تكاد لا تحيا إلاّ من خلال شخصيات درامية تتلبّسها، وعليها أن تنتهي بكل منها إلى فاجعة ما. وهذا بعض السرّ في إحساسها بأنها محاصَرَة، بأن سبل الخلاص مسدودة دونها، وعليها أن تعود فتجرِّب كلّاً منها بأقصى

قدراتها، لعلّها تدرك الخلاص. وإذا كانت في حبّها تلك العاشقة المتطايرة الشرّر كغابة مشْتعلة في ليل حالك السواد، فإنها في أيّ فعل آخر لن تقلّ تشبّهاً بالغابة المشتعلة. وأنا أفهم كل هذا، ولكنني لا أستطيع أن أفهم كيف تعشقني وتتركني وهي في الذروة من عشقها. كبريائي لعينة: لقد حجبت عني الفهم والقبول بما جرى لمدّة طويلة.

قالت إنها ستكتب لي من روما. وبعد أيام، قالت إنها على الأرجح ستكتب من براغ، وربما من ستوكهولم. تراءى لي أنها تتعمّد التلغيز، ولست أدري أكانت تضلّلني أم تضلّل نفسها - أم أنها فعلاً لم تكن تعرف أين تكون نهاية الرحيل؟ ومرّة واحدة ذكرت كوبنهاغن، وفي الحال أدركت علاقة عبد الله بالأمر. ولما عالجتها بالأسئلة، رفضت أن تعطيني جواباً محدّداً، وانفجرت بالبكاء... ووقعت على صدري، ثم راحت تخبطه بقبضتيها، وهي تقول، والدموع تنهمر على خدّيها: «أحبّك، أحبّك، ولم يبق إلاّ الرحيل.»

في اليوم التالي، اتصلت بالفندق حيث كان يقيم عبد الله، فأخبروني أنه غادر البلد. وبعد ذلك بأسابيع، عندما لم تأتني كلمة من سراب في غيابها، أردت الكتابة إليه في كوبنهاغن، فوجدت أن لا عنوان له لديّ، ووجدت أن لا عنوان له لدى طلال صالح، وكلانا أقرب الناس إليه هنا. وانتابني إحساس ظالم بأن غياب سراب لم يكن أقلّ فجيعة من غياب سهام: أشبه بموتٍ لا حيلة لي، أو لغيري، به. وكلّما مرّت الأيام اشتدّ بي الإحساس بأن سراب ماتت، أو قتلت، أو انتحرت، رغم ما يتبادر إلى ذهني من أنها ربّما تسعى إلى بطولةٍ أو استشهادٍ يجعلها في منزلة فوق منازل البشر. وأضع في ذهني كل يوم

سيناريو جديداً لما حصل لها منذ لحظة مغادرتها المدينة. أتابعها في عواصم أوروبية، في فنادق من الدرجة الأولى والدرجة العاشرة، أراها تجوع، وتعطش، ولا تفقد إرادتها وعزمها. أراها يطاردها الرجال، ويوقعون بها، ويقتلونها. أراها تكتب، تقاتل، تحرّض، تستميت، تبكي، تعاني، وتكتب وتقاتل من جديد. ولكنني لا أجد في أيّ من ذلك عزاءً حقيقياً أو راحة لنفسي.

ويوم قرّرت أن أتصل هاتفيّاً بدارها وأطلب الحديث إلى أختها شذى، جاءني الجواب من سيّدة ـ أغلب الظن أنها والدتها ـ تقول إن شذى سافرت إلى الخارج لإكمال دراستها. وحين سألتني من أنا، قلت: «أنا نائل عمران. أردت أن أسأل عن أحوال الآنسة سراب.» وإذا السيّدة تضطرب وتنفجر بالبكاء وتقول: «وهل نعرف نحن أين سراب حتى نخبرك عن أحوالها؟ بالله عليك، إذا جاءتك أخبار عنها، ولو من بعيد، اتصل بنا في الحال.»

وبقيت في انتظار الرسالة التي لم تصل، في انتظار المكالمة الهاتفية التي لم تتحقّق ـ وما أشدّ ما كانت تستمتع بالحديث هاتفياً. وراجعت نفسي مراراً كيف قضينا آخر لقاء معاً. كانت سراب كلها عذوبةً، وضحكاً، وكلاماً متواصلاً، بدءاً بالقهوة عصراً في «الأنسام»، وانتهاءً بغزل عنيف في مكتبتي، في غياب سالمة وغسّان (ففي أول عطلة الصيف يذهب كلاهما إلى بيت أخي وائل لعدّة أسابيع). وقد أتتني بقوقعة بحرية كبيرة، بحجم الكفّ، ظاهرها خشن النسج محميّ بنتوءات مستدقّة حادّة، ودواخلها صقيلة تغري بالانزلاق إلى الأعماق، وقالت: «هديتي لك. ضعها على أذنك تسمع هبوب

الـرياح. . . » ووضعتهـا على أذني وقلت: «أسمـع رياح البحـار التي ستعبرينها. . . » ولم تقبل منّي هدية إلاّ كاسيتة لثلاث سوناتات للبيانو لبيتهـوفن كانت تحبّهـا وتعيد سماعهـا كلما التقينـا في الـدار عنـدي. وعلّلت نفسي بأنها لن ترحل في اليوم التـالي كما ادّعت، وبـأنها، على طريقتها التي رحت أعشقها فيها، تمثّل دوراً من ابتكارهـا، لكيما تثير المزيد من شكوكي ومخاوفي، فأحبّها أكثر فأكـثر ـ تلك اللعبة النسـائية التي برعت فيها إلى حدّ إغاظتي أحياناً.

كنت أنسى فارق السن بيننا. فما أحسست يوماً معها، بسبب ردود فعلها نحوي، أنني فوق الثلاثين بيوم واحد. تقول: «إذا تـزوّجتك، أنجبت لـك عشرة أولاد في عشر سنـين!» فـأقـول: «إذا تـزوّجتـك، منعت عنـك الإنجـاب، لئـلاّ تنصرفي ولـو بجـزء من حبّـك عنّي إلى طفلك!» كلام يقول مثله العشّـاق كل يـوم في كل مكـان. وتسألني: «إذا تزوّجتك، هـل ستشغل نفسـك عنّي بالكتـابة؟» فـأقول: «وفيمَ الكتـابة، بعـد أن أتزوّجـك؟» فتقـول بغضب مصـطنـع: «إذن، لن أتزوّجك! كتابتك أهمّ منّي بألف مرّة ـ شريـطة أن تبقى تحبّني.» وفي المساء الأخير، حـين أخذتهـا إلى دارها بسيـارتي، مالت بـرأسها عـلى كتفي، واسـترسلت في البكاء معـظم الطريق ثم انتفضت، ومسحت دموعها، وعدّلت وضعها، وقالت للمرّة الأخيرة: «سأكتب لك حالما يتحـددّ لي عنوان، واكتب لي، كـل يوم. كـل يوم!» وكـان في قبلتها الوداعية، قبل نزولها من السيارة، مـذاق اليأس مشـوباً بـالجنون. أو هكـذا تصوّرت في تلك اللحـظة. ربّما كنت أنـا الذي مـازج اليـأس جنونه، ولم أستطع تقدير موقفها المعقّد، موقفها النبيل: موقف الشدّة والكبرياء.

كانت الأشهر الستة الأولى صعبةً جداً. كنت أفيق كل صبح على تمثال سهام، فأراها ترنو إليّ بعينين واسعتين حزينتين، كأنها باتت تشفق عليّ. أم أنها تشمت بي؟ وأشتهي لو يرنّ الهاتف ولو مرّة واحدة عندئذ، لأسمع سراب عبر خطوط المدينة تتنفّس بما يشبه التنهّد، وهي تهمس: هلو. . .

الأشهر الستة الأولى كانت جحيماً، رغم انهماكي في أعمالي، وبقائي في مكتبي يومياً حتى ساعة متأخرة من الليل. وعند عودتي إلى الدار، أدخل المكتبة، وآخذ القوقعة البحرية التي تملأ راحتي بصلابتها ونعومتها، وأضعها على أذني، وأسمع سراب وهي تتنهّد، وتطيل التنهّد، ولا تنتهي، وأكتب لها ثلاثة أسطر أو أربعة في رسالة لا ختام لها. ولاحظت أنني، لسبب ما، لم آخذ منها صورةً لها ولو واحدة. كيف إذن أصنع لها تمثالاً آخر أضعه في المكتبة التي كانت مكانها المفضّل في منزلي؟ وهل من ضرورة لذلك، وذاكرتي مثقلة بصورها وأشكالها أينما تحرّكت؟ ويوم سألني غسّان، وهو يقلّب القوقعة بين يديه: «من أين جئت بهذه المحارة، بابا؟» قلت: «من شاطىء بعيد، يا حبيبي. ضعها على أذنك، تسمع أنفاس البحر.» ثم أضفت: «وأحياناً حسرات البشر.»

في أواخر الشتاء التالي قمت بزيارة طلال صالح في مكتبه ذات مساء، وتذكّرت بغتة أن سنة، أو ما يقارب السنة، قد مرّت على لقائي بسراب. وبعد قليل، أشار طلال ذاته إلى ذلك، وقال: «أما من خبر؟ كيف هان عليك أن تسمح لها بالرحيل؟»

قلت بمرارة: «لكي تنظم أنت قصيدة عن غيابها. . . أتدري أن

قصيدتيك توحيان بحضور جسدي عجيب؟».

وخرجت بعد ذلك، ويمّمت شطر كافتيريا «الأنسام» في خط مستقيم، وتمنّيت لو أن السماء تشاركني الذكرى، وتمطر شيئاً من عشقها على زجاج النافذة التي تقصّدتُ الجلوس بجانبها، كما فعلت ليلة لقائنا. ومن يأتيني في تلك اللحظة السنتيمنتالية (ومن قال إن دكاترة القانون لا يستسلمون لعواطفهم أحياناً مهما ماعت بهم؟) سوى ذياب نفسه؟ جاءني مرحِّباً، وعاتباً على طول غيابي عنه: «أكثر من ستة أشهر، دكتور نائل.» ثم أردف بشيء من الحذر والحياء: «تلك السيّدة الجميلة التي كانت ترافقك كلّما جئتنا، أين هي؟»

قلت: «سراب.»

قال: «بل كانت حقيقية جدّاً.»

قلت: «سراب، سراب... هل ما زلت تتقن صنع القهوة كما كنّا نشربها، يا ذياب؟ اسمع، هيّىء فنجانين، وسأشربهما كليهما.»

فقال: «حاضر، وعلى حسابي، والله!»

وتلك كانت الليلة الفاصلة. حزمت أمري بعدها، قائلاً: لا بدّ من نسيان. لا بدّ. وهل أعود إلى المستنقع الذي تخبّطت فيه بعد موت سهام لأشهر طويلة ما استطعت حسابها؟ سأعود إلى الكتابة. إذا لم تتكامل في خيالي فكرة لرواية جديدة، فإنني سأركّز على قضيتين مهمّتين في حقل اختصاصي، وكنت أصلاً قد وافقت على المشاركة في مؤتمر سيعقد في الصيف في مدينة لاهاي عن صلاحية المؤسسات الخاصة في رفع الدعوى القضائية على السلطة في حالات معيّنة في

دول العالم الثالث، وسأنصرف إلى مراجعي وكتبي لتهيئة ورقتي للمؤتمر. وأمّا القضية الأخرى فكانت قضية شائكة شغلتني منذ سنوات، وقرّرت الآن أن أبدأ بكتابة بحثي عنها: عقوبة الإعدام، وضرورة إلغائها نهائياً في العالم العربي.

وكان هناك بالطبع الأصدقاء العديدون الذين يجب أن أستأنف اتصالاتي بهم. وأهمّ من ذلك، كانت هناك عنايتي بابني غسّان ودروسه، وهو يوشك على الانتهاء من دراسته الابتدائية، وقد تركته لعناية سالمة أكثر مما ينبغي، ولا سيّما في الأماسي التي جعلت الآن أفضّل قضاء معظمها في الدار. وكانت قضية ميراث آل سيفي في مراحلها الأخيرة، والمكتب بانتظار صدور حكم الاستئناف فيها. وجاء الحكم في صالح موكّلي وأسرته، وكانت النتيجة أكبر مبلغ من المال لقاء أتعابي حصلت عليه طَوال حياتي المهنية. (يقولون: المحظوظ في الحب غير محظوظ في لعب الورق، والعكس فيما يبدو صحيح.) وقد راودتني فكرة كتابة رواية عن موضوع الميراث هذا، لكثرة ما فيه من شخصيات متضاربة ومحتالين وضحايا، لولا أنني صرفت ذهني عنه فيما بعد، لأن قريحتي لا تعمل على مثل هذا الخط، رغم حضوره في حياة المجتمع بصور لا يخلو بعضها من إثارات غريبة ومن نزوات تناقض العقل.

لا أظنّ أن يوماً مرّ عليّ لم تخطر فيه سراب ببالي، بشكل أو بآخر. لقد تحوّلتْ في داخلي إلى حضور كحضور الدم في شراييني، ولا حاجة بي لأن أفصد شرياناً في معصمي لكي أرى الدم وأتأكّد من وجوده. وكان يحزّ في نفسي، على الأخص، ألّا ترى سراب الاهتمام

المتصاعد الذي حظيت به روايتها المفضّلة «الدخول في المرايا» لحوالي سنوات ثلاث صدرت فيها دراسات ومقالات عنها من كل نوع، فتستمتع معي ببعضها، حين يؤيّد النقّاد أن سراب لم تكن مخطئة بتعلّقها بها، وتدهش معي لبعضها حين يُبدي النقّاد نفاذاً في الرؤية يجعلنا نبلغ معهم مناطق من الدلالة والمعنى لم نكن ـ لا أنا ولا هي ـ على وعي بها، وتضحك وتبكي معي لبعضها حين يتصايح النقّاد المزعومون في غباء وعمى كلاهما مضحك ومبكٍ في إصراره، ولا تقلّ كتاباتهم، على طريقتها، إمتاعاً وإدهاشاً لنا عن الكتابات الأخرى، إذ تذكّرنا كل مرّة مجدّداً بأن صوت الجهل ما يزال والحمد لله لجوجاً وعالياً في كل مكان، رغم ما في الدنيا من معرفةٍ ميسّرة لمن يسعى إليها من البشر. . . وكلما اجتهدت في رأي، حتى لو كان قانونياً ومهنياً، سألت نفسي: هل توافق سراب عليه؟ وهكذا، بقدر ما اعتدت حضورها الغائب، اعتدت عدم رؤيتها، بحزن، ولكن أيضاً برضا. إنما المهم، رحت أقول، ألّا تكون قد ماتت أو قتلت. المهم أن تكون هناك في مكان ما متواثبة الحياة، وأنا راضٍ بالبقية.

وذات يوم جمعة، صباحاً، فاجأني شريف الترك وتالة بزياتي في البيت دون إعلامي هاتفياً مسبقاً، كما كان من عادتهما أن يفعلا في السنوات السابقة. وقد استقبلتهما سالمة في غرفة الجلوس بترحاب، وسمعتُ لغطهم وأنا بعد في غرفة النوم، فخرجت، وانضممت إليهم بالمزيد من الترحاب، وجرى بيننا العتاب المألوف لانقطاع الزيارات بيننا، بل وانقطاع لقاءاتنا، حتى العابر منها.

كانت تالة، كعهدي بها، في أتمّ زينتها وأناقتها، وانتبهتُ بغتةً إلى

باقة كبيرة من الورود الصفر تملأ المزهرية الكريستال الكبيرة الموضوعة على طاولة جانبيّة. فلمّا تساءلت عنها، انبرت سالمة للقول بأن تالة جاءت بها، ودسّتها عند دخولها في المزهرية كما هي، وأن عليها ألّا تبقيها بدون ماء. وفي الحال حملت سالمة المزهريّة بورودها إلى المطبخ لذلك الغرض، وعادت بعد لحظات، فأخذتها تالة من يدها، ووضعتها على الطاولة الوسطى، وأعادت ترتيبها باعتزاز صريح. وكانت حقّاً باقة رائعة، ملأت الجو ببهجة غير متوقّعة، وشكرت أنا للزوجين تلك الالتفاتة، قائلاً إن حديقتنا أهملت في الأشهر الأخيرة، وأن تلك أوّل باقة ورد تدخل بيتنا منذ زمان.

حضرت القهوة، ودرجنا من حديث إلى حديث. وكان ظاهراً أن تالة لا تريد الإشارة إلى الزيارة التي قامت بها إلى مكتبي قبل أشهر لتعبّر عن سخطها على علاقتي بسراب. وهي زيارة تمّت يومئذ دون معرفة زوجها، ولم أخبر سراب عنها، قصداً، لكي لا أثيرها أو أغضبها. وما كنت لأشير إلى الموضوع، لولا أن شريف، بكل براءة، عتب عليّ مجدّداً لأنني لم أحاول زيارته ولو مرّة واحدة في مكتبه، وقد انقضى أكثر من سنتين على تأسيسه. فقالت تالة لزوجها مازحةً: «حتى عندما كان هناك إغراء قويّ له في المكتب، لم يزره. فكيف تريد أن يزوره الآن؟»

استضحك شريف، كالمتعاطف معي، وقال موجّهاً الكلام لها، ثم لي: «تقصدين سراب عفّان؟ كانت سكرتيرة ممتازة. ولكنها كانت غريبة الأطوار، وحسّاسة جدّاً. أتدري؟ تركتنا فجأة، ولم نعرف السبب.»

قلت: «أحقاً لم تعرفوا السبب؟»

ـ أبداً. وقد اتصلت بها في البيت بنفسي، ولكنها رفضت أن تكلّمني. أي والله. واضطررنا إلى إرسال مستحقّاتها المالية إليها بيد اسماعيل.

وهنا ألقت تالة سؤالها الماكر: «ترى ما الذي جرى لها؟ أين تعمل الآن؟»

فصمّمت على ألاّ أروّح عنها، وأن أبقيها في تساؤلها، وقلت باقتضاب: «سافرت.»

ورأيت سالمة ترمقني بعين المتفاهم سرّاً معي، لأنني كنت أخبرتها قبل أيام، حين أبدت ملاحظة عن غياب سراب، بأنها «أصبحت فدائية». غير أنها تأكيداً على تضامنها معي إزاء موقف تالة من سراب، أضافت: «فتاة ذكية جدّاً. ستنجح، أينما ذهبت.»

وبدا على تالة ارتياح عميق، وخيّل إليَّ أنها قالت لنفسها: الحمد لله، سافرت! ثم علّقت: «الله يستر عليها.» ثم غيّرت لهجتها، وخاطبتني مباشرة: «متى ستتزوّج يا نائل؟ رحم الله العزيزة سهام، أنا لا أشكّ في أنها سترضى عن زواجك الآن، بعد أكثر من أربع سنوات من رحيلها. ماذا تقولين يا سالمة؟»

ضحكت أختي وقالت: «خذيه، وأقنعيه! وأنا معك على طول الخط!»

ـ ولكن من قال إنه ليس بانتظار عودة سراب؟

ـ محتمل جداً.

ـ لماذا لا تتكلّم يا نائل؟

تـالـة رهيبـة! قلت: «أتكلّم عن مـاذا؟ لم يبقَ مـا يُقـال في هــذا السياق. يا شريف،» أردت تغيير الموضـوع، «هل من مجـالٍ لشرائي أسهماً في بعض شركاتكم؟ سمعت أن حقل الدواجن الذي أنشأتمـوه من أكبر الحقول في البلد.»

ـ بسيطة يا رجل. مرّ علينا غداً، فنرتّب لك ما تريد.

بعد حوالي ساعة، نهض الضيفان ليودّعانا، وخرجنا معاً إلى شرفة الدار، وانشغلت سالمـة بالحـديث مع شريف عن ولـديه وهـو يتحرّك بـاتجاه سيـارتـه، فتبـاطـأت تـالـة معي عن عمـد، لتسـألني بصـوت منخفض: «لماذا لا تطمئنني؟ أمـا زلت على اتصـال بها؟» ولما أجبتها: «بالطبع»، فحّت من بين أسنانها: «أنت أكبر مجنون. سأتلفن لـك في المكتب.» فقلت بصوتٍ عالٍ مـرح: «لا ضرورة لذلـك، لا ضرورة أبداً... شريف، قد أجيئكم في المكتب بعد يومين أو ثلاثة.»

وأسرعت نحو السيارة لأفتح بابهـا لتالـة، وأنا وسـالمة نـردِّد: «مع السلامة، مع السلامة.»

ولمـا عدنـا إلى غرفـة الجلـوس انـتزعت بـاقـة الـورد المتـألّقـة من المزهريـة، وسرت بها إلى المـطبخ وسيقـانها تقطر مـاءً، وألقيت بها في حاوية القمامة، وسالمة ترقبني فاغرة الفم بدهشتها. وصاحت: «لماذا، لماذا؟»

قلت: «لأنها من امرأة لا تحبّ سراب، حتى ولو كانت تالة.»

كنت أعلم أن أختي، رغم أنها لم تـرَ سراب إلاّ مرّتـين أو ثـلاثـاً،

أحبتّها دون أن تتحدَّث كثيراً عنها. لم تكن تعلم بالضبط من هي، ولا مدى جدّية العلاقة بيننا، ولعلّها في أول الأمر، غفرت لأخيها أن تكون له علاقة حبّ عابرة مع امرأة، كائنة من كانت. غير أنها أكّدت لنفسها، كما حدّثتني فيما بعد، أن امرأة يتعلّق بها أخوها بهذه الحرارة يجب أن تكون امرأة غير عادية. وقد لفت نظرها أنها، بالنسبة لي، صغيرة في السن بعض الشيء، ثم عادت وقالت: ثم ماذا؟ ولما علمت أن أباها هو الجرّاح المعروف (لا أدري من اين حصلت على هذه المعلومة) الدكتور علي عفّان، باتت تتوقّع أن أطلب إليها في أية لحظة أن تتصل بوالدة سراب لترتّب أوّليات الخطبة، وراحت تستحضر أسماء الرجال، من أسرتنا وأصدقائنا، الذين يستحسن أن يرافقوني عند طلب يدها من والدها. ولم يقلقها إلاّ أن أهلها قد يعترضون على أن تجد ابنتهم الشابّة نفسها، بعد الزواج، مسؤولة عن تربية ابن زوجها، ولذا قرّرت أن تستمرّ في احتضان غسّان برعايتها هي، لتحرّر سراب من مثل هذا العبء.

عملية جداً، حبيبتي سالمة، وتقليدية جداً. . .

* * *

توالت الأشهر. كتبت بحثي للمؤتمر الدولي، وسافرت إلى لاهاي لإلقائه في أوائل شهر أيلول، وقضيت قرابة أسبوعين ممتعين في لاهاي وأمستردام، وزرت متحفي رمبراندت وفان كوخ ـ كيف يحرّك البؤس والعذاب قوى الإبداع في العباقرة! فلأتعلّم! ـ وعدت إلى المدينة مجدّد النشاط لعمل جديد أخذ يتململ في دماغي. بدأت روايتي الأخيرة بعد عودتي بأيام قلائل، غير أن ما جاء دفقاً في

البداية، سرعان ما شحّ، ثم غاض. وتريَّثت، والأسابيع تمرّ. وقدم الشتاء ثمّ الربيع، وأنا لم أكتب من الرواية أكثر من خمسين صفحة. غير أن أعمالي شغلتني بأكثر ممّا يتوقّع أيّ محام، وأتاحت لي الذهاب في الصيف إلى القاهرة وتونس. وفي تلك الأثناء بلغتني دعوة للمشاركة في مؤتمر للرابطة الدولية لحقوق الإنسان يعقد في باريس ابتداءً من مطلع آذار اللاحق. فوجدت لنفسي مبرّراً للانصراف عن همّي الروائي لكيما أركّز أخيراً على إنهاء ورقتي عن ضرورة إلغاء عقوبة الإعدام.

سنتان انقضتا، ثم كادت السنة الثالثة تنقضي على أول لقائي بسراب. وقد أضحت كأغنية تتردَّد في داخلي - تتردَّد نغماً ما عدت أذكر كلماته. نغماً جميلاً أستسلم له دون وعي، ثم يتلاشى تاركاً أحاسيسي في شفق ناعم لا أعرف أهو أول النهار أم أول الليل. وبقيت القوقعة مكانها، ملأى بتنهُّداتها وحسراتها، والكلمات التي كان بالإمكان أن تنهمر كالمطر، بقيت تتراكم صامتةً في ركن من النفس، كأنها وراء سدّ محكم. واقع الأمر أنني كنت أخشى انطلاقها، وبحيلة عقلانية تمكُّنت من إبقائها في مكانها، كمن يعرف أن في بيته غرفة مسكونةً بشبح لا يعرف الرحمة إذا دخل أحد عليه وأزعج سكونه، فيتجنَّب دخولها. حتى كافتيريا «الأنسام» امتنعت عن ارتيادها، وفندق «الهوليداي» لم أذهب إليه إلاّ مرّتين أو ثلاثاً بدعوات رسمية اضطررت إلى الاستجابة لها بحكم عملي.

ولكن قبيل سفري إلى باريس لحضور مؤتمر حقوق الإنسان اتفق أن مررت بسيارتي في الشارع المؤدّي إلى منعطف جنين، حيث كنت

أنتظر سراب كلما جاءتني بسيارة أجرة، ووجدتني لاإرادياً أستدير وأدخل المنعطف، وأتوقّف كالأبله في أوله... وفاجأني خاطر مريع: تصوّر لو أن فتاةً بديعة القوام، مرسلة الشعر، خرجت من بين هؤلاء المستطرقين، وجاءت إليك وقالت: ألا تذكرني؟ ألا تفتح باب السيارة لي؟ اضطربت، وصحت كالمعتوه: لا! لا! وانطلقت بالسيارة بسرعة هوجاء كأن العفاريت تطاردني.

وبلغت الدار وأنا أعرق رغم برد شباط. وأخرجت أوراق الرواية التي كنت أهملتها منذ أشهر، وكتبت على صفحة جديدة:

طريق تدخلها من حيث لا تدري
وإذا بها تنتفض حيّةً
لتعذّب الذاكرة، وتستعيد
ما كاد يلفّه النسيان:
ما أكثر الذي ظلّ حبيساً
رهين الصمت، يتململ.
فهل لك أن تُمسك القول
عن بعض ما تبقّى، رافضاً
أن يكفّ عن إلحاحه ـ
عن الجمال الراعش صبحاً كالندى
عن الظلام اللاهث بالحب كالمطر
عن حُرُقات القلب جائحة كالزوبعة؟

تركت الورقة على المنضدة، وقلت بعصبية: نعم! سأمسك

القول! لن أكتب كلمة واحدة. . . إلى أن أذهب إلى باريس. وأمّا بعد ذلك، فمن يدري؟

* * *

شغلنا مؤتمر الرابطة الدولية لحقوق الإنسان في باريس لأربعة أيام، من الصبح حتى منتصف الليل يومياً، ما بين ندوات، ولقاءات، ودعوات غداء وعشاء، كما في كل المؤتمرات. وقدّمت بحثي (بالفرنسية، بالطبع) عصر اليوم الأخير، وجرت عليه مداخلات مهمّة من حقوقيين ومفكّرين عرب وأجانب.

والذي لفت نظري أن العرب والأجانب كانوا متفقين معي على ضرورة إلغاء عقوبة الإعدام كليّاً، لما تلعبه هذه العقوبة من دور في إعاقة المجتمع عن إعطاء الحياة الإنسانية الاحترام الكامل لقدسيتها، كي تعيقه عن دخول العصر الحديث ومرحلة الديمقراطية الحقيقية، إلّا أن غير العرب من المشاركين كانوا هم الذين عبّروا عن شكّهم العميق في أن دول العالم الثالث ستأخذ في المستقبل المنظور بمبدأ الإلغاء، وأوحوا بأن مفكّري هذه الدول ما زالوا هامشيين إزاء القوى الأخرى التي ما زالت هي الفاعلة في تحريك المجتمع، أو تجميده، بصورة ما، الأمر الذي أثار بدوره جدلاً استمرّ سلباً وإيجاباً حتى أنهاه رئيس الجلسة بكلمة فاصلة.

وسرّني جداً أن أرى، عند جلوسي على المنصّة لإلقاء بحثي، الطيّب الهادي بين الجمهور. وكنت في اليوم السابق قد اتصلت به هاتفياً وأعلمته بوجودي في باريس، وانعقاد المؤتمر، وموعد تقديم

ورقتي فيه. وعندما خرجنا من القاعة، جاءني، وتعانقنا، واندفعنا من بين الحاضرين، خارجَيْن إلى الشارع لكي نستطيع إطلاق عواطفنا كلاماً، وحركةً، وضحكاً، على طريقتنا العربية، واتجهنا نحو مقهى قريب وهو يقول: «حتى متى ستبقى طوباوياً، يا نائل؟» فأقول: «حتى النهاية.» فيردّ ضاحكاً: «نهاية الجلّاد، أم نهاية الضحيّة؟»

لم أكن قد رأيته منذ زيارته للمدينة قبل حوالي ثلاث سنوات، فكانت الأسئلة والأجوبة بيننا تتزاحم، وتتوالد، والزمن يطير. وكان عليّ أن أحضر حفلة العشاء الختامية لأصحاب المؤتمر ذلك المساء، واتفقنا على اللقاء صبيحة اليوم التالي، وكان يوم أحد.

جاءني في التاسعة صباحاً، في الفندق الذي أنزلني به منظّمو المؤتمر في شارع مجاور لمباني جامعة السوربون، وشاركني في قهوة الإفطار. ثم قال: «هيّا البس معطفك، ولنخرج. الطقس بارد، ولكن ربّك العربي ما زال يحبّك، لأنه أوقف المطر منذ ليلة أمس.»

وخرجنا نسير على غير هدي في بولفار سان جرمان، والمتاجر مغلقة، ومررنا بكنيسة قديمة سمعنا منها ألحان الأرغن، فاقترح الطيّب أن ندخل ونصغي إلى الموسيقى ـ وكانت فيها أظن «توكاتا» لباخ ـ فدخلنا، ووضعتنا الألحان الهائلة في حالة انسجام جميل يطالب بالمزيد. فلما استؤنف القدّاس، انسحبنا بهدوء نحو الباب، وقال الطّيب: «بوسعنا أن نقضي الصباح متنقّلين من كنيسة إلى كنيسة، من موسيقى إلى موسيقى.»

قلت: «ما رأيك في زيارة النوتردام؟ لم أرها منذ سنين.»

وسرنا باتجاه السين والنوتردام، والطيّب يقول: «تذكّر قول مونتين: الفقر في المال يمكن علاجه بسهولة، أمّا الفقر في الروح فلا علاج له... أحمد الله أحياناً على أنه جعلني غنياً في الروح، ولو بمقدار، منذ أن حفظت القرآن، فما كانت لي يوماً مع الروح مشكلة، حسبما أظن. غير أن الفقر في المال، على عكس ما زعم أستاذنا الكبير، لم أتمكّن يوماً من علاجه بسهولة...»

قلت: «المال؟ وسخ اليدين؟»

ـ «ولذلك، غسلت يديّ منذ زمان، ونسيت الموضوع... بعد زيارة النوتردام، سنذهب إلى مركز بومبيدو.»

كانت الكنيسة القروسطية الكبرى مكتظّة بالناس، رجالاً ونساءً، جالسين أو واقفين، متحلّقين حول الهيكل والمرتّلين، أو منفردين منتشرين في الحواشي الفسيحة المعتمة، وبين الأعمدة، كلٌّ في عالمه الداخلي، تحت السقوف الرخامية الشاهقة، إزاء تلك الوردة الإلهية الرائعة التي تحتلّ دائرتها الشاسعة أعلى الجدار، ونور الشمس يتسرّب من خلال زجاجها الملوّن المقطّع بالرصاص، إلى الرحاب المظلمة، المتصادية بأنغام الأرغن وحناجر المنشدين.

كلانا، أنا والطيّب، مأخوذ عيناً وقلباً، ولكلٍّ منّا أسبابه. كلانا مفتون، وكلانا مشتهٍ وتوّاق إلى نشوة الدرويش. وقلت: «أليس هكذا يكون الدخول إلى الجنّة؟»

همس مجيباً: «بلى، فما أصعب الخروج منها!»

بعد نصف ساعة، عند خروجنا إلى الشمس الساطعة رغم

برودتها، وقد تركنا تهاويل الموسيقى وراءنا، راح الطيّب يتلو بصوته العميق، ونحن نعبر الساحة العريضة المائجة بالناس:

«جنّاتُ عَدْنٍ يدخلونها يُحلَّوْن فيها من أساور من ذهب ولؤلؤًا ولباسهم فيها حرير...»

صمت لحظةً، مرسلاً عينيه بعيداً، ثم أضاف:

«إن أصحاب الجنّة اليوم في شُغُلٍ فاكهون * هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متّكئون...»

صمت مرة أخرى، ذلك الصمت الذي يؤكّد تواصل الموسيقى، ثم أردف:

«أولئك لهم رزق معلوم * فواكه وهم مُكْرَمون * في جنّات النعيم * على سُرُرٍ متقابلين * يطاف عليهم بكأس من مَعين * بيضاء لـذّةٍ للشاربين * لا فيها غَوْلٌ ولا هم يُنزَفون * وعندهم قاصراتُ الطَّرفِ عين * كأنهن بَيْضٌ مكنون...»

قلت وأنا أخشى أن أبدّد الجو الفردوسيّ الذي أدخلني الطيّب في وهمه بتلاوته المدهشة: «أمن سحرٍ إلى سحر يا أبو محمد؟ أما زال هذا دأبك مع أصدقائك؟»

ـ لا سيما عندما تمرّ السنون ولا أراهم. قل لي، ألم تتزوّج ثانيةً في هذه الأثناء؟

أجبت مستغرباً: «أتزوَّج؟ هل أوحيت إليك آخر مرّة التقينا فيها بأنني سأتزوَّج؟»

ضحك، ولكز خاصرتي بكوعه: «عبد الله الرامي مرّ بباريس قبل أكثر من سنتين، وقال إنك كنت مشغولاً بشابّة جميلة. أو، بالأحرى، قال إنها مشغولة بك. أرجو أنني لا أفضح سراً بهذا الكلام؟»

ـ لا، أبداً.

ـ إذن؟

ـ رحلت. واختفت. وعلى فكرة، أين عبد الله هذه الأيام؟

ـ والله لا أعرف. فهو كعادته، فجأة يظهر، وفجأة يختفي.

ـ وأنت، هل أم محمد عندك هنا؟

ـ ربيعة ومحمد وحسن، كلهم الآن في الرباط. ويبدو أنني سألتحق بهم قريباً. فباريس ما عادت تغريني كما من قبل، والعمل الصحفيّ هنا أضحى كالضرب في الصخر. غير مجدٍ شخصياً، وغير مجدٍ وطنياً... والآن، أنستقلّ سيارة إلى مركز بومبيدو؟

ـ وهل يأتي المرء إلى باريس ليركب سيارة؟ في هذا الصحو الجميل، أي حركة غير المشي خطيئة. وأنت مثلي، من عشيرة المشّائين.

ـ أتعرف، نائل، لو أنني استطعت أن أضع الأفكار كلها التي تسترسل وتتداعى في ذهني وأنا أمشي في هذه الطرقات، لملأت مجلّدات.

ـ الآن أدركت السرّ في مقالاتك المسترسلة المتداعية في ما يشبه التأمّل الفلسفي الذي لن ينتهي.

ـ إنها حياتي... حياتي قضيتها ماشياً على قدميّ منذ أن فتحت عيني في الصحراء الجنوبية.

ـ ومـاذا أقول أنـا؟ ماذا أقـول عن مشاويـري المستمرّة مـع شهـوة العين وشهوة الذهن، وكلتا الشهوتين في احتدام لعين. وكلما تقـدَّمت بي السنّ، وتغـيَّرت أساليب الحيـاة، فربّما انحسرت المشـاويـر قليـلاً، ولكن الشهوتين لا تزيدان إلّا احتداماً.

بعد مسيرة طويلة. بلغنا ساحة مركز بـومبيدو ـ حيث تختلط أنمـاط البشرية بالحوُاة، والسَحَرة، ونافثي النار، بالرسّامين والكـاركاتـوريين والعشّاق، بالمشعوذين، والشذّاذ، وسكارى النبيذ فـي وضـح النهار. وأنا القادم من عالم النظام، والتقنين، وأقنعة الرصانة والتقيّة، شعرت أنني في هذه الفوضى المثيرة أعود إلى إنسانيتي الحقيقية. وتمنَّيت لـو أن سراب معي في تلك اللحظات. ولم يكن لي محيد من الحـديث عنها، أخيراً، إلى الطيّب الهادي، أستحضرها بالكلام عنها، بوصف قوامها وحركتها، إلى أن دخلنـا المركـز، وبدأنـا الصعود في سلالمه الأنبـوبية الشفّافة بين الحشود المكتظّة إلى طوابقه العديـدة، بمجموعـاتها الفنيـة ومعارضها المتبـاينة، نسرح بـين التماثيـل المذهلة واللوحـات المتحدّيـة وكأننا نبارك لها جميعاً ما أوجدته، وتـوجده، من تفتيق لفكـر الإنسان وخيـاله، وتشـديدٍ عـلى صبواتـه وأحلامـه، وإغنـاءٍ لعشقـه وجنـونـه الإبـداعي، ذلك الجنـون الضروريّ لسلامـة البشرية في عصر العلم والتكنولوجيا.

وحين بلغنا أخيراً الطابق الأعلى، حيث المطعم مع خدمة الذات، كان للتعب حقّه علينا، وكذلك الجوع. فتناول كلٌ منّا صينيّة، وسرنا في الصف المحاذي للأطعمـة المعروضـة، نختار مـا نشاء من لحـوم، وخُـضَر، وحساء، وخبـز، وزبـدة، وجبن، وحلويـات، وفـاكهـة،

ونبيذ، وقهوة. وحمل كلانا صينيّته المثقلة بأطايبها، والبخار يفوح من أكثر من طبق، وبحثنا عن مائدة نجلس إليها. فوجدنا واحدة بعيدة، قرب النافذة المطلّة على سطح المركز المكشوف. وقد تجمَّع على السطح المشرف على سطوح باريس المتميّزة الأفق بقبابها، عدد كبير من الرجال والنساء، معظمهم من الشباب. وأخرج بعضهم أكياس السندويتش من جيوب معاطفهم، وراحوا يأكلون في الهواء الطلق وهم في حديث وضحك.

وانتبهت عندها إلى فتى وفتاة، قد لا يبلغان العشرين من العمر، ينتقّلان على السطح بين الناس، ثم يتقدّمان من النافذة، وينظران من خلال الزجاج إلينا. ثم يركّزان على «الوليمة» التي فرشناها أنا وزميلي على المائدة.

ضحكنا لهما، فأشار كلاهما إلى الطعام، وجاء كلاهما بإيماءة تعني: ما أكثر ما أمامكما من أطباق! فما كان مني، ومن الطيّب، إلاّ أن نشير لهما ـ وقد جعلنا نتخاطب على طريقة مارسل مارسو ـ أن تعاليا وشاركانا الطعام.

كانت الفتاة تضع لفافاً حول عنقها، فحلّته حتى تدلّى طرفاه على صدرها، وأمسكت كل طرف بيد وجعلت تحرّكه حول عنقها صعوداً ونزولاً، وتلعّب حاجبيها وعينيها الواسعتين، وهي تتمعّن في الطعام مزاحاً، وتأتي بحركات بأنفها وشفتيها كأنها تشمّ روائح لذيذة تشتهيها، ورفيقها يتابعها بحركات مماثلة، مضحكة مبكية، ويومىء إلى قطرات مزعومةٍ تسيل من عينيه. . . آه، آرليكان وكولومبين! ما أجملها، هذين الشابين! ما أصدقهما!

وأكّدنا عليهما مرّة أخرى بالإشارة أن يدخلا المطعم، وينضمّا إلينا. ولمّا فهما قصدنا، أومأتْ كولومبين بأنها تطير فرحاً، وركضت برشاقة البالرينا (آه، سراب! سراب!) في اتجاه المدخل، يلحق بها آرليكان بحماسه المازح الراقص.

وأسرعا إلينا من خلال الموائد المكتظّة بالجالسين حولها، ودعوناهما للجلوس معنا على المائدة. ولكنهما كانا يضحكان ويرفضان، بلا كلام. . . قدّمت للفتاة طبق اللحم، فهزّت رأسها بالرفض، وهكذا رفض صديقها ما قدّمه الطيّب. قلنا لهما: لكلّ منكما أن يختار ما يريد، وكلٌّ ما يريد. «لا، لا،» قال كلاهما. . . وقالت الفتاة: «هذه فقط!» وبخفّة الملائكة التقطت التفاحة الكبيرة التي كانت فاكهتي في الصينية. وقال الفتى: «هذا فقط!» والتقط بخفّة مماثلة قطعة خبز وجبن من أمام الطيّب. وقضمت الفتاة بأسنانها البيضاء البرّاقة التفاحة بصوت مليء باللّذة، وأخذ الفتى عضّةً من الخبز والجبن، وعبّر كلاهما بملامحه البديعة عن شكره، وانحنيا لنا، والفتاة تقضم المزيد من التفاحة، وودّعانا بالتلويح بأيديهما وكأنهما يبحران إلى قارّة مجهولة لن نعرف نحن حتى اسمها!

فقلت للطيّب: «هذان هما الجنّة! الجنّة الأولى، لا جنّة الآخرة التي سحرتني بتلاوة أوصافها هذا الصباح. فيض عنيف من الحيوية، نقيّ نقاوة الثلج، ولاهب كسعير النار!»

قهقه الطيّب، وكرّر القهقهة: «ما زلت عاشقاً، وتغبط العشّاق! ألن تكبر، يا نائل؟»

ـ والله لو يرضيان بـي لخرجت معهما أرقص على أسـطح باريس، وأعيش على الخبز والجبن والتفاح!

ـ فلنشرب نخبهما!

وصببنا الخمر، وشربنا نخبهما ونخب العشّاق جميعاً، وقلت: «بعد كل ما كتبت، أتدري ما هي الرواية التي أتمنّى لو أكتبها؟ أتمنّى لو أنني في يوم ما أكتب روايةً عن شخصين، شخصـين فقط، رجل وامـرأة. قصّة حبّ. أعزلهما عن كل مـا يحيط بهما، كـما تُعزل نقـطة دم صغيرة على شريحة زجاجيّة، للتأمّل فيها تحت المجهر. وأنا أشعر أنني بـذلك سأحقّق نوعاً من العودة إلى الجنّة، الجنّة الأولى، تلك التي خلقها الله لآدم وحـوّاء، دون غيرهمـا، وجعـل طيّبـات الـدنيـا مُلكـاً لهـما. . . وألتقطهما في لحـظة الغوايـة المزلـزلة، تلك التي يكتشفان فيها كلاهمـا شدّة حضور الآخـر، وجذبـه اللذيذ القـاسي الذي لا يمكن أن يُـرَدّ. إنهما بذلك يكتشفـان كيف تتفجّر أنسـاغ الحياة، وكيف يكـون الخلق بمعانيه كلها، وفرحهما الواحد بالآخر إنما هو فرح الألوهية بالخلق. . . لعلّ الأفعى القديمة كانت على كثير من الحكمة والمعرفة، عندما قالت ما قالت لحوّاء.»

«رائـع، رائع،» قـال الطيّب، وقـد توقّف لحـظةً عن الأكـل، ثم أضاف، وهو يلتقط بالشوكة شيئاً من طبقه، «أكمل، أكمل.»

التقمت قـطعة لحم صغـيرة، وشيئـاً من الخضرة، وصببت كـأسـاً أخـرى من النبيذ: «حيـاتنا مـرهَقَة. أحـزاننا لا تـرحمنا. فـواجعنا لم يعرف التاريخ مثلها حجماً ومأسي. ويبدو أن الهنود كانوا محقّين عندما قالوا إن هدف الحياة الأقصى هو الخلاص.»

ـ ولكن ما علاقة الخلاص بالعاشقين اللذين تريد التركيز على قصّتهما؟ أتريد أن تقول إن الحب هو الخلاص؟

ـ ليس ذلك بالضبط. أو، ليس بهذه البساطة. المهمّ أن النظرية الهندية تقول إن الخلاص كامن في تداخل روح الفرد في روح الكون. وهذا أدّى إلى الاعتقاد بأن اتحاد الرجل والمرأة في نشوة الحب، يتلاشى فيه الحسّ بأنهما اثنان منفصلان. وتلاشي هذا الحسّ بالثنائية هو بداية التحرّر والخلاص. روح الفرد تتداخل في روح الكون عن طريق الحب. أو أن هذا التداخل هو الحبّ، وهو الخلاص.

ـ ولكن الفواجع تبقى تلاحقنا، والأحزان تجتاح المحبّين والمبغضين على حد سواء. فأين الخلاص؟

ـ الخلاص هو في الروح. في اختراق الفاجعة. في السموّ على الحزن. وعندها، ينفتح عقل المرء، وقلبه، وكيانه جميعاً، على إمكانيات التغلّب على هذا الشرّ الناخر في وجودنا عنيداً كالدود. ولعلّ البشرية تصبح أكثر خيراً عندما تصبح أكثر حباً.

ـ نائل، لست أدري كيف استطاعت فتاة طلبت منك تفاحةً أن تطلق هذه الأفكار كلها عندك، وأنت ما تزال تأكل! وأنت تعلم أن عواصم الدنيا اليوم أحلّت الفجور مكان الحبّ، ولم تترك للعشّاق حلماً يتحدّثون عنه.

ـ يا لبؤس هذه العواصم إذن! ولكنها شاءت أم أبت، تبقى في انتظار أعمال المبدعين الذين تتداخل الروح في كل منهم في روح الكون، فتتحقّق لهم بذلك لحظات الخلاص التي هي لحظات

الخلق. ولذا فمهما أحلّت الفجور مكان الحب، فإن مدن البشرية لن تحيا وتتقدّم إلاّ بأحلام عشّاقها الملهمين. وما غير ذلك إلاّ عبودية مقنّعة، وموات مستمر.

نظر الطيّب الهادي إليّ نظرة طويلة توحي بأنه لا يصدّق أذنيه. ثم أخذ جرعة كبيرة من نبيذه، وقال: «ما الذي فعلته بك سراب عفّان!»

عندها ضحكت أنا وقد انتابني شعور بأنني ربما بالغت في الحماس، وبالغت في الجدّ. وقلت: «ولكن، أنا لم أحدّثك بعد عن الخروج من الجنّة.»

ـ ها! الخروج من الجنّة هو الملهم الحقيقي. الخروج إلى معترك الخيبة، معترك الشرّ، معترك العذاب. حينئذ يصبح الفنّ ضرورة، الطريق الوحيد إلى الخلاص. فأقول حينئذ، على طريقتك، مدن البشرية لن تحيا وتتقدّم إلاّ بأحلام المعذّبين الملهمين.

ـ لا بأس، لا بأس. ولكنه خروج من الجنّة. أي أن الجنّة يجب أن توجد، لكي يخرج الملهمون منها، أو يطردوا، فيبحثوا عن طريق يوهمهم بالعودة إليها.

ـ لا، لا. الجنّة الأولى، إذا خرجت منها، لن تجد طريقاً يعود بك إليها، مهما بحثت. وخير لك أن تتعذّب، وترضى بأن تؤخذ بالألوان، والأصوات، والأفكار المجرّدة، وباليوم يتلو اليوم، فتجد فيها جميعاً الدافع، أو بعض الدافع الذي أنت تحتاج إليه في بقائك أستاذاً للقانون، أو روائياً يريد كتابة قصّة أخرى، أو كاتباً مثلي

يغوص في بحر من الكلام حتى الاختناق، عسى أن يخرج بمحارة فيها لؤلؤة، مهما صغرت.

تناولت كوب القهوة الفرنسية، وتأمّلت قتامها البنيّ، وأخذت منها رشفة، وكانت قد بردت. وعادت إليّ الأشهر الأخيرة التي عانيتها طريداً من الجنّة، وقلت: «ولكن، أيها الطيّب، يأتي يوم تبهت فيه الألوان، وتتبلّد فيه الأصوات، ويصبح غير مهمٍ ما ترى من رأي، وما تكتب من كلمة، وتتساوى الأفكار كلها في عدم قيمتها... يومٌ لا يلذّ فيه للمرء شيء، والبقاء فيه بقاءٌ نباتيّ، لولا الحسّ المستمرّ بالخيبة والألم. نتمنّى ما لا نراه، ونسمع ما لا نشتهي، كما قال المعرِّي. والأصدقاء تتباعد أصواتهم في المدى، وتغيب وجوههم في الذاكرة، والحماسات تفقد أوارها، وليس ثمّة ما يثير العين، أو الذهن، أو الجسد. مُرٌّ هو كل شيء، ورغم الشمس الحارقة فإن الظلام هو الطاغي على الساعات كلها. والتوجّس هو التوجّس بالفناء والصمت النهائيّ.»

«أرعبتني يا رجل،» قال الطيّب، وأطلق ضحكةً غريبة وهو يهزّ رأسه، «ولم يبقَ إلاّ أن تكرّر قولاً آخر لصديقك المعرّي: علّلاني، فإن بيض الأماني/ فنيت، والزمان ليس بفانِ... والله إذا لم تقتلع باريس في هذين اليومين هذه الرؤى السوداء من دماغك، فسأبقيك معي هنا إلى أن تعترف بأنك لا تعني ما تقول، وإلى أن تعدني بأنك ستعود إلى مكتبتك الجميلة في الوطن وتغلق الباب على نفسك، وتكتب قصّة العاشقينْ اللذين تمازجت روحاهما في روح الكون، حتى أدركا ساعة الخلاص! فلربّما بذلك تخلص أنت أيضاً... ثم قل لي

بشرفك، كم مرّةً خرجت من جنّتك الأولى هذه، لتعود إليها، ولو وهماً، ثم خرجت من جديد؟ وهل أنسى تلك الشابّة الفلسطينية التي أُخذت بها في أواسط السبعينات في بيروت، وهي تحدّثنا عن ابن عربي وذهوله الصوفي، وهي مذهولة بنائل عمران وتريد أن تنفينا جميعاً عنه لتحظى بحضوره الوجداني في جنّتها الأولى؟ ماذا كان اسمها؟ ريم؟ رشأ؟ وها أنت الآن تحدّثني عن سراب، ولا أدري كم رشأ صادك وكم سراب أعطشك بينهما في هذه السنوات. ثم هل لاحظت أن كولومبين، هذه الوردة التي ما كادت تتفتّح بعد، انجذبت إليك حتى من خلال الزجاج، ومن خلال لغةٍ أخرى، وجاءت إليك راكضة ترقص لتأخذ منك تفاحةً تقضمها بشبق جنسي؟ ما الذي فيك يجعلهنّ يتصرّفن هكذا وهم في ميعة البكارة؟ وبعد هذا كله تقول لي: مُرٌّ هو كل شيء، والتوجّس هو التوجّس بالفناء والصمت النهائي.»

ولم يكن لي هذه المرّة إلاّ أن أضحك أنا ضحكتي الغريبة، وقلت: «كل ما هناك هو أنني كلّ بضع سنوات تصيبني الصاعقة. ألا تُصعق أنت بين حين وآخر؟»

- وكيف تحسبني أقوى على البقاء والكتابة لولا الصواعق، مع كل حبّي لعزيزتي ربيعة؟

- ولكن السنوات أخذت تدركنا يا أبو محمد.

- تدركك أنت؟ تدركني أنا؟ لا، هذا الكلام قد أقرّه من آخرين كثيرين، ولكنني لن أقرّه منك. اسمع، نائل: من منّا ما ابيضّ شعره، وانحنى ظهره، وانقصف عمره في السنوات الأخيرة، سواك

أنت وسواي؟ إذا تركنا الحديث عن الجنّة جانباً فإن لي نظرية تزداد قناعتي بها كلّما تقدّم بي العمر. أنا وأنت من عشيرة لا تشيخ. خذها مني. لأن الفنّان لا يشيخ. وهذه قاعدة أساسية. لا يهمنّك أن شعره يبيضّ، فإن ذلك لن يزيده، كما تقول الأغاني، إلاّ هيبة، وجاذبية. فالفنّان مصدر الخيال والإلهام فيه هو الذي يحيا به، ولا يحيا إلاّ به. وهذا المصدر متمركز في ذلك الجزء من جسده حيث تتوالد وتتجدّد طاقة الحب ـ ولك أن تسمّيها طاقة الجنس التي هي في الواقع ينبوع الشباب في الإنسان، ويبدو أن مَرّ السنين يعجز عن الحدّ من هذا الينبوع، ما دام الينبوع دافقاً بالخيال والإلهام الذي يتمثّل فيه ويتوثّب به... أعني، لو كنت أنت مجرّد الدكتور نائل عمران المستشار القانوني، وأستاذ الحقوق الجامعي، لكنت الآن شيخاً تهرهر وقد جفّت فيك طاقة الحب، طاقة الجنس، وبالتالي جفّت فيك الطاقة على إتيان أيّ جديد. ولكن لأنك فنّان، وخيالك بالتالي شغّال باستمرار بقوّة هذا الجهاز السحري فيك ـ وهو جهاز «الحركة الدائمة» الذي يحلم بتحقيقه المخترعون وقد سبقهم إلى اكتشافه الفنّانون ـ فإن السنين ترتدّ خائبة عنك، عن شبابك الغامض الفائض دوماً بطاقة الحب، والباه، والخلق، والمتعة الجسدية والذهنية، وما شئت. خذها منّي يا نائل، إن الجبروت كائن في حُقّين معلّقين بين فخذيك، حيث الينبوع الحقيقي لكل إبداع عظيم!»

ضحكت من أعماق قلبي، وقلت: «سواء أكنت صائباً في هذا أم غير صائب فإنه يطيب لي أن أصدّقه جميعاً. فلنشرب نخب هذا الجبروت الهائل!»

شربنا، ثم أضفت وأنا ما زلت أضحك: «وسوف أراجعك في الأمر بعد عشر سنين من اليوم.»

قال وهو يفرغ ما تبقّى في الزجاجة من النبيذ في كأسه: «لِمَ لا تقول بعد عشرين سنة، يا رجل؟»

كان شعوراً رائعاً ذاك الذي غمرنا في تلك اللحظات، بأننا سنقوم ونترك مركز بومبيدو والزمان كله باقٍ ملك أيدينا...

* * *

عصر اليوم التالي، كان ثمّة رذاذ لذيذ منعش، بعضه مطر وبعضه ثلج، كالذي تعرفه باريس في أوائل آذار، قبيل مقدم الربيع.

خرجت من الفندق، وحول رقبتي لفاف صوفي أشعر أنه يقيني ما يكفي من خطر البرد، ولا يمنع عني لذّته. وسرت دونما هدف في «رو ديزيكول» (شارع المدارس)، بجوار مباني السوربون، وصعدت في فرع من فروعه كنت أعلم أنه في أعلاه سيبلغ بي «البانتيون»، وساحته في تلك الساعة من العصر، وفي ذلك الرذاذ المتواصل، خالية من الناس، فيما عدا بعض الفتية والفتيات الذين لاحظت أنهم يدخلون ويخرجون من بوّابة عمارة عالية تطلّ على الساحة. فانتبهت إلى أنها مدخل إحدى مكتبات الجامعة.

لم أكن قد تبلّلت كثيراً بحيث أبغي الابتعاد عن البلل، كما لم أكن قد اكتفيت من لذّة الهواء القرير الذي أتلقّاه بوجهي، بشعري، بشفتيّ، مع حُبيبات المطر والثلج، متذكّراً أمطاراً كثيرة أخرى تأتيني بأنغام نصف مُتذكَّرة، كما كان من دأب الموسيقى أن تذكّرني، دونما

وضوح، بالأمطار واللقاءات الغـريبة التي تلتمـع فيها أصـابع جميلة، وأسنان شهيّة بين شفاه تضحك.

وقفت قـرب البوّابـة أطيل النـظر إلى «البـانتيـون»، صرح أولئك العـظام الذين رفعهم وطنهم، حبّـاً بفكـرهم وإعجـاباً بفنّهم، إلى مصافّ الآلهة. غير أن دافعاً نبع فجأة من أعماقي يستحثّني على ولوج بوّابة المكتبة. وأحسست وأنا أدخل إلى أول البهو، ثم أصعد الدرج، أنني كمن يعود إلى بيته ـ على اختلاف الهندسة عن كـل ما اعتـدته في البيوت التي سكنتها. إنه الجوّ العابق بالرطوبـة التي يأتي بهـا الطلّاب والبـاحثون بثيـابهم المبلّلة، فتمازج حـرارة التدفئـة الداخليـة، ودخان السكـاير والغـلايين التي كـان يدخّنهـا كثـيرمنهـم وهم وقوف عـلى أدراج السـلالم، وصحونها، إذ لا يسـمح بالطبـع لهم بـالتـدخـين في قاعات المكتبة نفسها. وصعدت الدرج بينهم، غير شاعـر بغربتي، لا عن المكان، ولا عن روّاده، ولم يستغرب أحد مروري بهم بـاتجاه قـاعة المطالعة الكبرى.

في مدخلها جوبهت بمكتب المشرف، وعليه لافتـة تقول: «الـرجاء إبراز الهويّـة». ولم تكن عندي الهـويّة التي يـريدهـا المشرف الشاب، وكـدت أتراجـع. غير أنني عنـدما شـاهدت اتسـاع القاعـة الهائـل، وجـدرانها المبطّنـة برفـوف عشرات آلاف الكتب، وقد اكتـظّت صفّاً صفّاً بالمناضد الطويلة المحاطة كلها بـالدارسـين والباحثـين في صمت كصمت الأماكن المقدّسة، ما كنت لأتراجع بسبب هـوية لا أحملهـا. وقلت للشـابّ اللطيف: «أنـا غـريب، وأحبّ الكتب. أتسمـح لي بالدخول؟»

فأجاب مبتسماً، غير متردّد: «بدون شكّ. تفضّل.»

ودخلت لأتمشّى نحو الرفوف من بين المناضد المتواترة، وقد انكبّ الشباب والشيوخ، رجالاً ونساءً من كل عمر، على أوراقهم وكتبهم، يقرأون، ويدوّنون الملاحظات، منهم من يكتب بسرعة، ومنهم من استقرّت يده على كتاب مفتوح وارتفعت عيناه الساهمتان، فكراً أو حلماً، إلى السقف الشاهق. لم أكن أتوقّع في أمسيةٍ باردة كتلك هذا الازدحام الكثيف حول موائد المعرفة هذه، بحيث لم أجد مكاناً خالياً قد أدسّ نفسي فيه مع كتابٍ أنزله من على أحد الرفوف.

سرت في الممرّات بين المناضد وعيناي تتابعان أوراق الدارسين وأيديهم وأقلامهم، وتتابعان أحياناً وجوههم المتأمّلة المتمعّنة، وأحسست بأنها جميلة في صمتها، وفي تركيزها على المطلقات الفكرية التي أمامها. وخطر لي أنني أشبه برجلٍ هبط من المرّيخ ليرى الإنسانية متلبّسةً بفعل من أروع أفعال الحبّ. وخيّل إليّ أن الكثير من وجوه الفتيات، وكنّ كثيرات، ومعظمهنّ يلبسن سترةً من الجينز، أو كنزة صوفية سوداء ترتفع ياقتها حتى الذقن حول عنق ممشوق، تنضح بسحرٍ ربّما لم يكن، في تلك اللحظة، إلاّ من خلق وهمي أنا.

كدت أصل بسيري المتواني إلى الطرف الآخر من القاعة، حين لمحت رأساً بديعاً من الخلف، شعره الأسود الغزير مرسل على الظهر، وبعضه على الكتفين. فتوقّفت برهةً، وخفق قلبي فجأة خفقاناً كنت نسيته. ورغم أن ذوات الشعر الأسود، والأصفر، والكستنائي، المرسل على الظهر والكتفين، كنّ عديدات أينما نظرت في القاعة، فإن التي باغتتني بظهرها، وأنا لم أرَ بعد وجهها ولا يديها، أرعبتني

بلذّةٍ جعلتني أخشى الاقتراب منها لرؤية وجهها.

تسمَّرت في مكاني. أيمكن أن تكون هي؟ مستحيل! فلأعد أدراجي وأنا مثقل برفضي التأكّد ممّا أرى، ولتبقَ صاحبة ذلك الشعر سرّاً حرَّك دواخلي وخشيت الدنوّ منه، لا لأنه إن أنا رأيته سيتبدَّد وقعه، بل لأنه سيوقعني في ما هو أعمق، وادهى.

ولكنني انتبهت، وأنا في اضطرابي، إلى اليدين العاطلتين من كل حلية، المستقرّتين على المنضدة، وإحداهما تحرّك قلماً على الورقة ببطء من يحاول أن يكتب جملة لا تستقيم له بسهولة. وهي تكتب من اليمين إلى اليسار. إنها تكتب بالعربية! إني أعرف تينك اليدين الرهيفتين معرفتي ليديّ. مستحيل! واندفعت، رغم مقاومتي، حول المنضدة في الممرّ الذي يؤدّي بي إلى الناحية المقابلة لصاحبتها، لأؤكّد لنفسي أنني وقعت في وهمٍ يجب عليّ أن أخلص منه حين أجد أن المرأة الغريبة لم أرها من قبل في حياتي.

كانت مطأطئة الرأس فوق أوراقها، تلبس نظّارة سوداء الإطار، وهي منكبّة على ما تكتب بالعربية من كلمات لم أتبيَّنها. ياالله! إنها هي، سراب، دون غيرها! لم ترفع رأسها وأنا واقف عبر المنضدة أمامها، وراء الرجل البادي الصلع الذي احتلّ كرسياً مقابلاً لها، غارقاً في ما يقرأ من كتاب ضخم. ومن فوق رأسه، أو بينه وبين الرأس المجاور له، انحنيت باتجاهها، وقلت بصوتٍ أعلى قليلاً من الهمس: «هلو! سراب!»

فارتفعت كل الوجوه المحيطة بها باتجاهي، بنظرةٍ من التساؤل

وعدم الرضا، إلاّ وجهها. كانت غائبةً تماماً في ما تكتب. فاضطررت إلى أن أهمس للآخرين: «العفوا المعذرة!» ثم كرَّرت، باتجاه الفتاة: «سراب!»

نخزتها المرأة الجالسة بجانبها، لتلفت نظرها إليّ بإشارةٍ من إصبعها، فرفعت عينيها المؤطّرتين بالنظّارة السوداء الحوافّ، ولحظتُ في الحال سوادهما وطول أهدابها، وقالت بالفرنسية، وهي تنظر مندهشةً في عينيّ: «وي، مسيو؟»

فقلت بالعربية: «سراب... ألست أنت سراب عفّان؟»

نظرتْ إلى اليمين وإلى اليسار نظرات الاعتذار لتعكيري جوّ الصمت بسببها، ثم سدّدتْ نظرتها إليّ وأجابت بالعربية: «أنا سراب عفّان؟ لا، آسفة. أنت واهم.»

وعادت بعينيها إلى أوراقها وكأنها قد حسمت الموقف، فلا حاجة إلى المزيد من الكلام.

وقفت مكاني كالأبله. أحقّاً أنا واهم إلى ذلك الحدّ؟ ولكنني كنت واثقاً من أنها هي، سراب. صوتها، نبرتها، كل ما يشعّ عنها، يؤكِّد أنها هي. لم تكن الفترة التي مرّت على آخر مرّة رأيتها فيها تُحسب من الزمن في شيء إزاء الصورة التي بقيت وثّابة في ذهني، كأن كل يوم يجيء يجلو عنها غبار اليوم السابق. صحيح أنني لم أرها يوماً تلبس نظّارة طبّيّة. ولكن ليس بالمستغرب أنها احتاجت إليها بسبب دراستها. بل إن النظّارة أضافت إلى روعتها، إذ خيِّل إليّ في الثواني القليلة التي رفعت فيها عينيها إليّ، أن النظّارة زادتها، حَوراً، وألقاً، وفتنة.

وقفت مكاني، وقد أسقط في يدي. ولكنني بقيت أتأمّل فيها، راجياً أن تعود فتنظر إليّ مرّةً أخرى. وإذا هي ترفع وجهها وتنظر إليّ مستغربةً جمودي أمامها، ثم تأتي بحركة من يديها وشفتيها وحاجبيها كأنها تقول: ماذا أفعل؟ أنا لست من تطلب.

إنها كولومبين البارحة، كولومبين بدون أرليكان. وما كان لي عندها إلاّ أن أتحرّك.

سرت إلى ممرّ آخر بين المناضد، مبتعداً عنها، ومتّجهاً نحو رفوف الكتب. وقبل أن أبلغ الرفوف التي في الطرف الأقصى، شعرت بدافع قوي يستدير بي. فوجدت أن الفتاة قد نهضت، وهي تسير نحوي، حاملةً أوراقها وحقيبتها ومعطفها القصير. إنها قادمة إليّ، ما من شكّ. . . ما أجمل انسيابها حين تمشي! أيقنت الآن، وجزمت، وأقسمت، أنها هي، سراب عفّان. لأن ليس في الدنيا غيرها من يسير بمثل هذه الخطوات التي هي وسط بين الرقص والطيران، بين تهادي الظبية وتساقط الشلّال. وكان طولها الفارع يزيد من هذا الانطباع، وشعرها الفوضوي المسترسل يؤكّد عليه. وقلت لنفسي: لقد جاءت لتخبرني بأنها فعلاً سراب، ولكنها لسبب ما غيّرت اسمها، وألقت بماضيها عنها، وما عادت تلك الفتاة التي عرفتني وعرفتها. وتذكّرت «لعبة الخيال والواقع» التي حدّثتني كيف أنها ابتكرتها ولعبتها مع نفسها في كتابة مذكّراتها أياماً متوالية، وغدت بارعة في الخلط بين الحقيقة والوهم، وإحلال الواحد مكان الآخر، إلى أن تمّحي في الوعي تخوم الواحد في تخوم الآخر.

وقفت مكاني أبتسم لها، وهي قادمة نحوي تنظر إليّ، ولكن دون أن

يبدو على قسماتها أيّ ابتسام، أو أي تعبير عن معرفتها لي، كأنها نسيتني في الحال. وتذكّرت نظراتها تلك التي كان من دأبها أن تنظرها إلى العالم، إذ كنت أنتظر مجيئها الموعود في منعطف جينن، وأنا جالس خلف مقود سيارتي، فتنزل من سيارة الأجرة التي أقلّتها، وتعبر الشارع نحوي وفي عينيها فراغ عجيب إزاء العابرين والأناس الذين حولها، إلى أن تدنو من السيارة، وتنحرف نحو الباب الآخر الذي أكون من الداخل قد فتحته لها، وتدخل لتستقرّ على المقعد بجانبي، وتتحوّل مباشرةً إلى لعوب ضاحكة تحيِّيني، وتعطيني شفتيها، وتعبث بشعري، ريثما أشغل المحرّك، وننطلق بصخب لذيذ.

غير أنها هذه المرّة، عندما كادت تدركني، انعطفت متباعدة بين المناضد المكتظّة بالدارسين باتجاه الباب، دون أن تلقي عليّ نظرة أخرى. فأسرعت في إثرها. إنها هي، سراب، مهما تجاهلتني. والتقينا عند طاولة أمين المكتبة، حيث فتحت له حقيبتها المصنوعة من الجينز، وأغلقتها، وانتبهت إلى أنها تحمل في زاوية طرفها الأعلى حرفاً كبيراً بالأسود، هوS. فزاد يقيني. ولما خرجتْ، خرجتُ معها. وقلت، مرّة أخرى: «سراب!»

ضحكت هذه المرّة، وبدا لي أنها توقّعت أن ألحق بها، لأنها أجابت دونما غيظ أو تأفّف، وبالعربية: «يظهر أنك مصرّ على أنني سراب. لابأس. أأذكر لك اسمي الحقيقي؟»

ـ لا، أرجوك. أنت سراب عفّان، مهما يكن الاسم الذي تحملينه. وهذه الـS على حقيبتك تصرّح بذلك.

ـ طيّب. أنا سراب. وأنت، من تكون؟

وقفنا بين جمعٍ من الطلبة في البهو الموصل إلى الدرج، يتبادلون الأحاديث، ويدخنون. وأخرجت سراب ـ وهل لي أن أسمّيها بغير اسمها هذا، مهما غالت في إنكاره؟ ـ علبة السكاير من حقيبتها فأخذت منها سيكارة بادرت أنا إلى إشعالها بمقدحتي، دون أن أجيب عن سؤالها.

نفثت الدخان، وقالت: «لم تذكر لي اسمك بعد.»

ـ أنت تعرفينه. تعرفينه جيّداً.

ضحكت مرّة أخرى، وقالت: «كما تشاء. افرض أنني سراب. ماذا كنت تريد أن تقول لي، لو كنت أنا هي؟»

ـ أشياء كثيرة، كثيرة جدّاً. اسمعي، لنخرج من هنا، هه؟

ولمستُ ذراعها، دافعاً إياها برفق نحو الدرج، فلم تمانع، بل ناولتني حقيبتها وأوراقها، لكي تتمكّن من ارتداء معطفها، وأخرجت من جيبه منديلاً كبيراً نشرته على شعرها وعقدته تحت ذقنها. ثم استعادت منّي أغراضها، ونزلنا الدرج. وخرجنا إلى ساحة «البانتيون»، وقد زادت ثقتي من أنها هي الفتاة التي أعرف. فحتى طريقتها في الالتصاق بخفّة بجانبي ـ إذ أمسك بذراعها بحيث يكاد يلامس وجهي شعرها ـ طريقتها هي، دون غيرها. وخيّل إليّ أنني تبيّنت حتى عطرها الخافت الناعم ـ إنه هو هو، حتّى في باريس، ربّة العطور.

وتملّكني شعور جارف بأنني فعلاً أريد أن أقول لها أشياء كثيرة جدّاً، أشياء شغلتني أشهراً، بل أعواماً، قبل أن أعرفها وفي اثناء

معـرفتي لها، وبعـد سفـرهـا. وقـد أحسست في تلك اللحـظات أنها عادت إليّ ـ أو، الأصحّ، أنني عدت إليها، بل اكتشفتها ـ لكي يتـاح لي أن أفرغ بعضاً من تلك التراكمات التي لم أجد، طوال تلك الأشهر العقيمة، من أحدِّثه عنها على النحو الذي أريد.

بـدأت الحديث معهـا في ربيع علقت بـه بقايا الشتاء والمطر، ثم تصـاعد بنـا في أيام تمـوزيـة لاهبـة ـ وهـل أنسى الأوراق التي كـانت تكتبهـا في اليـوم السـابق وتـأتي إليّ بهـا لتقـرأهـا لي في مشرب «الهوليداي»، حيث تلجأ إلى ركن فيه بعيـداً عن أعين النـاس الذين يعـرفوننـا، إلى أن جاءتني يـوماً بتلك الـورقات الأربـع التـي أخذت تقـرأها بصـوت يعلو الهمس قليلاً، بصـوتٍ فيه بحّـة الحـزن وبحّـة الشهـوة، بحّة اليـأس وبحّة نشـوةٍ يتهدّدهـا نـوع غـريب من مـوتٍ متربِّص مجهول. «جئتك فرساً بربرية موشومـة. . . .» قرأت. وكـان شعرها الفـاحم الطويـل يسقط من الناحيـة الأخرى عـلى أسطرهـا، كستارة مسدلة بين وجهينا وبين العالم، لا نرى الآخـرين ولا يروننـا، ولا يعلمـون أيّ حبّ، أيّ عشقٍ، أيّ عـذاب، نحن كـلانـا في قبضته، حتى لكأنّ كل ما حولنا ليس إلاّ وهماً، وكأننـا إذا رأينا أحـداً فإنما نحن نهلوس، لأن الحقيقة لم تكن إلاّ وجهها وشعرها وشفتيهـا، وصوتها يجسّد أسطرهـا المتسارعـة كفرس جمحت نحـو هاويـة لن تجد معنى أو لـذّة لحياتهـا إلاّ في سقوطهـا فيها وتحـطّمها عـلى صخورهـا. وتحـدّثتْ، من خلال أسـطرهـا، عن أسـوار اقتحمتهـا، عن ظلمات تعـثّرت وكبت فيها، عن جمـرات مشت عليها، عن صرخـات ملأت أذنيها ورجّعت الوديان أصداءها. . .

يـومئذ انـطلقتُ، وعيناهـا السوداوان طـافحتان بـالدمـع، في حـديث معهـا لم أتحدَّث بمثله قط من قبـل، ولم يُتح لي إلاّ أقـلّ الوقت، أقـلّ الأيام بعد ذلك، للاستمرار به، وبقي معـظمه حبيسـاً في صدري لا أستطيع أن أطلقه إلاّ بحضورها، باتجاهها. فـالدنيـا على اتسـاعها لم يبق فيهـا من يستحق أن أُسمعه مـا أريـد قـولـه إلاّهـا هي. لا لأنـه متمحور فيها وحولها ـ والكثير منه كـان كذلـك ـ بل لأنـه لغير أذنيهـا كلام مهدور، غير مفهوم، وأثمن من أن تحمله الريح على متنها هبـاءً في الفضاء.

وفي تلك الليلة، جـاءني ذلك كله، كحمم استكـانت في البركـان دهـراً، وأدركتها الآن لحـظة الانفجار. ولم يهمّني نكـرانها أنها سراب عفّان، لأنني لم أشكّ ثانية واحدة في أنها هي فرسي المـوشومـة، فرسي التي كادت الهاوية أن تمزِّق أوصـالها، ولكنهـا خرجت كـاملة الجسد، رائعـة الـوجـه والأعضـاء، ولـو في بلد آخـر، في مـدينـة لم تكن في الحسبان.

وإذا هي، والثلج يتساقط علينا، تقول: «أنا سلوى. سلوى عـلي عبد الرحمن، كما لاحظت من هذه الـS التي على حقيبتي. أنت تـزعم أنني سراب التي عرفتها منذ زمان، في مدينة أخـرى. وأنا التي تـراها أنت لأول مرّة، وهنا في هـذه المدينـة الغريبـة. سلوى التي ولدت في مخيّم للاجئين الفلسطينيين في أريحـا. في مخيَّم عقبة جـبر. وحتى ذلك المخيّم البـائس استكثروه علينـا فيما بعـد. وأجبرونـا في عام ٦٧ عـلى النزوح منه، وأنا طفلة، إلى أماكن مختلفة من الجحيم. وكان نصيبنـا أولاً مخيماً في الزرقا. ومنه هاجرنا إلى عين الحلوة في لبنان. أنا كـبرت

في المخيّم. وتعلّمت في المخيّم. واختارتني منظمة التحرير للدراسة في بيروت ثم في أمريكا. وعدت أحمل شهادة الـ بي. آ. من جامعة سيراكيوز، ورفضت الزواج هناك، لأنني أردت العودة إلى عمّان، إلى أقرب مكان ممكن من فلسطين. ولم أشاهد مدينتك حتى اليوم. وها أنا في باريس، للمزيد من الدراسة. أتريد أن تعرف كيف جئت إلى باريس؟»

كانت لهجتها حقّاً فلسطينية، وقد لاحظت منذ البداية أنها لا تتحدّث إلّا بها، فحسبت أن الأمر دعابة، أو دلع، منها بعد غيابها الطويل واختلاطها بالفلسطينيين. ومع ذلك فإنني اشتبهت في أن لهجتها لم تكن فلسطينية خالصة، لأنني لم أشأ التزحزح عن ثقتي بأنها المرأة التي أعرف. ولم أدع المسألة تقلقني. إذا كانت تريد أن تلعب لعبةً هي مصرّة عليها، لسبب ما، لقضية ما، أو حتى لشذوذ ما، فلتلعبها. وأنا أريد أن أقول لها أشياء كثيرة، ولا بدّ من قضاء الليل بطوله معاً، إن أنا استطعت إقناعها بذلك.

وعندما ساورني الشكّ، للحظة متناهية في القصر، في أنها قد تكون فعلاً سلوى التي تدّعي، قلت لنفسي: إذا اقتنعتْ بالبقاء معي، فهي سراب. بل هي سراب، اقتنعت أم لم تقتنع. ولا بدّ أنها ستقتنع. في أشهرنا القليلة التي كانت لقاءاتنا فيها هي الشيء الوحيد الذي نحيا من أجله، كانت أمنيتنا أن نقضي ليلة واحدة معاً حتى الصبح ونحن نتكلّم، ولم تتحقّق الأمنية. وها هي باريس، باريس الغرباء، لتجعل ذلك المستحيل ممكناً، ولو مرّة واحدة.

كان ندف الثلج ما يزال في هَمْيٍ رخيّ، ومن خلاله اتجهنا أولاً،

دون وعي منّي على الأقل، نحو «البانتيون»، ودرنا حوله، والأنوار المتباعدة مع فجوات الظلام تضيف إلى إحساسي بأنني سائر مع سراب في حلم. ولكن كان لي من حضور الذهن ما يكفي لاقتيادها عودةً إلى الشارع المنحدر الذي جئت منه، وأنا أقول لها: «عندما نجلس في مكان قريب، سأثبت لك أنني لست واهماً فيك. أرجوك، لا ترفضي.»

ـ طيّب، أين نذهب؟ ولو أنني أعشق هذا الثلج الناعم الذي لا يشبه الحقيقة في شيء. لأنه يذوب بسرعة، وكأنه لم يكن.»

ـ سنمشي حتى تَبْيَضَّ منه أكتافنا. وعندها سنقترب من فندقي، وبجواره مطعم إيطالي بات صاحبه يعرفني، ونتعشّى فيه. ما رأيك؟»

ـ على ألَّا أتأخَّر كثيراً. فصديقتي، شريكتي في الشقّة، بانتظاري.

ـ لا، سراب، انسيها. سأذكّرك بقصائدك، وعندها ستنسين كل شيء، حتى صديقتك.

ـ قصائدي؟ ها ها! جعلتني شاعرة أيضاً! فلنَرَ الآن: أنا لست الفلسطينية سلوى علي عبد الرحمن، بل أنا سراب، سراب ماذا؟ سراب حسّان؟.

فصحّحتها بكل جدّ: «سراب عفّان.»

ـ نعم. أنا إذن سراب عفّان، وأنا شاعرة كذلك. وأنت لست غريباً. واسمك لن تذكره لي، لأنني طبعاً أعرفه جيّداً. قل لي، هل كنت تحبّ سرابك هذه؟

ـ امزحي على هواك، يا هاربة، يا فرساً جامحة...

عندها توقّفتْ عن السير، وأوقفتني. وواجهتني في الظلمة المتهافتة مع الثلج، وتأمّلتْ في وجهي، لأوّل مرّة بإمعان. أفّ! إنها هي! وهذه طريقتها في التأكّد من أي شيء. ولكنها قالت ببطء: «إمّا أنّك مصاب بلوثة،وإمّا أنّك تفتعل هذا الموضوع كله لتبقيني معك ولست أدري لماذا طاوعتك حتى الآن.»

أمسكت بكلتا ذراعيها، نافضاً عن ردنيها قطينات ثلج ناعمة، وقلت: «لأنّك تعرفين، مهما أنكرت، أنك سراب، والبقية فصل تمثيلي تعابثينني به.»

فانفجرت ضاحكة، وهي تهزّ رأسها المشدود بالمنديل الحريري، وتدفع يديّ عن ذراعيها: «طيّب، طيّب. أين مطعمك الإيطالي؟»

- قريب جدّاً. شمرة عصا.

- ولكنني أريد مكاناً أبعد.

- سنمشي إلى أن تتعبي... سراب -

- بل سلوى، أرجوك.

أوقفتها أنا هذه المرّة، وواجهتها، وقلت محدّقاً في عينيها: «رجاءً، انزعي عنك نظّارتك.»

وبحركة رشيقة أمسكت نظّارتها بين أصبعها، وأنزلتها، قائلة: «ولكن لن ترى مني كثيراً في هذا الضوء الخافت.»

وانفجر جنوني في تلك اللحظة، جنون أشهر طويلة من الانتظار والحيرة واللوعة، وأخذتها بين ذراعيّ بقوّة عاصفة قبل أن تستطيع أية

مقاومة، وقبَّلتها على شفتيها. سراب! هل أستطيع أن أنسى هاتين الشفتين؟

لم تقاوم، غير أنها أبعدتني بشيء من غضب لم يقنعني، وقالت: «بأيّ حقّ، بأيّ حقّ تفعل ذلك؟» وأعادت نظّارتها على عينيها.

ـ بدون أيّ حقّ، سوى...

ـ طيّب، طيّب.

وجرّتني من ذراعي، مستعجلة خطواتنا في الشارع النازل إلى «رو ديزيكول».

وخشيت من أنها ستتركني هناك. غير أنها رغم صمتها النسبي إزاء كلامي، إزاء هذياني المستمر، بقيت تصغي إليّ، ملتصقةً بي، والثلج يتساقط مداعباً وجهينا، إلى أن بلغنا المطعم الصغير، حيث استقبلنا صاحبه، وأجلسنا إلى مائدة قريبة من لهب الفرن المفتوح الذي تُطهى فيه أطباق البيتزا.

وبعد أن نزعت سراب معطفها، ووضعته على كرسي مقابل مع أغراضها الأخرى، نزعت نظّارتها، وقالت وهي تقدّم لي وجهها مازحةً: «والآن، انظر مليّاً. هل أنا سراب؟»

فهتفت بصوت عالٍ (خفضته بسرعة حين انتبهت إلى نفسي): «الله! لا يمكن أن تكوني إلّا سراب!»

وهزّت رأسها، بعد أن حلّت عنه المنديل المبلّل، لتطلق شعرها وترسله على طوله حول وجهها وكتفيها، وقالت: «ولكن كلامي، لهجتي، فلسطينيتي...»

ـ فلتكوني فلسطينية، فلتكوني صخرةً من القدس، ولتكوني زيتونة من نابلس، ولكنك تبقين أنت سراب عفّان. أفهمت؟»

وجاء النادل، وطلبنا بيتزا وزجاجة نبيذ أحمر. ولم يضيّع وقتاً في إحضار النبيذ.

وعندها قالت: «لماذا لا نغيّر الموضوع، أرجوك؟ هل أحدّثك عن دراستي؟ ولكن، أولاً، حدّثني عن عملك. قل ما شئت. وستجد سلوى علي عبدالرحمن كلها آذاناً صاغية.»

صببت النبيذ في الكأسين، وعادت إليّ كلمات تلك القصيدة التي زعزعتني بها ذات يوم قبل قرابة ثلاث سنوات، فلم يكن منّي إلّا أن نظرتُ في عينيها الواسعتين، وردّدتُ كلماتها: «جئتك فرساً بربرية موشومة بالطبيعة/ وخطاي نحوك قَدَرٌ رسمته عرّافة بابلية... / أيُّ زمنٍ طرقتُ معك؟ أيّ بحرٍ دخلت؟...»

ورأيت عينيها تمتلئان بالدمع، وإذا هي ترفع كفّيها أمام وجهها ووجهي، وتهمس بألم: «أرجوك، كفى، كفى...» واختنقت بنشيجها.

وسكتُّ.

وتناولت كأسي وقلت: «لنشرب نخب... نخب ثلج باريس.»

وتحدّثنا عن كل شيء، إلّا ما نحن فيه.

* * *

عندما فرغنا من العشاء، سألتني: «إلى متى أنت باقٍ هنا؟»

قلت: «ثلاثة أيام أو أربعة. أتعطينني رقم تلفونك؟»
قالت: «خذ. سجّله عندك.»

أعطيتها بطاقة فندقي، وهي تحمل عنوانه ورقم هاتفه، وسجّلت في دفتري الصغير الرقم الذي أملته عليّ، وقالت إنها تشترك فيه مع رفيقة لها في الشقّة، وهو أيضاً رقم عائلة مغربية أجّرتها تلك الشقّة في شارع قريب من «غار دي نورد» (محطّة الشمال).

وتجرأت وسألتها: «ألا تبقين معي هذه الليلة؟»

لم تُدهش للسؤال، غير أنها أجابت، وكأن إشكالية سراب/سلوى قد حُلّت لصالحها: «لا، لا. مستحيل. كيف؟ ولكن اتصل بي غداً صباحاً. هلاّ رافقتني إلى المترو؟»

ـ أأرافق سلوى، أم سراب؟

ـ أيّهما شئت!

كنت بائساً. تصوّرتني أتعامل مع امرأة فقدت ذاكرتها، أو انفصمت شخصيتها. إنها تعذّبني على نحو لا أفهمه. ولم تُبقِ لي ما أقوله.

توجّهنا نحو محطة المترو القريبة، في بولفار سان جرمان. ونزلت معها في نفق المترو حتى بوابات الدخول إلى الرصيف، وهناك عانقتها وقبّلتها بجنوني القديم، وكلّي إحساس الآن بأنني إنما أعانق وهماً استبدّ بي، ليزيد من عذابي حتى عند استسلامه لبرهتين.

وانسلّت من بين ذراعيّ، وتراجعت عني، ومرقت من خلال الباب الآلي، وبقيت أتابعها وهي تبتعد في تلك المشية التي هي مزيج

من تهادي الظبية وتساقط الشلاّل. واستدارت أخيراً لتلوّح لي بذراعها مع ابتسامةٍ تقطّع لها قلبي ألف قطعة، من الفرح لأنني وجدتها ومن البؤس لأنني لم أجدها.

وتراءى لي، من ذلك البعد، أنها تبكي.

عدت إلى غرفتي في الفندق، ولست أدري كيف عدت. حاولت أن أتابع برنامجاً تلفزيونياً، عبثاً. حاولت القراءة، فلم أستطع. وقرّرت، بعد انقضاء مدّة حسبتها كافية لوصولها إلى شقّتها، أن أخابرها هاتفياً، والساعة تقارب منتصف الليل.

عندما أدرت الهاتف بالرقم الذي أعطتنيه، أجابني صوت رجل بالفرنسية، فقلت بالعربية، وأنا مطمئن إلى أن أصحاب الدر عرب مغاربة: «من فضلك، أعطني الآنسة سر... سلوى علي عبدالرحمن.»

وإذا هو يقول: «سلوى؟ سلوى تركتنا منذ شهرين، أو أكثر.»

قلت لنفسي، فلأجرّب الآن المستحيل، وسألته: «الآنسة سراب، هل هي موجودة؟»

ودونما أيّ دهشة، أجاب: «وسراب أيضاً تركتنا معها.»

فأكّدت عليه: «سراب عفّان؟»

قال: «نعم، سراب عفّان.»

قلت: «ألم تترك لديكم رقم تلفونها الجديد؟»

قال: «لا والله. آسف جداً. والحقيقة، نحن تأسّفنا كثيراً لفراق السيّدتين. أعتقد أنهما الآن تسكنان في الحيّ اللاتيني، في مكان

قريب من السوربون، لأن سراب تدرس هناك للدكتوراه.»

أفهم أنها تـدرس في السوربـون. ولكن لمـاذا، لمـاذا بحقّ السـماء تنتحل شخصية صديقتها؟ وسألته بلجـاجة: «هـل أنت متأكّـد من أن سراب هي التي تدرس ـ»

قـاطعني بحزم: «طبعـاً متأكّـد. لأن السيّدة الفلسـطينيـة سلـوى انتهت من دراستها في العام الماضي، وأقمنا على شرفها حفلة عنـدنا. ولكن بعد أن تزوّجت سراب ـ»

ـ تقصد سلوى؟

ـ لا، يا سيّدي. سراب هي التي تزوّجت. فبعد أن تـزوّجت من أخي سلوى...

صُعقت، ولم أفهم الكلام الذي استمرّ يثرثر به. ولم أقوَ على حمـل سمّاعة التلفـون لارتجاف يـدي، بل لارتجـاف جسمي كله، وقاطعت محدّثي بشيء من الخشونة: «شكراً، شكـراً... آسف لإزعاجكم في هذه الساعة المتأخّرة...»

وقبـل أن تسقط السمّاعـة من يـدي، أضفت، وأنـا أحـاول ضبط الاضطراب في حنجرتي: «إذا اتصلت بكم مدام سراب، في يوم ما، فأخبرها أنني تلفنت لأسأل عنها...»

ـ واسمك، من فضلك؟

ـ هي تعرفه جيّداً.

وأقفلت الخط.

وبدت جدران الغرفة كأنها تطبق عـليّ وتريـد الانهيار عـلى رأسي.

فلبست معطفي ولفافي من جديد، وانطلقت خارجاً، ونزلت إلى ردهة الفندق، وسلّمت مفتاحي للخفير المسؤول الذي قال، على سبيل المجاملة: «الليلة باردة، باردة جداً، سيّدي.»

وخرجت أسير، والثلج الخفيف مايزال يتساقط، ووجدتني أسير نحو نهر السين. وعبرت الجسر إلى الضفة الأخرى، إلى شاتليه ولي هال، لعلّ ضجيجهما المستمرّ حتى الفجر يغرق الأصوات المزوبعة في رأسي، والليل والرجال والنساء تتناثر كلها مِزَقاً حولي، مِزَقاً إلى ما لا نهاية.

* * *

عدت إلى الفندق مرهقاً في حوالي الخامسة صباحاً، وسلّمني مسؤول الاستقبال مفتاح غرفتي مع رسالتين، قائلاً: «سيّدة خابرتك مرّتين، ولم تذكر اسمها.»

وقرأت في الرسالة الأولى: «مكالمة تلفونية في الساعة الثانية والربع صباحاً»، وفي الرسالة الأخرى: «مكالمة تلفونية في الساعة الثالثة وخمس دقائق صباحاً.»

لم أعر الأمر اهتماماً، رغم غرابة الوقت الذي اختارته السيّدة المجهولة لمكالمتيها، لشدّة تعبي. وأنا أصلاً لم أكن في حالة نفسية لأية مكالمة، سيّدة كانت صاحبتها أم غير سيّدة. وعندما نزعت ثيابي، واندسست في فراشي، تمنّيت لو أغرق في نوم عميق لا أفيق منه إلّا بعد خمسين سنة.

وتأفّفت جداً عندما دقّ جرس التلفون قرب رأسي بإلحاح مقيت،

وكأنني لم أنم إلاّ خمس دقائق. غير أن ضوء النهار كان يدفق من جانبي الستارة التي لم أحكم إغلاقها، ولمحت من ساعتي أنها حوالي الساعة العاشرة. تناولت السمّاعة بيد واهنة، وقلت بصوت بدا لي غليظاً لا يشبه صوتي: «هلو، نعم؟»

ـ أوه، أنت في غرفتك، أخيراً!

لدغني الصوت لدغة أفعى، وفززت من فراشي، غير مصدّق أن صاحبة الصوت هي من حسبت. وسألت بحذر: «من يتكلّم؟»

ـ ومن هي التي تريد سماع صوتها في أول النهار؟

ـ الله!

ـ سأغضب، يا نائل! هل كانت سنتان ونصف السنة كافية لتنسيك صوتي؟ كنت أتصوّر أن ثلاثين سنة لن تكون كافية.

ـ بل ثلاثين مرّة ثلاثين سنة! ما الذي فعلت بي البارحة؟

ـ خابرتك مرّتين بعد منتصف الليل، ولم أجدك. هل رحت تطلب المتعة في ملاهي باريس؟

ـ وأيّ متعة، لو تدرين!

ـ أنا لم يغمض لي جفن طَوال الليل.

ـ تستأهلين! اسمعي، يجب أن أراك اليوم. ولو لساعة. يجب. لماذا ضلّلتني، وأعطيتني رقم التلفون الذي لا يفيدني في شيء؟

ـ لم يفدك في شيء؟

ـ طيّب. فهمنا. أنت الآن متزوّجة. ولكن، متزوّجة أو غير متزوّجة، يجب أن أراك اليوم. لم تبقَ لي أيام كثيرة هنا. هل آتي لزيارتك؟

ـ بعد ساعة، سأكون معك. . . عندي عنوان الفندق في البطاقة التي أخذتها منك.

ـ لكي نشرب قهوتنا الأخيرة معاً؟

ـ نائل، أرجوك، لا تظلمني. . .

وخيِّل إليّ في الصمت القصير اللاحق أنني سمعت ما يشبه النشيج على الخط، قبل أن ينغلق.

أسرعت في النهوض، والحلاقة، وأخذت دوشاً حارّاً أيقظني تماماً وأزال بعض كآبتي. وما كدت أفرغ من تناول القهوة و«الكرواسانت» في قاعة الطعام حتى كانت سراب قد وصلت.

كان النهار بارداً، ولكن مشرقاً، عندما خرجنا إلى درجات مدخل الفندق، وابتعدت قليلاً، كالرسّام يتأمّل لوحته، لأحتوي في ضوء النهار، وبنظرة واحدة، سراب بأجمعها، بكامل قوامها وحضورها، بوجهها المورّد بالبرد كشفتيها الورديّتين (نادراً ما كانت تضع الروج على شفتيها، لعلمها بأنني أحبّ احمرارهما الطبيعي الشبيه باحمرار ورقتي وردة اقتطفت للتوّ في صباحٍ نديّ)، وفرعها المرسل بشيء من الفوضى المصطنعة، ومعطفها الأزرق المفتوح بلا أزرار على كنزتها الصوفية السوداء المرفوعة الياقة حول عنقها، والمبرزة استدارة نهديها، وتنّورتها البنفسجية الداكنة فضفاضة حول ركبتيها، و«بوتينها» الأسود الذي يتخطّى أعلاه الكاحلين قليلاً، ويكشف عن الصوف الأبيض في داخله، ويوحي بالمزيد من ارتفاع قوامها وتوازنه القلق، الجميل. وقد علّقت على كتفها حقيبة محيكة من حبال صوفية سوداء.

قالت مستضحكة قولتها التي كثيراً ما رددّتها فيما مضى: «ماذا؟ ألم ترني من قبل؟»

وكالعادة أجبت: «كل مرّة أراك فيها، هي المرّة الأولى.» وأخذت ذراعها، واندفعنا إلى الشارع، وأنا اقول: «كل من يرانا سيظن أنني اصطحب نجمة سينمائية مشهورة لا فدائية مهيّأة لمعانقة الموت من أجل أمّتها.»

قالت: «يجب أن تراني في الأيام العادية، لتغيّر رأيك. كما أن التنكّر ضروري في كل ساعة، وفي كل شكل ممكن.»

ـ لقد أقنعتني وأنا راضٍ، ما دمت أنت أنت، جميلة و...

ـ ومجنونة؟

ـ ومجنِّنة، وهو الأهم!

وعدت مرّة أخرى إلى سؤالي: «ما الذي فعلت بي البارحة؟»

ـ حاولت ما كنت أشكّ في أنني سأنجح فيه. ولم أنجح. وكيف لي أن أنجح، وأنت أمامي؟

ـ أردت التخلّص مني؟

ـ كجزء من خطّة قديمة... في المكتبة كنت قد جمعت أوراقي وتحرّكت للخروج، عندما رأيتك بغتةً تتحدّث إلى أمين المكتبة. وكنت طَوال هذه الأشهر، بعد أن عانيت ما عانيت، أقول إنني إذا رأيتك دون سابق إنذار فسأصعق وأنهار، وأفقد إرادتي، ولذا عليّ أن أتماسك وأهرب، بشكل ما. وكان لي من حضور الذهن في تلك اللحظة ما يكفي لأن أبحث عن كرسي يتيح لي أن أدير ظهري إليك، والمكان مزدحم بمن فيه، فتنتهي المسألة. ووجدت بقربي

الكرسي المطلوب، وجلست عليه فوراً، ونشرت أوراقي أمامي، مؤملة أن تجلس في مكان آخر، مكان بعيد، دون أن تراني. وكيف ستعرفني بمجرّد أن تراني من الخلف، امرأة بين أكثر من مئة امرأة.

ـ وفي مكان أتوقّع أن أرى العالم كله فيه، إلاّ سراب. ولكنك أسأت التقدير. ألا تعرفين أنك لو كنت في الطابق العاشر من ذلك المبنى لاجتذبني صعوداً إليه دون إرادة منّي؟ ما الذي دفعني إلى دخول المكتبة أصلاً، وأنا ما كنت أتصوّر أنك في باريس؟ وتمثيلك أيضاً لم ينجح ـ ولو أنه كاد ينجح، لأنك جعلتني لأكثر من برهتين أشكّ في أنني فعلاً أتعرّض لامرأة غريبة، وبإصرار معيب.

ـ لم أنجح، لأنني خشيت فجأة أن تعتذر وتتركني. ضعفت أمامك، وفاجأتني الرغبة في أن ألقي بنفسي على صدرك. وفي تلك اللحظة، رضيت بالفشل، لأنه معك ألذّ، وأصدق.

ـ على طريقتك، بالطبع. وماذا ستقول الآن صديقتك رندة الجوزي عن تخلّيك عن العقل والأصول مرّة أخرى؟

ـ رندة؟ سأروي لها كل شيء. متى تحدّثت إليها آخر مرّة؟

ـ قبل رحيلك بثلاثة أيام أو أربعة. لم تخابرني بعد رحيلك، ولو مرّة واحدة، الخائنة.

ضحكت سراب: «لأنها هي أيضاً جاءت إلى باريس، ودفعتني إلى ما أنا فيه.»

ـ دفعتك؟

ـ أعني إلى الزواج. أو، لكي أكون أكثر دقّة، إلى عدم الزواج.

ـ عدنا إلى الألغاز؟

ـ ألا تعلم، أيّها الكاتب الكبير، يا صاحب المرايا، أن الحياة كلها سلسلة من الألغاز؟

كنّا قد بلغنا مقهى صغيراً فيه طاولتان قرب النافذة، فدخلناه لنحظى بإحداهما. وكان دافئاً جدّاً، بحيث، عندما جلست سراب، راحت تخلع معطفها الأزرق عن كتفيها وهي جالسة، كما كانت تفعل فيما مضى، وأنا أرقب حركاتها: شعرها وهو ينسدل مرّة أخرى على ظهرها وحول وجهها؛ كتفيها وهما ينحدران إلى ذراعين أشتهي احتواءهما؛ ونهديها وهما بحركتها يترنّحان قليلاً وراء الكنزة الضيّقة، ثم يستقرّان على ما يشبه تحدّياً لي أنا المتطفّل الآن على امرأة متزوّجة، ربّما؛ ثم يديها وهما تسترخيان على المائدة الصغيرة في انتظار السيكارة التي سأقدّمها لها. وما كادت تنفث الدخان من شفتين حافلتين، وأنا ما أزال أتابع كل إيماءة وكل نأمة منها، حتى ضحكتْ، (وقلت لنفسي في لحظة من الدهشة: حسبت أنها ستبكي، ولكنها تضحك!)، وتمعّنت في بريق أسنانها، وهي تقول بمكرها الذي يغيظني بالمماطلة: «ماذا قال شكسبير عن الحياة؟ قال: ما الدنيا إلاّ مسرح كبير، وما الرجال والنساء إلاّ ممثّلون... أو شيئاً من هذا القبيل. ألم يقل كذلك في مكان ما إن الحياة لغز كبير؟»

قلت: «والله، أنت أدرى. أنت التي درست الفنون المسرحية.»

ـ ثم من قال إن مفارقة المفارقات هي أن الكشف عن الحقيقة يعتمد على إخفائها؟

جاء النادل وطلبنا قهوة اسبريسو. وقالت سراب: «أتدري ما

موضوع دراستي للدكتوراه؟ «الدراما الفرنسية وأثرها في المسرح العربي في القرن العشرين.»

- رائع. ولكن، لنعد إلى لغزك الصغير، إزاء لغز الحياة الكبير. متزوِّجة أم غير متزوِّجة؟

- اسأل رندة الجوزي!

- جاءني الخبر من ربّ العائلة المغربية التي كنت تسكنين عندها. ألم تعطيني رقم تلفون تلك العائلة لكي توفّري على نفسك الألم في إعلامي بلسانك؟

- ولكنني غير متزوّجة.

- سراب! أتزوّجت، وأسرعت إلى الطلاق؟

- لا هذا ولا ذاك. كان الأمر يتعلّق بيحيى أبو السعد أكثر منّي.

- لا أفهم.

- يحيى أبو السعد الذي زعمنا أنه أخو سلوى رفيقتي في التنظيم وفي الإقامة عند العائلة المغربية.

- كنتم تضلّلون حتى العائلة الطيّبة التي تعيشون معها؟

- كنّا نسهّل على يحيى التحرّك المطلوب، ثم تمكينه من الهرب. أمّا الآن، فقد عاد إلى القدس، وغيّرنا مكان إقامتنا أنا وسلوى، ولا حاجة إلى الاستمرار بحجة زواجي المزعوم.

- هذه تعقيدات لا أفهمها. لعلّها من ضرورات النضال في بلد غريب. المهمّ: أكّدي لي، هل أنت فعلاً -

- نائل! ألا تصدّقني؟

ـ ألست مستمرّة في لعبتك الغامضة حتى معي؟ ألست مستمـرّة في تضليلي؟

زمّت شفتيهـا، وقطّبت حـاجبيها، وهي تنـظر في عينيّ، مازحـة، جـادّة، مستمرّة معي إلى مـا لانهاية بمكـرها اللذيـذ، المغيظ، وأنا في انتظار جوابها. ثم قالت: «أأنـا أضلّلك؟ قد أضلّلك قليـلاً، لأن لا بدّ لي من ذلك، ربّما لكي أُبقي على حبّك لي. ربّما لأنني أريـدك دائماً أن تبحث عنّي، أو أن تبحث عن أمـر لـه صلة بي، مهـما كنتَ في شكّ، فأبقى ماثلةً دوماً في بالك. هل أنا أنانيّة؟ لو قلت لك مثلاً إن رندة الجوزي هي اختلاق محض، هل ستغضب عليّ؟ لا تغضب هه؟ أنـا رنـدة الجـوزي، بقـدر مـا أنـا سراب عفّـان. أتـرى كيف كنت أضلّلك، فـأحبّك بـذلك مـرّتين، مـرّة كسراب، ومرّة كـرندة. مـرّة كعاشقة، ومرّة كمتطفّلة. ألم تَشُكّ في لحظة مـا أيامئـذ أن رندة، كلّما اتصلت بك تلفونياً، قد تكون أنا؟»

وعندها أمسكت بكلتا يديها، وجعلت، على مرأى من الجالسـين في المقهـى والسابلة في الشارع، أقبّلها كالمعتوه، أقبّل أصـابعها، أقبّـل راحتيها، وظاهـر يديهـا. وانفجرت بي شهـوة لعناقهـا وهصرها عـلى صدري، وهي تضحك، وتضحـك، وتقول: «نـائل، كفى، كفى، نحن في مكان عام...»

وأحسست أن سراب عـادت أخيـراً إليّ، عـادت بجسـدهـا، بروحها، بتناقضاتهـا، عادت إلى الـرجل الـوحيد الـذي يفهمها حتى النخاع، وفي الوقت نفسه لا يفهمها، ويعشقهـا للسببين الاثنـين معاً وما تلا ذلك من حديث، وجدل، وسؤال، وجواب، وحـركة، كـان

بعضاً من دوران الدرويش الذي كنت أنطلق فيه راقصاً مع سراب، مع ملمسها، وصوتها، وعطرها. واتّجهنا نحو مطعم يونانيّ صغير في أحد الأزقّة المتفرّعة عن بولفار سان ميشيل، وفي ركن معتم منه كان اللحم المشويّ والنبيذ الأحمر ونحن متقابلان على المائدة غداءنا في الجنّة. وذكرت لها الطيّب الهادي، وتأمّلاتنا في الجنّة الأولى والجنّة الآخرة (أعطيتها رقم هاتفه للاتصال به إذا اقتضى الأمر يوماً، واتصلت به هاتفياً لأعلمه أنني «وجدتها»، وأن مشروع أحاديثنا «المشّائية» مؤجّل إلى موعد آخر). وفاجأتها بالسؤال عن أحوالها المادّية، وباريس على ذلك الغلاء الذي أدهشني بالنسبة لما خبرته فيها قبل سنوات، في أواسط الثمانينات، وطمأنتني أن والدها يعرف الآن كل شيء، وأنه رتّب إرسال مبالغ منتظمة من حساب له في لندن تغطّي نفقات دراستها ومعيشتها، وعلّقتْ على ذلك: «لم أكن أدرك أن دخل أبي بهذا الحجم! لماذا لم تحاول أنت أيضاً أن تكون جرّاحاً كبيراً، وتتمتّع بدخل كبير كدخله؟» فقلت: «أسرعي بالعودة إليّ في الوطن، لتدركي أن لا حاجة لسؤالك هذا.» فأجابت بمكرها المماطل نفسه: «بعدين، بعدين...»

ولّما كرّرت الدعوة، قالت: «أتريدني أن أعود إلى القسر، والعمى، والأحادية اللعينة في كل شيء، بليّة كل العرب؟ أنا هنا في القلب من كل شيء، وعلى طريقتي. وما التزمته من نشاط هو الآن حياتي كلها، أقدّسه، ولن أستطيع الحديث عنه، حمايةً له وحماية لنفسي، مهما يدفعني إلى التخلّي حتى عن الذين أعشقهم. فإمّا أن تكون «تحت الأرض»، وإلاّ فأنت مكشوف ومفضوح في يومين...

وكـل ما أفعله إنمـا يصبّ في النهايـة في الانتفـاضـة نفسهـا، في ثـورة الحجـارة، هذه الثـورة التي أذهلت العالم. حتى ثـورة سبارتـاكوس لا تدانيها شجـاعةً ونبـلاً وتضحية. ومنـذ اليوم، أينـما قامت ثـورة على الطغيان، ستكون ثورة الحجارة هي النموذج الذي يُحتذى في مقـارعة الطغاة... أتذكر كلامنا في تلك الأيام عن الحصار اللعين، والبحث عن الخـلاص؟ أتـذكـر الأوراق التي كنت أطلعـك عليهـا؟ أتـذكـر مغامراتنا في المرايا التي أدخلتني فيها؟ إني أكسر الحصار وأنطلق، كـل يوم. وأكتب. أكتب كثيراً، ولا أضـطرّ إلى إعمال المقصّ اليـوم في ما كتبت البارحة، كما كنت أفعل هناك كل مـرّة، خوفـاً من قارىء غبيّ مجهول. لو تعلم كم صفحةٍ وصفحة مزّقـت من يومياتي، خوفـاً من وقوعها في أيدي الآخرين، في أيدى الغيلان المتـربّصين في كـل زاوية وكل مدخل دار...»

«عاشقة، عـاشقة هـائلة أنت يا حبيبتي،» قلت بمـزيج من الفخـر والإعجاب، والحزن والخيبة، كلها معـاً. «طبعاً، أنـا الخاسر الـوحيد في هـذا كله، لأنني مجبر عـلى البقـاء بعيـداً عنـك. وسـأبقى أخـاف عليك، كل يوم، كل لحظة. وأخشى أن تقعي في هذا البلد، عـاجلاً أو آجلاً، ضحية حصار من نوع آخر، تكون أبعاده مدمّـرة على نحـو قد لا تتوقّعينه الآن.»

ـ عندما أكتشف ذلك، هل سأجدك في انتظاري؟

أمسكت بيـدهـا عـلى المـائـدة، وعصرت أنـاملهـا، وأجبت عـلى طريقتها: «من يدري، من يدري؟ كل ما أرجوه هو ألاّ أضـطرّ يومـاً إلى إنفاق أموالي، وأموال الدكتور علي عفّان، على إنقـاذك من مخالب

الشرطة الفرنسيّة، ومحاكمها. ولو أنني لن أتردّد في ذلك ثانية واحدة.»

ثم قالت، دون سياق منطقي: «يومياتي، كتاباتي، نائل، لم تقرأها كلها بعد. سأطلعك عليها في يوم ما. ربّما عندما أنتهي من دراستي هنا، وأنتهي من تنفيذ مهمّتين أو ثلاث... ولكنها ليست للنشر، تذكّر!»

سألتها: «يوميات الحبّ، أم اليوميّات الأخرى؟»

ضحكت وأجابت: «أتظنّني أقلّ شأناً من منى عيساوي، كاهنتك الوثنية؟ وإذا وجدت أيّ شبه بين لغتي ولغتك بين حين وآخر، فلن يكون ذلك إلاّ من قبيل الصدفة!»

وفي تلك الليلة، إذ رحت أحدّثها عن هلوساتٍ ما كان لي أن أتحدّث عنها لأحد سواها، لأنها بغيابها أو بحضورها هي مثيرتها ومحرّكتها كيفما شاءت، كان حبّها يدفق عليّ بفيضٍ من أفكارها وأحاسيسها، وهي تستدرك كل مرّة بأنها إنما تحاول أن تفرغ بعضاً ممّا يتراكم في ذهنها عشقاً، فرحاً، موتاً ـ يتراكم في ذهنها، في أعماقها، عصيّاً على الكلمات، عصيّاً على الشرح: «ألا ترى ما معنى أن أحبّك هكذا، وأن أكون ما أنا ومن أنا، دون أيّ تناقض؟

«بين أحزاننا ومخاوفنا، بين مآسينا اليومية وتوقّعاتنا الفاجعة، أنا كمن يبحث عن خيط من لحنٍ، من عزفٍ مجهول يصالحني مع هذه الأحزان والفواجع. ولكن كيف للإنسان أن يتصالح مع الألم إلاّ بقهره عن طريق فعلٍ ما؟ إنني أبحث عمّا يشبه تلك الموسيقى

الصاخبة بـأنغامهـا الهـائلة التي تحقّق الانقـذاف إلى حيث يعلم المرء أنه يحمل عبء العالم على ظهره، ولكنه في الوقت نفسه، كما بمعجزة، يحلّق في الفضاء خفيفاً دونما خطة أو غاية ـ ولتذهب الخطط والغـايات كلها إلى الجحيم...

«ألا ترى، نائل، أنني ما قرّرت أن أجابه الموت إلاّ بمـلء إرادتي، وأنا في القمّة من صحوي الفكري، وصحوي الجسدي؟...

«آه لو أنّ الجسد يوجد كطاقة ذهنية صرف، كشيء لا حدود لـه، لا وزن له، كفكرة تتصـاعد كـالفقاقيـع، وتتلاشى، وتعـود لتتكوّن، وتتلاشى من جديد... لو أن الوجود يتحوّل إلى حركة كحركـة غيمة تتـدافعها ريـاح عـاليـة، إلى ان تتكـاثف مـطراً ثم تنحـلّ، ثم تعـود لتتكاثف وتفنى مطراً مرّة أخرى... ويظلّ البقاء والفنـاء متلازمـين، متداخلين، على نحو ما...»

تتـوقّف، ولسـانها يـرطّب شفتيهـا ويتحسّس الــطراوة فيهـا، ثم تتساءل وعيناها تائهتان: «والبقاء، ما الذي يعنيه؟ نائل، البقاء حسّـاً ولذّةً، كما في هذه الساعة، والبقاء وجعاً ومواجهـةً للموت، للقتـل، كـما في كل سـاعة... البقـاء في إعصـار من أوهـام مـدوّمـة في قلب اللحـظة الآنيّـة، هــذه اللحـظة الـراضّـة بحقـائقهـا، الجـارحـة بـإلحاحـاتها... والبقـاء في زوبعةٍ من الأصـوات العـاصفـة من كـل صوب، المتصاعدة إلى ذروة من العنف، ثم الصمت فجأةً، كصمت الإغماءة وانقطاع تيّار الحياة... أوه، نـائل، البقـاء والفناء يتـلازمان ويتداخلان أبداً، كما المستحيلات...»

واستمرّت بنا الزوبعة ثلاثة أيام بلياليها، تمنّيت لو أن الحياة تكفّ عن الاستمرار وتتجمّد عندها، لأنها لا يمكن أن تكون في يوم قادم أحرّ لوعةً أو أزخم لذّة. . . ورافقتني أخيراً في سيارة الأجرة إلى مطار أورلي، وهناك أيضاً قلنا كلاماً كثيراً، نعنيه أو لا نعنيه: تفاسير، وعود، رجاءات، وسراب تتوقّد مرّة كنجمة نائية لا تُطال، ومرّةً كجمرة لاهبة، وتنزلق كل مرّة من بين أصابعي كزئبقٍ بتُّ معتاداً عليه، مستمتعاً بانزلاقه واستعادته.

عند الوداع، كانت دموعها تجري، وذقت ملحها على خدّيها المورّدين، وبقي ملحها على شفتيّ. وفي الطائرة، وأنا أشدّ حزام الأمان، وأمتنع عن التدخين الذي تحرّقت إليه، تساءلت: ترى هل سألقاها مرّة أخرى إن أنا عدت إلى باريس؟ هل رقم الهاتف الذي أعطتنيه دون العنوان، صادق هذه المرّة؟ بل هل هي طالبة في السوربون أصلاً؟ هل هي حقّاً غير متزوّجة؟ وما الذي هي فعلاً تقوم به في التنظيم الذي ترفض الحديث عنه إلاّ بالإشارة والتلميح؟ سأنتظر اليوميات التي وعدتني بها ـ هذا إن كانت ستفي بوعدها.

غير أنني شعرت أن هذا كلّه، في حقيقة الأمر، ما عاد يهمّني كثيراً. ما عاد يهمّني من سراب إلاّ وجودها، كيفما كانت، أينما كانت: أمدّ ذراعيّ إليها وكلّي توق، فإذا احتضنتها كنت أسعد العشّاق جميعاً، وإذا أفلتت من يديّ عشت في توقّع احتضان قادم أعرف أنه سيكون طرياً كشلّال دافق في صباح بارد، وحارقاً كشمس الظهيرة في يوم تمّوزي كبعض أيام لقائنا الأوّل.

وتبقى سهام في تمثالها المرمري ترنو إليّ في الصباح حين أستيقظ، وفي الليل عندما آوي إلى فراشي، تبتسم، وتتساءل، وتأسى، وتريد شيئاً من جواب مفهوم. وليس لي إلاّ أن أتجاهلها، معتذراً، لأن الجواب، أيّ جواب، سيكون طويلاً، وصعباً، وتبريرياً، وعلى الأرجح في خاتمة المطاف، غير ضروري.

أواخر ١٩٩٠

مهما تتعدَّد المواضيع في هذه الرواية، فإنها أساساً قصة حب. ولكن الحب هنا من نوع غير عادي: عنيف، وقاسٍ، وكثير التأمّل في الذات.

وسراب عفّان ستثبت أنها امرأة غير عادية، فتجد أن حبّاً كهذا لا بدّ أن يكون مغامرة خطرة في أكثر من اتجاه، إذا كانت تبغي خلاصاً لنفسها، ولغيرها.

ونائل عمران، الرجل الذي يفاجأ بهذا العشق، سيذهل حتى الألم لما حرّك في سراب من طاقة هائلة، وحيوية أخضعت العقل والجسد لإرادتها، تحقيقاً لإنسانيتها وحرية قرارها.

وهي قد تصرّ على أن تمازج بين واقعها وخيالها، أشبه بممثّلة تقمّصت دوراً على المسرح، وخرجت إلى الطريق وهي مستمرّة في دورها، إلى أن تحوّل وهمها إلى حقيقة.

لقد أضاف جبرا ابراهيم جبرا، بروايته الجديدة هذه، امرأة متفرِّدة أخرى إلى الشخصيات النسائية المتميّزة التي صوّرها في رواياته السابقة.

تصميم الغلاف: نجاح طاهر



دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت